

مكتبة الدراسات التاريخية

العلاقات السياسية بين المماليك والمغول

في الدولة المملوكية الأولى

تأليف

الدكتور فايد حماد عاشور

قدم له وراجعته

الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم

أستاذ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية



دار المعارف بمصر

**Collection of Prof. Muhammad Iqbal Mujaddidi
Preserved in Punjab University Library.**

پروفیسر محمد اقبال مجددی کا مجموعہ
پنجاب یونیورسٹی لائبریری میں محفوظ شدہ

مكتبة الدراسات التاريخية

العلاقات السياسية بين المماليك والمغول

في الدولة المملوكية الأولى



تأليف

الدكتور فايد حماد عاشور

قدم له وراجعته

الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم

أستاذ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية



دار المعارف بمصر

132347

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ - كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

تقديم

عندما طلب مني الدكتور فايد حماد عاشور أن أقدم لكتابه «العلاقات السياسية المغولية في الدولة المملوكية الأولى» سعدت لأكثر من سبب . أولاً لأنه تتلمذ عليّ في أثناء دراسته في قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، وكان طوال سني دراسته مثالا للطالب الممتاز علماً وخلقاً . وثانياً لأنني اشتركت في مناقشة رسالته التي تقدم بها في سبتمبر ١٩٦٩ لنيل درجة الماجستير في الآداب من جامعة عين شمس . كما اشتركت في مناقشة رسالته التي تقدم بها للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة عين شمس في أغسطس ١٩٧٢ . وقد تناول في رسالتيه موضوعين من الموضوعات الصعبة مبدياً مهارة واضحة في معالجتهما .

وأول ما يستلفت النظر في الكتاب الذي بين يدي القارئ أنه يمتاز بجذته وأصالته . إذ لم يظهر فيه للآن بحث مستقل قائم بذاته يلم بكل أطرافه وجوانبه في دراسة موضوعية جامعة . وكل ما هنالك نتف وشذرات مبعثرة هنا وهناك لا تشفى من غلّ ، ولا تعطي القارئ فكرة واضحة متكاملة عن العلاقات السياسية بين المغول ودولة المماليك البحرية .

وقد قسم المؤلف كتابه إلى فصول خمسة ، تحدث في أولها عن نشأة المماليك ونسبهم وتربيتهم وثقافتهم وبداية دولتهم بمصر . كما أشار إلى الجيش المملوكي وفرقه وطوائفه وطبقاته وأنظمته وسلاحه وتدريباته ، هذا الجيش الذي كان عليه التصدي للخطر المغولي الذي هدد منطقة الشرق الأدنى الإسلامي بشر كبير خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري وفي فترات متقطعة من الشطر الأكبر من القرن الثامن ، وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن المغول وأصلهم وعاداتهم وتقاليدهم . والجيش المغولي وفرقه وخططه وتكتيكاته الحربية . واستلزم ذلك من الباحث عقد دراسة مقارنة بين الجيشين المملوكي والمغولي كمدخل طبيعي لموضوع البحث .

وفي الفصل الثاني استعرض المؤلف علاقة المماليك البحرية بالمغول حتى نهاية

حكم المظفر قطز . ومن النقاط الهامة التي ناقشها في هذا الفصل موقعة عين جالوت التي ألحق فيها المماليك هزيمة ساحقة با لجيش المغولي تركت النتائج المترتبة عليها آثارها على مجريات الأمور والأحداث وقتذاك . ويدل تحليله للموقعة على عمق في البحث ووضوح في الرؤية . أما الفصل الثالث فقد خصصه المؤلف لشرح طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين المغول والمماليك في عهد السلطان الظاهر بيبرس . والتي كانت تتأرجح بين الحرب والسلام وبين العداة والصفاء وفقاً لمقتضيات الظروف والأحوال . وحتى تكتمل صورة العلاقات بين بيبرس والمغول ، تطرق المؤلف إلى الحديث عن قوى أخرى كانت طرفاً في هذه الصلات بشكل مباشر أو غير مباشر ، ومنها على سبيل المثال دولة الروم وبلاد الأرمن وإفريقية الشام . فتناول بطريقة سليمة العلاقات المتشابهة المعقدة المتداخلة في بعضها بين هذه القوى وبين كل من المغول والمماليك . وفي الفصل الرابع من الكتاب عالج المؤلف موضوع الصلات التي كانت قائمة بين الطرفين في عهد المنصور قلاوون وأولاده ، وهي لا تزيد عن كونها في مجموعها امتداداً للعلاقات السابقة :

وفي خاتمة الكتاب أشار المؤلف إلى خلاصة الآراء والأفكار التي توصل إليها ، كما ضمنها تقييماً شاملاً لموقف ممالك مصر من كل من مغول فارس ومغول القفجاق ، أو بكلمة أخرى مغول الشرق ومغول الشمال . وذيل الكتاب بعدد من الملاحق الهامة التي تخدم الموضوع .

لقد تناول المؤلف في كتابه القيم العديد من القضايا والمسائل الهامة وتوصل فيها إلى آراء وأفكار طيبة تكشف عن حاسة تاريخية سليمة . ومنها ، على سبيل المثال ، الأسباب التي جعلت علاقات المماليك بمغول فارس تتسم في أغلب الأحيان بطابع العداة . في حين كانت علاقاتهم بصفة عامة ودية مع مغول القفجاق . ومنها أيضاً مدى إفادة المماليك من الحلاف القائم بين مغول الشرق ومغول الشمال ، مع تقييم موضوعي دقيق للحروب والمعارك التي قامت بين المماليك ومغول فارس والنتائج التي ترتبت عليها . كذلك يسلط الكتاب الأضواء على الدوافع الكامنة وراء فترات العداة والبغضاء بين المماليك والمغول ، وفترات الوثام والسلام بينهما . ولم ينس الباحث كذلك تقييم العلاقات المتشابهة بين القوى الثلاث المتصارعة على

مسرح الأحداث وقتذاك ، وهي المماليك والمغول وأهل الغرب اللاتيني ، مع تحليل دقيق لموقف المماليك حيال هذه القوى . كذلك أدلى الباحث بدلوه في العديد من القضايا الصعبة ، نذكر منها موقف أهل مصر والشام من الأحداث التي كان الشرق الأدنى الإسلامي مسرحاً لها وقتذاك ، والتكتل الصليبي المغولي ضد الإسلام وموقف المماليك البحرية منه ، والتنافس بين البوذية والمسيحية والإسلام في سبيل اكتساب المغول إليهم ودور ممالك مصر في هذا الشأن وأثر ذلك على العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، مع بيان أثر العامل الاقتصادي في تكييف العلاقات السياسية بين الطرفين ، وتأثير الحروب المتتالية بينهما على الأحوال الاقتصادية في دولة المماليك البحرية ، وما إلى ذلك من النقاط العويصة التي عالجها المؤلف في ثنايا الكتاب وتوصل فيها إلى آراء صحيحة قيمة .

وبناء على ما تقدم يعدّ كتاب الدكتور فايد حماد عاشور كسباً للمكتبة العربية يسد فجوة في ناحية لم تأخذ حقها الكافي من البحث والدراسة ، ويفتح آفاقاً واسعة لدراسات جديدة متجددة .

د . جوزيف نسيم يوسف

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الإسكندرية في ١٠ ديسمبر ١٩٧٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

لا يعرف التاريخ حرباً مدمرة . وهدماً للمدنية مثل التي قام بها المغول في الشرق الإسلامي والدمار الذي حاق بالمنطقة على أيديهم والتي انتهت بسقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م وتقدم جحافلهم إلى الشام وبالتالي أصبحت تهدد العالم الإسلامي كله بل الغرب المسيحي ، هذا في وقت كان الضعف والتفكك يسودان المنطقة لولا أن قيض الله لها . عنصراً جديداً ، ودماء جديدة لتحمي العالم الإسلامي وتتصدى لهذا الخطر المدمر وتهزمه في موقعة عين جالوت الخالدة (٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م) والتي تمثلت في قوة المماليك ، إلا أن هذا لم يكن معناه انتهاء الخطر . وإنما كان بداية لنوع جديد أو طور جديد من العلاقات . فعلاقات يسودها الطابع العدواني بينهم وبين مغول الشرق ، وعلاقات يسودها السلم والود ، بل وصلت إلى حد المحالفة مع مغول الشمال (القبيلة الذهبية) .

ولقد كان يتخال ذلك الصراع فترة من السلم في أثناء حكم بعض الأيلخانات الذين اتخذوا الإسلام ديناً لهم مثل أحمد تكودار ، إلا أن فترة السلم كانت قصيرة . ويعتبر هذا الكتاب أول بحث مقارن في أطوار العلاقات بين المماليك والمغول في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي .

ولا أحب هنا أن أستعرض فصول الكتاب بل أتركه يتحدث عن نفسه . وإنني لا أستطيع أن أختم هذه المقدمة دون أن أتوجه بشكري إلى أستاذي الدكتور جوزيف نسيم الذي تفضل مشكوراً بمراجعة الكتاب والتقديم له .

وبعد فأرجو الله أن أكون وفقت في إزالة بعض الغموض عن ملامح تلك الفترة من تاريخنا والله ولي التوفيق .

د . فايد حماد عاشور

الدوحة - الخميس ١٧ / ٤ / ١٩٧٥

الفصل الأول

المماليك والتتار

أولاً - المماليك:

نشأة المماليك في بلاد الإسلام:

يعتبر العباسيون أول من استعملوا العنصر المملوكي في دولتهم ، سواء أكان ذلك في الجيش أم القصور أم الإدارة . لعدم اطمئنانهم إلى العرب أولاً ثم فيما بعد إلى تغير الدولة على الفرس الذين كانوا عماد تكويتها في بادئ الأمر ، ولكنهم ما لبثوا أن وجدوا أنهم وإياهم كالمستجير من الرمضاء بالنار . ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى تدخلوا في شؤون الدولة واختيار الخلفاء وعزلهم بما يتفق وهوامهم ، وظهر ذلك واضحاً زمن الخليفة الواثق عام ٢٣٢ هـ (٨٤٦ م) عندما عرض عليهم ابنه فرفضوا توليته لصغر سنه ، ثم أشير عليهم بجعفر بن المعتصم فقبلوا ذلك الاختيار فبايعه الناس . هذا في الخلافة العباسية (١) أما الدولة الطولونية التي قامت في مصر ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ (٨٦٨ - ٩٠٥ م) فقد اعتمد أحمد بن طولون على المماليك ، ويمكن القول إنه أول من استخدم المماليك بمصر في جيشه وجلبهم إليها بأعداد ضخمة قيل إنهم بلغوا أربعة وعشرين ألف مملوك ، رجاء أن يتمكن من الاستقلال بولاية مصر عن الخلافة العباسية ، ولم يكن الأخشيديون أقل من أحمد بن طولون في استخدام هذا العنصر ، ونستدل على أن الفاطميين حين انتقلهم إلى مصر سنة ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ (٩٦٩ - ١١٧١ م) كانوا في حاجة إلى جيش كبير يستطيعون به حماية سلطانهم ، فلجأوا إلى الأتراك وشراء المماليك (٢) . ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر عام ٥٦٧ - ٦٤٨ هـ (١١٧١ - ١٢٥٠ م) جلب سلاطينها أعداداً ضخمة من المماليك واعتمدوا عليهم في جيشهم وبناء قوتهم ، ويعتبر

(١) العبر والمبتدأ والخبر ج ٥ ص ٣٧٠ ، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ٢٢ ، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره

الملك الصالح أيوب مؤسس فرقة المماليك البحرية في مصر ، والسبب في ذلك تفرق العناصر الكردية عنه ، وتركهم لخدمته فلم يبق معه منهم إلا القليل وخاصة مماليكه ، فلما تولى الملك أكثر من شراء المماليك وجعلهم معظم عسكره (١) ورباهم تربية عسكرية ، وادتم بهم وقبض على الأمراء الذين كانوا في خدمة أبيه وأخيه واعتقلهم واستعاض عنهم بأن أعطى مماليكه الأموريات والمناصب ، فصاروا بطانته والمحيطين به ، ولكنهم سرعان ما أكثر فسادهم وعبثهم وشرهم ، فضج الأهالي من ذلك وقال في ذلك الحال بعض الشعراء :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدواته يا شر مجرب
قد أخذ الله أيوباً بفعلة فالناس قد أصبحوا في ضر أيوب (٢)

فلما اشتد سخط الناس عليهم فكر الملك الصالح أيوب في نقلهم إلى جزيرة الروضة واتخذها سكناً لهم وأنفق عايبها أموالاً عظيمة لبناء قلعها ، وكانت قبل ذلك متنزهاً لوالده فآتم تعميرها وأنشأ بها العمائر في ثلاثة أعوام ، وتحول إليها وسمى المماليك الذين أسكنهم بها بالمماليك البحرية لإحاطة ماء النيل بهم واتخذ منهم الملك الصالح أمراء دواته وبطانته ومماليكه الخاصة وحرسه الخاص (٣) . وكان معظم المماليك الذين جلبهم السلاطين الأيوبيون من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز واندنجاك وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر ، بالإضافة إلى مماليك جلبوا من البلاد الأوربية ، ومن هذا الخليط تكون الجيش الأيوبي .

نسب المماليك وتربيتهم وثقافتهم :

المملوك أصلاً من الامتلاك للشيء . وكان مصدرهم الشراء والأسر في ميدان القتال . ثم الإهداء والهبات وفي شكل ضريبة أو جزية يدفعها حكام الولايات ، وكل المماليك كانوا عبيداً أرقاء ولكن ليس كل العبيد مماليك ، واختص ذلك اللقب بالرقيق الأبيض دون السود ، وكان أول مصدرهم بلاد الأتراك في وسط

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٢٤٠ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣١٩ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

آسيا ثم من غرب آسيا ومن أنحاء كثيرة من أوربا ومن بلاد بحر البلطيق ، وكانوا يفخرون بأنفسهم عندما ينادون باسم الأتراك إذ قام المماليك الأتراك بدور هام في السياسة الإسلامية في العصور الوسطى^(١) . ولقد انتسب المماليك إلى تجار النخاسة أحياناً وإلى ساداتهم الذين اشترؤهم أحياناً أخرى ثم إلى الثمن الذي دفع عند شراء أحدهم إن كان المبلغ كبيراً . وسادت علاقة الأستاذية بين السيد ومماليكه فهو أستاذهم وسيدهم وعلاقتهم به قوية لأنه هو الذي رباهم ، فهي رابطة لا انفصام لها فيكونون دوماً رهن إشارته وينفذون أوامره . وكانت تربط الأمراء الذين نشأوا وعاشوا عند سيد واحد علاقة الخشداشية^(٢) . أي الزمالة ، فهم جميعاً زملاء وأصدقاء ، وكانوا يؤمنون أنهم جميعاً متساوون في النشأة والأصل والحق والواجب ، ولم يكونوا عبيداً للخدمة فقط مثل غيرهم في البلاد الأخرى ، إذ كانوا يرون أن السلطان واحد منهم ، وكان هؤلاء المماليك يحررون ويعتقون فيتسلمون المناصب العليا في الدولة مثل قيادة الجيش أو نيابة الأقاليم أو وظيفة من وظائف البلاط^(٣) . وكانت ثقافة المماليك وتربيتهم في كلا الدولتين الأيوبية والمماليكية تهدف إلى الاهتمام بالناحية العسكرية والاحتفاظ بهم جنوداً تعتمد عليهم الدولة في الدفاع عن الوطن والدين ، ومن ثم كانت تربيتهم تقوم على أسس من تعليم القراءة والكتابة والتدريبات الرياضية وحفظ بعض آيات الكتاب الكريم ، حتى إذا فرغوا من ذلك بدأت المرحلة الثانية وهي مرحلة تعلم أساليب الحرب والقتال ، ويقسم المماليك إلى طوائف وكل طائفة يتسلمهم معلم ، فيعلمهم السباحة وركوب الخيل واللعب بالسيف والضرب بالرمح والقذف بالأطواق والمبارزة ورمي النشاب ولعب الكرة ، فيكون جندياً كاملاً يلتزم بالطاعة واتباع الأوامر وتنفيذها . وكان ظهور الموادب وكفاءة المملوك في ميدان القتال والمبارزة والرياضة داعياً إلى ترقيته وعتقه وإدراجه ، في سلك الوظائف حتى قد يصل به الأمر إلى نيابة السلطنة أو إمرة في الجيش أو السلطنة نفسها .

(١) The Mamluk Sultans, P. 735-736.

(٢) خشداشية جمع خشدش أي الزميل في الخدمة والخشداشية في اصطلاح عصر المماليك معناها الأمراء الذين نشأوا بماليك عند سيد واحد فنبتت بينهم رابطة الزمالة القديمة : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠ حاشية ١ .

(٣) تاريخ المماليك البحرية ص ٢٦ . The Mamluk Sultans, P. 736.

الجيش المملوكى وأنظمته :

كان لابد من قوة عسكرية تحفظ سلطان المماليك في البلاد ، وتستطيع دفع العدو عن البلاد ، وأدرك السلاطين المماليك حقيقة أوضاعهم الداخلية والخارجية ، وأدركوا حاجتهم إلى جيش قوى فكونوا جيشاً وفاقاً عسكرية كثيرة ، وأنشأوا أسطولا بحرياً قوياً ، ظهرت آثار الاهتمام بالقوة العسكرية في الانتصارات الرائعة التي حققها المماليك ضد التتار من ناحية وضد الصليبيين من ناحية ثانية ، والحديث عن القوات المسلحة المملوكية يشمل ناحيتين ، هما : ديوان الجيش ثم أنظمة الجيش وتكوينه .

أما ديوان الجيش فكانت قلعة الجبل تعتبر المقر الرئيسي الدائم لديوان الجيش . وكان ناظر الجيش بمثابة وزير الدفاع والحرب لا يبرح ذلك الديوان ومعه سائر كتاب الجيش والموظفين ، فهم يعملون طول الوقت وذلك لأهمية ديوان الجيش . فهو يقوم بالإشراف على جميع شئون القوات العسكرية وإقطاعات الجند ورواتبهم ويمتاز بالدقة والترتيب والتنظيم . وبه سجلات بها أسماء الجنود والأمراء الذين هم قادة وضباط الجيش ، وكانت أسماء الجند تعرض بديوان الجيش ، إلا أنه لما ازداد عدد هذا الجيش واتسعت المملكة لأصبح الأمراء يدونون أسماء جنودهم في دواوينهم الخاصة ، ثم يضعون مثل هذه السجلات في ديوان الجيش بالقلعة ، وكان « كل أمير من أمراء المئين أو الطبلخانات سلطان مختصر في غالب أحواله » (١) وإذا مات أحد الأجناد أو فصل فيحل محله آخر ويتناول إقطاعه الذي كان يتناوله الأول من ديوان ذلك الأمير ، أما انتقال جندي من خدمة أمير إلى آخر فلا تكون إلا بإذن من السلطان ، وبعد صدور مرسوم خاص بمن السلطان أو من نائبه بهذا الخصوص . وكان الجندي في الدولة المملوكية يتبع أميره في كل شيء (٢) .

وبرأس ديوان الجيش موظف يعرف باسم ناظر الجيش ويشرف على الجيوش

(١) القلقشندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٠ - ٦٢ .

(٢) تاريخ المماليك البحرية ص ٢٦٣ .

وكل ما يتعلق بها ويشرف على الإقطاعات في مصر والشام ويصدر أوامره بكل ما يختص بهذه الإقطاعات بعد استشارة السلطان في بعض الأمور ، ولناظر ديوان الجيش مساعدون يعاونونه لاتساع مسئولياته المكلف بها ، وبلغ عددهم أربعة مساعدين هم صاحب ديوان الجيش ومستوفى الجيش ومستوفى إقطاع العرب ومستوفى الرزق إلى جانب من يعرف بنقيب الجيش ، ويلى ناظر الجيش في الرتبة والدرجة ، وينوب عنه في تصريف شؤون ديوان الجيش^(١) .

مراتب أمراء المماليك :

كان لأمراء الجيش المملوكى درجات ورتب فمنهم من له إمرة مائة فارس ومقدمات على ألف فارس في وقت القتال من أجناد الحلقة ، فيقال له أمير مائة مقدم ألف ، ومن هذه المرتبة يكون نواب الولايات والأقاليم ، ثم أمراء الطبلخانات ومعظمهم من يكون له إمرة أربعين فارساً وقد تزيد إلى السبعين ، ولا تكون الطبلخانات لأقل من أربعين ، ثم أمراء العشرات وبعضهم من يكون له عشرون فارساً ولا يعد إلا في أمراء العشرات ، وأمير عشرة يكون في خدمته عشرة مماليك ، ثم أمراء خمسة ويكون في خدمته خمسة مماليك « وهم في الحقيقة كأكابر الجند^(٢) »

تكوين الجيش المملوكى :

كان الجيش المملوكى ينقسم إلى ثلاثة فرق نظامية كل أفرادها من الأرقاء الذين يعملون في خدمة السلطان ومنهم من هو في أقطار المملكة والولايات وسكان بادية كالعرب^(٣) . وأول هذه الفرق طائفة المماليك السلطانية « وهم أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا وأشدهم إلى السلطان قرباً ، وأوفرهم إقطاعاً ، ومنهم من تؤمر

(١) مستوفى الجيش ويقوم بتحديد مراتب الجند والإشراف عليها ، أما مستوفى إقطاعات العرب فيقوم بالإشراف على إقطاعات العرب ، ومستوفى الرزق ويشرف على صرف مراتب الجند : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١ - ٢٢ ، تاريخ المماليك البحرية ص ٢٦٣ ، ٢٦٥ - ٢٦٦ .
 (٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤ - ١٥ ، ٢٧ حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٣ ، الخطط المقرينية ج ٣ ص ٣٥٠ .
 (٣) الخطط المقرينية ج ٣ ص ٣٥٠ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٣ .

الامراء رتبة بعد رتبة» (١).

وقد سموا بذلك الاسم لأن السلطان القائم في الحكم كان يجلبهم إلى مصر، ولذا كانوا يعرفون أيضاً باسم «الأجلاب» وباسم «الأحداث» وكذلك كان من بين المماليك السلطانية طائفة من المماليك القدماء من أجلاب السلاطين السابقين أطلق عليهم اسم «القرانصة» أو «القرانيص»، وهؤلاء كانت لهم سجلات خاصة بهم بديوان الجيش وتصرف لهم الرواتب، ولكن لم تبلغ منزلة هؤلاء درجة المماليك السلطانية، وبلى طائفة المماليك القرانصة طائفة المماليك الخاصكية وهم مماليك السلطان القائم في السلطنة قبل أن يعتلى عرش السلطنة (٢)، ويمتازون عن بقية المماليك السلطانية بأن السلطان يتولى أمر تربيتهم وعتقهم وهم دائماً يلازمون السلطان، وكانت لهم المنزلة الأولى، حتى إنهم كانوا يرشحون قبل غيرهم للإمارة وكانت بعض طوائف المماليك تختلف عن الأخرى، إذ أن بعض الفرق كانت تصرف لهم رواتب شهريةً بينما كان البعض الآخر يعيش من دخل أرض أقطعت له وذلك بعد أن نال حرية وأصبح قادراً على التملك.

أما الفرقة الثانية في الجيش المملوكي فهي طائفة أجناد الحلقة، وتتكون هذه الفرقة من محترفي الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم. وهم أقرب طوائف الجيش المملوكي إلى نظم الجيش الحديثة وهم لا يتغيرون بتغير السلطان، ويشرف على كل ألف منهم أحد أمراء المئين ولكل مائة منهم نقيب «دباش» ولكل أربعين «مقدم منهم» وكانت تصرف لهم مرتباتهم من ديوان الجيش، أما عن مقدم الأربعين هذا فليس له حكم عليهم إلا القتال معه فيكون عليه ترتيبهم في مواقعهم، وليس له أن يخرج أحداً من الخدمة أو يفصله إلا بعد إذن السلطان أو نائبه (٣). ومن مات منهم استخدم آخر عوضاً عنه بعد إثبات ذلك في ديوان الجيش وموافقة السلطان على ذلك (٤).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥.

(٢) The Mamluk Sultans, P: 756.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٣، الخطط ج ٣

ص ٣٥١ تاريخ المماليك البحرية ص ٢٦٧، مصرفي العصور الوسطى ص ٣٥٥ - ٣٥٦.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٥١.

أما الفرقة الثالثة في الجيش النظامي فهي طائفة مماليك الأمراء وهذه تشبه المماليك السلطانية إلا أن أفرادها يتبعون أمراءهم مباشرة ، إذ أن لكل أمير جيشاً يترواح عدده على حسب حالة الأمير المادية وثروته ، ومن مجموع هؤلاء الأمراء وجنودهم وأتباعهم تكونت الكتائب الحربية التي سارت تحت قيادة الأمراء والسلاطين وتبدو أهمية مماليك الأمراء مما قاله المقرئزي : « إن مقام الأمراء بمماليكهم » (١) . ويبدو أن جيوش ، الدولة المملوكية كانت خليطاً من الأجناس ولم يكن في هذه الجيوش من العناصر المصرية أو الشامية سوى ما ألحق بالحملات الحربية من فقهاء ومقرئين وصناع ، إذ اقتصر عمل أهل البلاد الأصليين على النواحي الاقتصادية والوظائف المدنية (٢) . وبالإضافة إلى الفرق النظامية سالفه الذكر توجد فرقة أخرى تسمى فرقة « أولاد الناس » وتتكون من أبناء أمراء المماليك فقط ، وهي فرقة الاحتياطي لا تستدعى إلا عند القتال ، ويضعون أنفسهم تحت تصرف السلطان في حالة الطوارئ والحرب ، وكانت تدفع لهم رواتب سنوية أو إقطاعات من الأرض كغيرهم وذلك في أيام الحرب والسلام ، ورواتب القوات العسكرية هذه جميعاً تكون نقوداً أو إقطاعاتاً ولعمامة الأمراء والجنود .

مقر الجيش المملوكي :

كانت جزيرة الروضة بالقاهرة المقر الرئيسي للجيش أيام الملك الصالح أيوب ، ولكن السلطان المعز أيوب أمر بنقل جميع المماليك التي بها إلى قلعة الجبل إلا أن السلطان الظاهر بيبرس أعاد بناء قلعة الروضة وسكنها الأمراء بجنودهم ، ولما جلس السلطان قلاوون الألفي على عرش السلطنة عام ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) نقل المماليك من قلعة الروضة إلى قلعة الجبل مرة ثانية . وكان لا يسمح لهم بمغادرة القلعة ليلاً أو نهاراً ، وكان كثير الاهتمام بهم ويشرف على طعامهم بنفسه ، ثم بنيت طوابق أخرى في قلعة الجبل في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وسكنها المماليك ، وكانت القلعة عبارة عن معسكر أو مدينة خاصة بطوائف الجند

(١) تاريخ المماليك للبحرية ٢٦٧ ، مصر في المصور الوسطى ص ٣٥٦ .

(٢) The Mamluk Sultans, P. 756.

والأمراء ، ولم تكن كل الجيوش تقيم بالقلعة بل كان بعضها يلحق بولاية الأقاليم فكان لكل وال جماعة من المماليك تحت قيادته ، وينفذون أوامره ، أما ممالك الأمراء فكانوا يقيمون مع أمرائهم في مساكنهم في المدينة أو في الأراضى المقطعة لهم ، في مصر أو الشام ، وكان جند الأقاليم يقيمون في قلاع وحصون أو في معسكر بجوار مقر الوالى ، وهذه القلاع والحصون تشبه قلعة الجبل وهى مملوءة بكل ما يحتاج إليه الجندى من سلاح وعتاد وزاد وذلك استعداداً للطوارئ .

أما في حالة خروج الجيش للقتال فإنهم يتخذون لهم معسكرات من خيام وتكون بترتيب محكم تتوسطها خيمة القائد ثم من حوله الأمراء ثم الأجناد ، واستعمل المماليك أنواعاً من الأسلحة منها السيوف والرماح والدروع المصنوعة من الزرد ، وتحفظ هذه الأسلحة في مكان يعرف باسم السلاح خاناه ، وفي السلاح خاناه الصناع المقيمون الذين يقومون بإصلاح الأسلحة وتجديدها ، ويسمى صانع الأسلحة باسم الزردكاش ، أما المشرف على دار السلاح هذه فيعرف باسم السلاح دار « ولا يكون إلا واحداً من الأمراء المقدمين » (١) .

مجلس الجيش :

كان يجتمع مجلس الجيش برئاسة السلطان وأتابك العساكر (٢) ويحضره الخليفة وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المؤمنين ، والهدف من الاجتماع قبل الخروج إلى القتال هو التشاور ووضع خطة للقتال وأخذ رأى القضاة في مشروعية القتال وإذا تم الاتفاق تجمع الجنود من جميع الجهات ويؤدون يمين الولاء والطاعة والإخلاص ، ثم توزع عليهم الأسلحة ، ومعدات الحرب من مخازن السلاح ، ثم يجرى استعراض القوات قبل خروجها للقتال ، ويعين قائد على رأس الجيش ممن تتوافر فيه الخبرة في القتال وظهرت شجاعته وكفايته الحربية ، واتباع المماليك في قتالهم طريقة الصفوف ، وكان يعاقب

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١١ - ١٢ ، ١٨

(٢) اتابك العسكر وهو أكبر الامراء المقدمين ، وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر وهى

وغايته رفعة المحل وعلوالمقام ، القلقشندى ج ٤ ص ١٨ .

من يخرج عن الصف ، وكان الخليفة يرافق الجيش في معظم الأحيان لتشجيع الجنود والصبر على قتال العدو^(١) ، كما ترافقه فرق الموسيقى والطبول ، وكان لكل أمير طبله الخاص ، وكان مع الجيش الأعلام والرايات وكذلك فرق الإسعاف والتمريض لعلاج الجرحى والمرضى^(٢) .

الأسرى ومعاملتهم :

كان الأسرى من نصيب السلطان الذي كان يأخذ منهم ما شاء لنفسه ثم يأمر بتوزيع ما بقي من النساء والغلمان على الأمراء ، أما الرجال من بين الأسرى ، فمن كان ذا مقام خاص دفع الفدية وأطلق سراحه ، أما من كان أسيراً وهو من العامة ولا ينتظر منه دفع الفدية فكان يرسل إلى معتقلات خاصة بالأسرى أو يوزع على الأمراء ، وكانت معاملتهم حسنة فنجد السلطان الملك العال كتبغا المنصوري كان أسيراً ولكنه صار سلطاناً ، وكان بعض الأسرى يستخدمون في بعض الأعمال كالبناء^(٣) . وخلاصة القول أن الأسرى كانوا يجدون معاملة طيبة لم نجد لها مقابلاً عند التتار^(٤) .

قيام دولة المماليك :

قامت دولة المماليك في ظروف صعبة . كان الفرنج يحتلون جزءاً من أرض مصر ، وكان لانتصار المماليك على الصليبيين في موقعة المنصورة أكبر الأثر في انتقال الحكم اليهم بعد أن أدركوا ضعف الأيوبيين وخصوصاً بعد وفاة الملك الصالح أيوب أستاذ المماليك البحرية وكانت شجرة الدر زوجته أرسلت في طلب ولده المعظم تورانشاه من حصن كيفا^(٥) للحضور لتولى السلطنة بعد أبيه ،

(١) تاريخ المماليك البحرية ص ٢٧١ ، مصرفي العصور الوسطى ص ٣٥٧

(٢) القلقشندی : ج ٤ ص ٨ ، تاريخ المماليك البحرية ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٣) الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ١٧٤ ، الدولة الخوارزمية ص ٢١٨ ،

(٤) المغول في التاريخ ص ٢٦٢ .

(٥) حصن كيفا ويوجد بين جزيرة ابن عمرويا فارقين بديار بكر : بلدان الخلافة الشرقية

بالرغم من وصية والده بعدم توليته^(١) ، واستطاعت شجر الدر أن تدبر شئون المملكة حتى حضر المعظم تورانشاه إلى مصر ، وبعد هزيمة الصليبيين في المنصورة على يد المماليك الذين قال فيهم المقرئزي « وأبلى الطائفة البحرية - لا سيما بيبرس البندقدارى - في هذه النوبة بلاء حسناً وبان لهم أثر جميل » ، وقال كذلك « وكادت الكسرة أن تكون فإن الملك رايدا فرنس وصل بنفسه إلى باب قصر السلطان إلا أن الله تدارك باطفه وأخرج إلى الفرنج الطائفة التركية التي تعرف بالبحرية والحمدارية^(٢) وفيهم ركن الدين بيبرس البندقدارى ..

ولكن المعظم تورانشاه أساء معاملة زوجة أبيه التي حفظت له السلطنة إلى أن وصل من حصن كيفا واحتجب عن الناس وأضمر سوءاً للمماليك أصحاب الفضل في الانتصار على الصليبيين ، وكان متهوراً مما أثار عليه زوجة أبيه ومماليك زوجها فاحتالوا لقتله وهو في فارسكور بالقرب من المنصورة وذلك في المحرم عام ٦٤٨ هـ (أبريل ١٢٥٠ م) وقام بهذا العمل بيبرس البندقدارى وتم قتله حتى مات « جريحاً حريقاً غريقاً^(٣) . » ويعتبر تورانشاه آخر سلاطين الأيوبيين في مصر ، واستقر رأى الأسراء على سلطنة شجر الدر لأنها زوجة الملك الصالح أستاذهم والتي كانت قريبة في نشأتها وحياتها إلى المماليك ، ولذا اعتبرها المقرئزي « أول من ملك مصر من مارك الترك المماليك » ، واستقر الرأي أن يكون الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى مقدماً للعسكر ، فخطب على منابر مصر باسم شجر الدر ونقش اسمها على السكة وكانت الأمور كلها موكولة بها ، ويمكن اعتبار شجر الدر قنطرة وصل المماليك إلى الحكم عن طريقها وهي حد فاصل بين عهدين ، وبالرغم من حب الناس والمماليك لها إلا أن سلطنة امرأة كانت أمراً لم يتعوده المسلمون ،

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) الحمدار وهو الذى يتصدى لإلباس السلطان ثيابه أو الامير - النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥

حاشية ٣ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦٠ ، العبر والمبتدأ والخبر ج ٥ ص ٣٧٣ ، النجوم الزاهرة ج ٦

ص ٣٧٠ إلى ٣٧٢ ، بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٨ ، محنة الإسلام الكبرى ص ١٠٥ ، الروض الزاهر

ص ٣ - ٤ ، أخبار الأول ص ١٢٥ - ١٢٦ ، فوات الوفيات ج ١ ص ١٨٧ ، تراجم رجال القرنين

ص ١٨٥ .

وكذلك لم يكن أمراء الأيوبيين في الشام يقبلون انتقال الحكم إلى المماليك وطمعوا في ملك مصر وخاصة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن السلطان الكبير المجاهد صلاح الدين الذي أخذ دمشق وأخذ يطالب بمصر ويستعد لغزوها^(١) ، أما موقف الخليفة العباسي في بغداد من تطورات الأحداث في مصر فإنه استاء لتولى شجر الدر الحكم وأرسل إلى الأمراء في مصر يقول لهم « إن كانت الرجال قد عدت عنكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً^(٢) » ، ولهذا عرض أمراء المماليك على شجر الدر أن تتزوج من أيبك مقدم العسكر فوافقت على ذلك وتنازلت له عن السلطنة بعد أن حكمت البلاد ثمانين يوماً ، ويعتبر المعز عز الدين أيبك بن عبد الله الصالحى النجمي المعروف بالتركمانى أول ملوك الترك المماليك بمصر^(٣) . وكانت سلطنته في أواخر ربيع الآخر عام ٥٦٤٨ هـ / أغسطس ١٢٥٠ م .

ولكن لم تمض أيام خمسة على سلطنته حتى ثار المماليك الصالحية وطلبوا بأن يكون السلطان من بنى أيوب ومن بين زعمائهم الأمير فارس الدين أقطاي والأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى والأمير سيف الدين بلبان الرشيدى والأمير شمس الدين سنقر الرومى ، ورغب هؤلاء في أن يكون المعز أيبك أتابكاً وليس سلطاناً ، واختاروا أن يقيموا في السلطنة أحد الأمراء الأيوبيين الصغار ليكون له اسم السلطنة فقط وهم يدبرونه كيفما شاءوا ويأكلون الدنيا به ، واختاروا الملك الأشرف موسى بن الملك الناصر يوسف بن الملك المسعود انسيس بن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبى بكر بن الأمير نجم الدين أيوب ، وكان صغير السن فسلطوه وخطبوا باسمه وجعلوا أيبك أتابكاً له . ولم يكن للأشرف موسى في الحقيقة إلا اسم السلطنة .

وحدثت وقائع بين المعز أيبك وأمراء الأيوبيين في الشام وكان النصر للمعز

(١) الخطط ج ٣ ص ٣٨٦ ، الذيل على مرآة الزمان ج ١ ص ٥٦ ، ٥٧ .

Howorth: Part 3, P. 142.

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦٨ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣ ، ١٤ ، العبر ج ٥ ص ٣٧٤ .

أبيك ، ولما انتصر أيبك على الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام ثبت حكمه في مصر فخاف بعض أمراء المماليك من سطوته ، ومن هؤلاء الأمير فارس الدين أقطاي الذي كان منافساً لأيبك في النفوذ ، وكان مماليكه ينادونه بالملك الجواد^(١) ، ثم دبر المعز أيبك لقتل أقطاي فقتله ، فهرب معظم المماليك البحرية إلى الشام هرباً بحياتهم^(٢) .

عزل الأشرف موسى من السلطنة واستقلال أيبك بالحكم :

كان من نتائج انتصار المعز أيبك على الناصر صلاح الدين يوسف في العباسية شرقى مصر أولاً وتخلصه من منافسه فارس الدين أقطاي وهروب المماليك البحرية إلى الشام من ناحية ثانية أن قرر أيبك خلع الملك الأشرف موسى من السلطنة فأنزله من قلعة الجبل وجعل نفسه سلطاناً وأخذ يستعد ويزيد من قوته لمقابلة خصومه من الأيوبيين وأمراء المماليك البحرية ، وبالإضافة إلى ذلك لمواجهة الخطر الصليبي والمغولي .

وبعد أن استقرت له الأحوال في مصر طلب من صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ أن يزوجه ابنته ، فلما علمت شجر الدر بذلك ثارت ثائرتها وقررت الخلاص منه قبل أن يتم الزواج ، فدبرت قتله وهو في الحمام ودبر أيبك أيضاً لقتلها ولكنها كانت أسرع منه في ذلك ، وقتل في الحمام يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول عام ٥٦٥٥ . أبريل ١٢٥٧م^(٣) ، ونزى من بعده ابنه على وسمى بالملك المنصور نور الدين على ولم يكن تجاوز خمس عشرة سنة^(٤) ، ثم قتلت

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١١

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٩٠ ، النجوم ج ٧ ص ١٠ - ١٢ ، العبر ج ٥ ص ٣٧٥ - ٣٧٦

الذيل على مرآة الزمان ج ١ ص ٥٨ - ٥٩ ، المختصر ج ٣ ص ١٩٠ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٢٠ ، تاريخ المماليك البحرية ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٠٣ ، المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٩٢ - ١٩٣ ، الذيل

ج ١ ص ٤٥ - ٤٧ ، ٦٠ ، ٦١ ، العبر ج ٥ ص ٣٧٧ ، تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٣٨ ،

تحفة الناظرين ص ١١٧ - ١١٩ . The Mamluk Sultans, P. 744.

(٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٠٥ ، الخطط ج ٣ ص ٣٨٦ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٦ ،

٣٧٧ ، المختصر ج ٣ ص ١٩٢ ، النجوم ج ٧ ص ٤١ - ٤٢ ، أخبار الأول ص ١٢٦ .

شجر الدر بعد أيبك بأيام وأقيم الأمير قطز نائباً للسلطنة على عادته وصار له الشأن والتدبير ، واستمر الحال على ذلك حتى داهم التتار بلاد الشام ، ووصلت طلائعهم إلى غزة ، عند ذلك استقل قطز بالسلطنة ، وعزل المنصور على وسار بقواته إلى بلاد الشام لقتال التتار وانتصر عليهم في عين جالوت ، ولكن الظاهر بيبرس البندقدارى تأمر عليه في دايق العودة إلى مصر وقتله ثم تسلطن بيبرس وبدأ في إقرار الأمور وتركيز سلطانه ، فقابلته مشاكل داخلية وأخرى خارجية خطيرة حتمت عليه الظروف أن يكسب حكمه الصفة الشرعية أمام المسلمين ليتسنى له القيام بواجب الجهاد ، ولكن من أين يكسب حكمه الصفة الشرعية والخلافة قد زالت من بغداد على يد التتار ، فكان عليه أن يوجد الخلافة والخليفة أولاً ليكسب تأييدها ثانياً .

سقطت بغداد وبها الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ (يناير ١٢٥٨ م) على يد التتار وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم ، في الوقت نفسه الذي احتاج فيه المماليك إلى التأييد الديني من خليفة المسلمين ، وعلى ذلك كان على المماليك أن يوظفوا حكمهم الجديد في مصر بإقامة الخلافة وإحيائها من جديد ، ليظهروا أمام العالم الإسلامي بأنهم حماة الإسلام مما يرضى على حكمهم الصفة الشرعية ، وكانوا في حاجة إلى استقرار داخلي يمكنهم من الوقوف في وجه التتار والصليبيين ، ولم يكونوا يأمنون الجبهة الداخلية لكراهية الناس لهم لأنهم أصلاً أرقاء جلبوا من بلاد الشرق واتخذوهم الأمرء في خدمتهم ثم وصلوا إلى الحكم بعد أن انتزعوه من سادتهم الأيوبيين . ولذلك كان المسلمون يتطلعون إلى عودة حكم الأيوبيين الشرعيين ، ولم يكن أهل البلاد يقبلون حكم المماليك ، ولهذا فكر سلاطين المماليك في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة إرضاء لشعور المسلمين وكسب تأييدهم ، وقد فكر المظفر قطز في إحياء الخلافة ، ولكن الوقت لم يتح له تنفيذ ذلك المشروع فلما تسلطن الظاهر بيبرس شرع في بداية حكمه في إحياء الخلافة فعلم من أحد نوابه في الشام بأنه ورد إلى الغوطة^(١) رجل قيل إنه أبو القاسم أحمد الأسمر ابن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر وهو عم المستعصم وأخو المستنصر ومعه جماعة من

(١) وهي الكورة التي منها دمشق استدارتها ثمانية عشر ميلاً يحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها وتمتد بها أنهار تسقي بساقيها : مرصد الاطلاع ج ٢ ص ١٠٠٥ - ١٠٠٦ .

عرب خفاجة في قريب الحمسين فارساً . وأن الأمير سيف الدين قلع البغدادى عرف أمراء العرب المذكورين وقال بهؤلاء يحصل المقصود ، وكان أبو القاسم قد سلم من بطش التتار ونزل عند عرب العراق في هذه المدة ، ثم أراد أن يلحق بالملك الظاهر بيبرس عندما علم بسلطته ، وأرسل السلطان الظاهر إلى نوابه في الشام يطالب القيام بخدمة أبي القاسم والعناية به ومن معه حتى يصل مصر « فسار من دمشق بأوفر حرمة إلى جهة مصر »

وخرج السلطان الظاهر والفقهاء والأعيان والشهود والقضاة والوزير بهاء الدين بن حنا وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وسائر الأمراء وجميع العساكر والمؤذنين وجهمور من العامة ، وخرجت اليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل لاستقبال الخليفة الجديد ، ووصل أبو القاسم إلى مصر في رجب عام ٥٦٥٩ / يونيه ١٢٦١ م ، ونزل قلعة الجبل وبالع السلطان الظاهر في إكرامه وإقامة ناموسه ، ولما كان يوم الاثنين الثالث عشر رجب ٥٦٥٩ / يونيه ١٢٦١ م عقد الظاهر مجلساً لمبايعة أبي القاسم بالخلافة وإثبات نسبة العباسى ، وحضر ذلك المجلس الشهود والفقهاء والقضاة والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وحضر الأعراب الذين حضروا مع الأمير العباسى وأقاموا البيعة على أن الأمير أحمد هو ابن الإمام الظاهر أمير المؤمنين ، ولما شهد هؤلاء بصحة نسبه قبل قاضى القضاء تاج الدين بن بنت الأعز شهادات القوم وأثبت ذلك ، ثم قام القاضى تاج الدين وبابيع الخليفة الجديد ، ثم قام السلطان الظاهر من بعده وبابيع أمير المؤمنين المستنصر أبا القاسم أحمد بن الإمام الظاهر على العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وأخذ أموال الله بحقتها وصرفها في مستحقها ، ثم بايعه الشيخ عز الدين بن عبد السلام ثم الأمراء والأعيان وكبار رجال الدولة ، وبعد ذلك قام الخليفة المستنصر بالله وقدم السلطان الظاهر حكم البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار ، ثم بايع الناس الخليفة ، ثم كتب بذلك إلى الولايات والنيابات بأن يأخذوا البيعة للخليفة وأن يدعى له على المنابر ثم للسلطان من بعده ، وأن تنقش السكة باسميهما ، وفي السابع عشر من شهر

رجب ٥٦٥٩ / يونيه ١٢٦١ م ، خطب الخليفة العباسي بالناس في صلاة الجمعة بعد أن كان منصب الخلافة شاغراً ثلاث سنين ونصف سنة منذ قتل الخليفة المستعصم بالله في صفر ٥٦٥٦ / فبراير ١٢٥٨ م ، وعلى ذلك يكون الخليفة المستنصر بالله الثامن والثلاثين من خلفاء بني العباس^(١) ، ويلاحظ من تقليد الخليفة للسلطان الظاهر بيبرس ، أنه أصبح كفيلاً بالبلاد الإسلامية مسئولاً عن حمايتها والدفاع عنها بما في ذلك بلاد الحجاز والحرمين الشريفين ، وما يفتح الله على يديه من بلاد جديدة . بمعنى آخر أن ذلك التقليد حقق الصفة الشرعية لحكم المماليك للبلاد الإسلامية والحجازية ، بالإضافة إلى تحملهم المسؤولية في الجهاد من أجل تطهير بلاد الإسلام من الأعداء وذلك شرف عظيم أمام المسلمين .

أضف إلى هذا أن فوز المماليك بذلك الشرف قد أغلق الباب في وجه بقايا الحكام الأيوبيين الذين لم يستطيعوا القيام بهذه الزعامة وكلهم يسعى إليها فسبقتهم المماليك إلى ذلك ، فصدقوا العزم والنية وجاهدوا في سبيل الله وحافظوا على بلاد الإسلام ، وأوقفوا تقدم الغزو المغولي ، وأنهوا الاحتلال الصليبي نهائياً من بلاد الشام بعد أن دام قرابة قرنين من الزمان .

كان من نتائج إحياء الخلافة العباسية في القاهرة أن انتقل إليها المركز الإسلامي الديني والسياسي والعسكري والثقافي بدلا من بغداد ، وبرغم التشكيك في صحة نسب الخليفة المستنصر بالله فإن إحياء الخلافة أدى دوراً سياسياً وروحياً بالنسبة لدولة المماليك الناشئة ، واستطاعوا أن يحققوا انتصارات رائعة على عدوهم ، ونعموا ببراء واسع لم يكن يتم لهم ذلك بدون إحياء الخلافة ، ومهما يكن هدف الظاهر بيبرس من إقامة الخلافة فإنه اهتم بالخليفة وأحاطه بكل رعايته وعنايته ، ولما خرج الخليفة المستنصر بالله إلى الشام لقتال التتار واسترداد بغداد ، زوده الظاهر بما يحتاج إليه من الفرسان والأموال ، ولم يمنعه من زيادة تلك المساعدات إلا تحريض بعض الأمراء له أن ينازعه السلطان إن هو انتصر على التتار واستقر في بغداد فاكتفى بتزويده بجيش ضئيل لم يستطع الخليفة به الثبات طويلاً أمام التتار فقتل وتفرق أصحابه ، أو بالرغم من ذلك فإن الظاهر بيبرس لم يكن راغباً في

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣١ .

إسقاط الخلافة فنجده يسرع في استدعاء الخليفة الحاكم بأمر الله الذي رافق الخليفة المستنصر في قتاله للتتار ، يستدعيه إلى القاهرة ليقبضه ويباعه بالخلافة بدلا من الشهيد المستنصر بالله ، وقرر أن يستقر الخليفة هذه المرة في القاهرة^(١) .

بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله في القاهرة :

وصل الأمير أبو العباس أحمد الذي تلقب بالحاكم بأمر الله إلى دمشق وسار منها إلى مصر . ووصل إلى ظاهر القاهرة في ٢٧ ربيع الأول عام ٥٦٦٠ هـ / فبراير ١٢٦٢ م ، واحتفل السلطان الظاهر بقدومه وأنزله بقلعة الجبل . ووصل في منتصف شهر رجب من العام نفسه جماعة من بغداد من مماليك الخليفة المستعصم كانوا تأخروا في بلاد العراق وعلى رأسهم الأمير سيف الدين سلار^(٢) . وفي يوم الخميس الثامن من شهر المحرم عام ٥٦٦١ هـ / نوفمبر ١٢٦٢ م ، عقد السلطان الظاهر مجلساً لبيعة الخليفة الجديد وثبت النسب ولقب بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وباعه السلطان الظاهر على العمل بكتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقتال أعداء الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها وكذلك الوفاء بالعهود وإقامة الحدود والعمل على حفظ البلاد والقيام على حراسة المسلمين والاهتمام بالدين والعمل من أجله . فلما تمت بيعة الخليفة قام بدوره وقلد السلطان الظاهر بيبرس أمور البلاد والعباد وسائر الأمور^(٣) .

وقد استقر الخليفة هذه المرة في القاهرة حتى وفاته . وبالرغم من الفوائد التي حققها المماليك من وجود الخلافة والخلفاء في القاهرة . إلا أن الآخرين كانوا مسلوبي السلطة العربية في أيدي السلاطين . وأصبحت مهمته مقصورة على التوقيع وإعطاء التفويض بالحكم للسلطان ، وبالرغم من أخذ تفويض من الخليفة للسلطان فإن

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣٩ . تاريخ الخميس ج ٢ ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٦٨ ، تنمة المختصر ج ٢ ص ١١٤ ، الذيل ج ١ ص ٤٨٣ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٧٧ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٧ ، الذيل ج ١ ص ٤٣ .

الذيل ج ٢ ص ١٨٦ - ١٨٧ ، المختصر ج ٣ ص ٢١٥ ، تاريخ الخلفاء ص ٤٧٩ ، شذرات الذهب

ج ٥ ص ٣٠٤ - ٣٠٥ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٢٨ - ١٢٩ . Howarth, Part 3, P. 200.

كثيراً من السلاطين خلعوا بالرغم من ذلك التفويض ولم يكن للخليفة أن يختار السلطان بل يختار الأمراء ويوافقون عليه ثم يأخذ السلطان الحديد على الأمراء العهود بالطاعة والولاء والإخلاص ، وعلى ذلك قد تطول مدة حكم السلطان أو تقصر بناء على موافقة ورغبة الأمراء دون النظر إلى تفويض وبيعة الخليفة والقضاة الأربعة إلى السلطان ، والحلاصة فقد فقدت الخلافة جوهرها وبقي مظهرها التقليدي فيظهر الخلفاء في الأعياد والمناسبات والاحتفالات ثم يخرج الخليفة أحياناً مع الجيوش ليباركها ويحث الجنود على الجهاد في سبيل الله ويدعو الله بتفريغ الكرب وتخفيف البلاء وقت الشدة، وهذا بالإضافة إلى كتابة اسمه على السكة والدعاء له على المنابر في خطبة يوم الجمعة ، ومجمل القول لم يتمتع الخلفاء في القاهرة بما تتمتع به أسلافهم في بغداد من حيث السلطات الواسعة والسيطرة والقوة والتأثير على وجود دولته .

ثانياً - التتار (المغول) :

أما المغول فقد نشأ الأصليون في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي وهي تمتد في أواسط آسيا جنوبي سيبيريا وشمال التبت وغربي منشوريا وشرقي التركستان بين جبال التاي غرباً وجبال خنجان شرقاً ، عاشت قبائل المغول ومجموعات أخرى من الأقوام المغولية المجاورة مثل قبائل المغول البايوت والتيدوجوت والكنجرات وكانت تقيم في الإقليم الواقع جنوبي بحيرة بيكال ، وأمة التتار كانت تعيش على شاطئ بحيرة بويور في أقصى الشرق من منغوليا^(١) ، وهناك قوم كرايت الذين سكنوا الواحات الشرقية الداخلة في صحراء جوبي وجنوب بحيرة بيكال حتى سور الصين ، وكانوا يدينون بالمسيحية منذ عام ٥٣٩٨ - ١٠٠٧ م ، ثم قوم مركيت الذين عاشوا بجوار قوم كرايت شمالاً على مجرى نهر سلنجا وجنوب بحيرة بيكال وقبائل أويرات (اويراد) الذين سكنوا ما بين نهر أونون وبحيرة بيكال ، ومن بين قبائلهم قبائل النايمان والأسرة الجلائرية التي كانت تشمل عشرة قبائل وكانت تسكن منطقة شواطئ نهر أونون ،

(١) محنة الإسلام الكبرى ص ٧٣ .

ومن هذه القبائل المغولية كانت هناك طائفة صغيرة اسمها « قيات » وتعرف باسم « يورجقین » هذه القبيلة نشأ فيها جنكيزخان مؤسس الإمبراطورية المغولية ، عاشت قبائل المغول والتتار حياة قبلية كل قبيلة مستقلة عن الأخرى ويمتلكون قطعاناً من الأغنام والخيول ، وهم كعادة الشعوب القبلية في نزاع مستمر وحروب دائمة ، وعلى الرغم من اختلاف لغات هذه القبائل البدوية إلا أنهم جميعاً عاشوا حياة تجرى على نظام ونسق واحد متقاربين في الشبه والحلقة والعادات والتقاليد وكانوا يتمتعون بصفات بدنية تناسب البيئة التي نشأوا وعاشوا فيها كل المناسبة^(١) ويعتبر جنكيز خان مؤسس الإمبراطورية المغولية فقد ولد عام ٥٥٠ / ١٥٥٠م^(٢) على الشاطئ الأيمن لنهر الأونون في مقاطعة بن دولون بلداق الواقعة في روسيا الحالية وهو جنكيز خان بن بيسوكي بن بهادر بن تومان بن توتيل خان ابن توعية بن باد سنفر بن تيداون ديوم بن بغابن بودنجة بن ألان قوا^(٣) ، وقيل إنه اتخذ اسم تموجين نسبة إلى أمير هزمه والده يسوكاي بهادر^(٤) وكان تموجين في الثانية عشرة من عمره لما توفي والده يسوكاي ٥٦٣ / ١١٦٧ فاستغلت قبيلته صغر سنه وخرجت عن طاعته وأعلنت التمرد والعصيان عليه وانحل اتحاد القبائل الذي كان أيام أبيهم وتفرق عنه أنصاره وبقي وحيداً مع أمه وإخوانه ، فاضطرت هذه الأسرة الفقيرة أن تعيش حياة قاسية على صيد القليل من السمك وبعض الحيوانات إلى أن تطورت حياة جنكيزخان وبلغ السابعة عشرة من عمره ، فاستطاع بذكائه وشجاعته وحسن تدبيره أن يجتذب إليه الشخصيات الكبيرة في قبيلته ، ثم أخضع المناوئين له في هذه القبيلة حتى تمت له السيطرة التامة عليها^(٥) ، وعاش جنكيزخان فترة من الزمن تحت حماية قبيلة كرايت

(١) المغول في التاريخ ص ٦ - ٧ تاريخ الخلفاء ص ٤٦٧ . Genghiz Khan, p. 33.

(٢) ذكر أنه ولد على شاطئ نهر أونون عام ١١٦٢م . Genghiz Khan, p. 33.

(٣) القلقشندی : صبح الأعشى ج ٢ ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٤) ذكر أنه يسوكي : القلقشندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٥ .

(٥) المغول في التاريخ ص ١٧ - ١٨ ، Genghiz Khan, P. 33-34.

في عهد رئيسها أونك خان^(١) ، الذي كان يدين بالمسيحية^(٢) وكان يرتبط مع والد جنكيزخان بعلاقات صداقة قوية ، ولذلك فإنه غمر جنكيزخان بعطفه ورعايته حتى صار جنكيزخان يناديه « أبى » ورفض التعرض له في شيء ، وبالرغم من ذلك فإن هذه العلاقة الطيبة لم تدم ولم تستمر طويلاً إلى مالا نهاية إذ أدرك أونك خان أن تموجين يزداد قوة يوماً بعد يوم فأوجس منه خيفة وخشى من طغيانه عليه ، ولذلك فكر في الخلاص منه قبل أن يستفحل خطره ، ولكن تموجين علم بما دبره له أونك خان فركه تموجين « وكان جنكيزخان قد لف لفيفاً عظيماً فجمع لفيفة من قبائل التتر وقصد ذلك الملك^(٣) وتحارب أونك خان مع جنكيزخان وانتصر تموجين على أونك خان وقتله^(٤) ، وارتفع نجم تموجين بعد هذا الانتصار وزادت مكانته ومهابته وارتفع قدره فأسّرت القبائل التي كانت مترددة إلى الدخول في طاعته ، وبعد أن تغلب جنكيزخان على قبيلة كرايت عرف تايانك خان رئيس قبيلة النايمان أن جنكيزخان سوف يهاجمه ويقضى عليه كما فعل بأونك خان فاستعد لمحاربتة في سنة ١٢٠٣ / ٥٦٠٠ م ولكن تموجين تغلب عليه وتوفي متأثراً بجراحه ، وبذلك سيطر تموجين على تلك القبيلة ، ثم أخذ تموجين يؤاب القبائل بعضها على بعض ليضعف من كيانها فيما بينها ثم ليسهل عليه التغلب عليها في النهاية ، ثم تحالف مع القبائل القوية ضد الضعيفة أي أنه اتبع سياسة : « فرق تسد » حتى استطاع أن يتغلب على أقوام المغول الذين ينزلون في منطقة التبت وشرقي تركستان وعرف منذ عام ٦٠٠ / ط ١٢٠٣ م ، كسيد وملك للقبائل الواقعة في منتصف منغوليا الشرقي ، ثم أخضع نصف منغوليا الغربي عام ١٢٠٣ / ٥٦٠٣ م ، ويمكن القول إن التتار لما كانوا أقوياء ولهم السيطرة على غيرهم قد عم اسم التتار على من خضع لهم ، ولما وجد المغول أن التتار من أخطر منافسيهم وقع القتال والصدام بين قبائل التتار وقبائل المغول وانتهى ذلك الصراع بانتصار المغول على التتار فغلب اسم المغول عليهم فاختلط الأمر فأصبح يطلق على المغول

(١) كان يدعى أزبك خان اورد في صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٦ .

(٢) Genghiz Khan, p. 34.

(٣) القلقشندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٦

(٤) القلقشندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

اسم التتار ويطلق اسم المغول على التتار أحياناً ، ذلك أن الإمبراطورية المغولية ضمت عناصر تتارية وأخرى مغولية وقبائل أخرى ، ولكن أهم العناصر كانت شعوب التتار والمغول ، ولقد اندمجت الفئتان في إمبراطورية واحدة ، ثم أعقب تلك الانتصارات التي حققها جنكيزخان أن أجمعت القبائل على انتخابه إمبراطوراً عليها وسمى باسم جنكيزخان بدلا من تموجين ، ومعناه أعظم الحكام أو إمبراطور البشر ، وكان ذلك عام ٦٠٣ هـ ١٢٠٦ م ، ^(١) واتخذ مدينة قراقوم قاعدة للإمبراطورية المغولية ^(٢) . ثم أخذ جنكيزخان يرسم في سياسته العدوانية التوسعية نحو الجنوب بقصد الاستيلاء على ما يمكن من البلاد الصينية ثم التوسع ناحية الغرب بقصد إخضاع بعض القبائل التي فرت من وجهه وأهمها قبائل الخطا ، ثم وضع لشعبه وإمبراطوريته دستورا قبل أن يشرع في تحقيق أغراضه وأهدافه ، واشتمل ذلك القانون على أحكام حربية وأخرى اجتماعية ومدنية وأحكام هذا القانون هو ما عرف باسم « إلباسه » أو « إلباساق » وهو قانون مختصر بسيط ^(٣) ولكنه حازم صارم قوامه احترام المجتمع المغولي واحترام الصغير للكبير ثم تضمن هذا القانون نظام المغول العسكري والحربي وجملته الطاعة العمياء واحترام الرتبة لمن يعلوه رتبه عسكرية ، هذا بالإضافة إلى العقوبات الشديدة الصارمة لمن يخرج عن أحكام إلباساق أو هذا القانون ومن يقصر في أداء واجباته من الضباط والجنود يعرض نفسه للعقوبات الشديدة ، وبهذا القانون والنظام المحكم استطاع جنكيزخان أن يوسع أملاكه فأخضع بعض الأقاليم الشمالية من بلاد الصين ، وعندما سار نحو الغرب للانتقام من أعدائه الذين فروا أمامه ورفضوا طاعته مثل الخطا الذين اعتصموا بالأقاليم الغربية اصطدم جنكيزخان بالقوى الإسلامية الموجودة في الغرب ومن بينها الدولة الخوارزمية التي بلغت أقصى اتساعها أيام علاء الدين محمد خوارزمشاه ^(٤) .

(١) محنة الإسلام الكبرى ص ٧٨ ، المغول في التاريخ ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) قراقوم وهي مدينة وقاعدة التتار وهي قرية جنكيزخان الذي أخرجته ونشأ بها : صبح الأعشى

ج ٤ ص ٤٨٠ - ٤٨١ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١٠ - ٣١٢ .

(٤) القلقشندي : ج ٤ ص ٣١٢ .

وفاة جنكيزخان وتقسيم الإمبراطورية :

توفي جنكيزخان في ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧^(١) . بعد أن حكم مدة بلغت خمساً وعشرين سنة فترك إمبراطوريته لأولاده من بعده . وكان له أربعة أولاد من الذكور وهم لتخت ملكه بمنزلة أربع قوائم^(٢) وهم دوشى خان أو جوجى ، وثانيهم جفطاي ، وثالثهم أوكداى ، والرابع طولى أو تولى . والأولاد الثلاثة الأول من أم واحدة هي أبوبولى بنت تيكى من كبار المغول^(٣) .

ومات أكبر أولاده المدعو طوشى « جوجى أودوشى » وكان جعل له المسئولية عن أمور الصيد والقنص^(٤) وكان الابن الأكبر المتوفى قد خلف من الأولاد جماعة من بينهم بركة وداورده وطوفل وتولى^(٥) . أما أبناء جنكيزخان الآخرين وهم جفطاي أو « كداى » وأوكوداي وطولى فقد أعطاهم نصيبهم ووزع عليهم واجباتهم وجعل لابنه الأصغر أوكداى عرش الخانية الأعظم على المغول ، وجعل لولده الآخر كداى بلاد ما وراء النهر ولابنه جوجى بلاد القفجاق وأضاف إليه إيران وتبريز ودمندان ومراغة ، أما طولى فلم يحصل على شيء^(٦) وأوصاهم قبل وفاته بالاتفاق وعدم الافتراق .

لحيش المغولى :

عاش المغول حياة قبلية ورجال القبيلة جميعاً جنود يدافعون عن قبيلتهم إذا ما دعاهم الواجب . وعلى ذلك كان كل مغولى جندياً مستعداً لخدمة القبيلة كان على أتم استعداد لحمل السلاح والانضواء تحت راية قبيلته وزعيمه إذا هدد أولاده عدو أجنبي أو إذا هاجمت قبائل المغول إقليماً من الأقاليم . ومن صفاتهم :

(١) Genghiz Khan, p. 170.

(٢) صبح الأعشى : ج ٤ ص ٣٠٨ .

(٣) صبح الأعشى : ج ٤ ص ٣٠٨ ، العبرج د ص ٥٢٧ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) ذكر باتوا أو باطو وأورده وبركة وتولى وحمى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٨ .

(٦) صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

الطاعة التامة في السلم والحرب^(١) أما تدريب الجيش المغولي فكان طبيعياً فكل جندي يقوم بتدريب نفسه في وقت السلم على ما سيقوم به في ميدان القتال ويعد الآلات والأسلحة اللازمة لذلك ويتدرب على استعمالها بذاته وذلك أثناء عمليات صيد الحيوانات والطيور والأسماك ، تاركاً شؤنه المنزلية لزوجاته ، هذا ويختلف نظام تدريب الجندي المغولي عن نظام الجندي المملوكي من حيث التربية والإشراف والرواتب ؛ ولأمراء المغول مراتب معروفة كل حسب رتبته ودرجته ، ولكل طائفة من التتار قطعة من الأرض يتوارثها الخلف عن السلف منذ عهد دولاكو يقيمون بها منازلهم ويعيشون عليها ، والمغول راع في وقت السلم وجندي في وقت الحرب^(٢) وامتاز المغول بارتكاب الجرائم وكل أصناف القسوة والتعذيب والتخريب والتدمير حتى ساد الناس اعتقاد وهو أن المغول قوم لا يهزمون ، فقال ابن الأثير : من حدثكم أن التتار انهزموا وأسروا فلا تصدقوه وإذا حدثكم أنهم قتلوا فصدقوه^(٣) .

ومن طباعهم الغدر ونكث العهد ومن طغيانهم ما كانوا يرتكبونه من فظائع وجرائم في المدنيين من سكان المدن والولايات فلم يكونوا يستثنون امرأة أو طفلاً ولا يعطفون على مريض ولم يقدروا عالماً واستهتارهم بأرواح البشر من المميزات الرئيسية فيهم وذكر أن أحدهم دخل شارعاً فقتل فيه أربعين طفلاً دون شفقة أو رحمة^(٤) .

فرق الجيش المغولي :

كان الجيش المغولي منظماً تنظيمياً دقيقاً وقسمه جنكيزخان إلى فرق كبيرة وتتكون كل منها من عشرة آلاف رجل وتسمى تومان وأول فرق الجيش المغولي تتكون من مائة ألف جندي يسمونها التوك ، تليها فرق العشرة آلاف التي تسمى تومان ، وهذه الفرقة بدورها تنقسم إلى فرق أصغر منها تتألف كل فرقة من

(١) Genghiz Khan P. 19

(٢) صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٢٥ - ٤٢٦

(٣) الكامل في التاريخ ج ٩ ص ٢٢٩ .

(٤) محنة الإسلام الكبرى ص ١٤٢ .

ألف رجل يسمونها منجان ثم فرقا من مائة رجل يسمونها دن وفرقا من عشرة رجال يسمونها أريان ، ويوجد لكل فرقة قائد يتصرف فيها حسب ما يراه ملائماً إلا أن جميع القادة كانوا يرجعون إلى الخان الأعظم رئيس الإمبراطورية ، وكان جنكيزخان يختار قادة يعرفهم ولهم خبرة ومهارة في قيادة الجيش ، وكان العقاب يجل على كل مخالف ومهمل لواجبه سواء كان من القادة أو الجنود ، وجعل الترقيات والمرتبات لكل من يستحق ذلك عن طريق الكفاءة^(١) وكان كل جندي منهم مسجل في ديوانه التابع له « وعلى كل طائفة منهم عليهم في الديوان فارس معين ، « وأما عن الأمراء فكانت طبقتهم تأتي في المقدمة دون سواهم ، ويقال لهم نوبن أو نويان وهم أربع طبقات ، الأولى أمير عشرة آلاف ويعبر عنه بأمير تومان ، ثم أمير ألف ثم أمير مائة ثم أمير عشرة وعلى رأس هؤلاء الأمراء أمير الأمراء أو قائد الجيش ويسمى بكلارى بك أو كبير الأمراء^(٢) وكان الأمراء الأربعة هؤلاء لا يتم إبرام أمر من الأمور إلا بعد عرضه عليهم وأخذ موافقتهم ، ومن تغيب منهم قام مقامه نائبه وهم بدورهم لا يبرمون أمراً إلا بمعرفة الوزير واستشارته فهو يمثل السلطات المدنية في الدولة^(٣) ، والوزير لا يشاور السلطان إلا فيما جل من المهمات وما قل من الأمور وهو السلطان حقيقة وصاحب البلاد معنى وإليه ترجع الأمور كلها ، وإليه عقدها وحلها .

خطط المغول في غزو البلاد الأجنبية :

كان المغول يضعون خطة لحملاتهم الحربية فيجتمع مجلس الكورلتاي أو المجلس العام برئاسة الخان الأعظم والقادة والأمراء والضباط عدا من يكون من الضباط في مهام خاصة بالدولة ، ثم يعرض عليهم المشروع وبعد البحث والنقاش توضع خطة الغزو ، وبعد ذلك تنطلق فرق الكشافة أو الجواسيس للحصول على معلومات عن العدو ومواقعه وعدده ويختبرون البلاد والقلاع والحصون والمدن .

(١) الدولة الخوارزمية ص ٢١٤ - ٢١٥ ، الشرق الإسلامي ص ١٤٣ ، المغول في التاريخ

ص ٢٥٨ .

(٢) صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، المغول في التاريخ ص ٢٥٧ .

(٣) صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٢٣ ، نفس المصدر ج ٧ ص ٢٦٧ .

ويعرفون أحوالها ثم يعودون إلى بلادهم ويطلعون قادة الجيش على معلوماتهم التي تساعد الجيش في قتاله للعدد وكانوا يستخدمون الأعلام والرايات للدلالة على قواتهم ، وكانوا يستخدمونها في ميدان القتال ، وكانوا يهتمون بوسائل المواصلات وطرقها (١) وكان من عاداتهم الكر والفرو الالتفاف للانتقام من عدوهم ، وكانوا إذا هاجموا عدوهم نادوا بأعلى أصواتهم لإيقاع الرعب في قلوب خصومهم . وكانوا يلجأون إلى سياسة « فرق تسد » مثال ذلك مفاعوه من تفرقة بين خوارزم شاه ووالدته ترکان خاتون (٢) . حيث استغلوا الخلافات الحادثة بين علاء الدين الخوارزمي شاه ووالدته لإضعاف قوته والانتصار عليه ، وبالرغم من طغيانهم وخذاعهم إلا أنهم كانوا يندرون الإقليم قبل الهجوم عليه ويهددون بالتدمير أو بالاستسلام . أما عن ترتيب الجيش المغولي في الميدان فيقسمون قواتهم العسكرية إلى فرق وهي الوسط والجناح الأيمن والأيسر ، وعند بدء القتال فإن هذه القوات تتحرك وتحيط بقوات العدو . أما قوات الوسط فتتكون من فرقتين أمامية وثانية خلفية بمعنى مقدمة ومؤخرة . أما الفرق الأمامية فتتسلح بدروع كاملة ويحملون السيوف والحراب ويغطون خيولهم بدروع تناسبها ، أما أسلحة الفرق الخلفية فهي خفيفة مثل القوس والنشاب وهي فرق سريعة الحركة يمكنها إنجاد الجانب الذي يتعرض للهزيمة فالقوات الأمامية ثقيلة تشبه سلاح الدبابات (الفرسان) والخلفية خفيفة تشبه فرق المشاة التي تتعقب العدو وتقوم بعمليات تطهير من وراء القوات الخفيفة .

معاملة المغول للأسرى :

كان المغول إذا ما فتحوا مدينة أو بلداً بالقوة فإنهم يقتلون أهله بدون تفرقة إلا أنهم كانوا يختارون أفضل الرجال وأقدرهم وأرباب الحرف والصناعات ويستفيدون منهم في الأعمال الحربية المقبلة ومن عادة المغول أن يجمعوا كتائب من الأسرى ويضعونهم في مقدمة الصفوف ، ثم تبقى القوات المغولية في الخلف ، فيقوم الأسرى بالأعمال الحربية العنيفة بالرغم عن إرادتهم وإكراهاً ، ويتعرضون

(٢) الدولة الخوارزمية ص ٢١٧ .

(١) Genghiz Khan P. 27

للقتل دون أن يجدوا طريقاً إلى الفرار ؛ لأن أعين المغول ساهرة عليهم ، فإذا ما أنكب الأسرى قوى أعدائهم يأتي المغول بعد ذلك فيقضون على عدوهم في بساطة ، ويقول المؤرخ المعاصر ابن الأثير في هذا الشأن : « وكانت عاداتهم إذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون فإن عادوا قتلوا فكانوا يقاتلون كرهاً ، وهم المساكين كالأشقر إن تقدم ينحر وإن تأخر يعقر ، وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين فيكون القتل في المسلمين الأسرى وهم بنجوة منه » وكانوا يستخدمون الأسرى في أعمال الحفر وتركيب أدوات الحصار والأعمال الشاقة .

الفصل الثاني

علاقة المماليك بالمغول حتى نهاية عهد السلطان قطز

موقف بلاد الشام من التتار:

كان من الطبيعي بعد سقوط بغداد في يد التتار أن يتابع المغول زحفهم إلى بلاد الشام وكان صاحب الشام في ذلك الوقت الملك الناصر صلاح الدين يوسف^(١) وكان معادياً للمماليك في مصر فلم يجد بداً من الاستعانة بالتتار ضد سلاطين المماليك في مصر فأرسل الناصر صلاح الدين يوسف ولده الملك العزيز إلى هولاكو وبصحبه بعض الأمراء ومعهم الهدايا والتمسوا من هولاكو مساعدة الملك الناصر ضد المماليك في مصر . الذين انتزعوا السلطنة من الأيوبيين . ونرى أن الملك الناصر قد جانبه الصواب حينما استعان بأعداء الإسلام والمسلمين في الوقت الذي يتحتم عليه أن يقف إلى جانب سلاطين المماليك لقتال هذا العدو وطرده عن البلاد الإسلامية . أضف إلى هذا أنه وجد نفسه بين عدوين المماليك والمغول وكان من صالحه القضاء على إحدى القوتين أو إضعافهما ، فكلا القوتين كانتا تشكلان خطراً عليه حيث إن المغول كانوا في طريقهم لتدمير بلاده والاستيلاء عليها . وكذلك المماليك كانوا يطمعون أن يعيدوا حكم الشام إلى مصر ، ومن ثم نرى أن الناصر صلاح الدين أحب أن يكون على علاقة طيبة بهولاكو ولذا أراد أن يبدو في صورة المستسلم للتتار حتى يصرفهم عن احتلال بلاده . فبدأ بمراسلتهم ومفاوضتهم قبل أن يصابوا إليه .

ولقد كان في هذا الاستنجد فرصة سانحة لهولاكو فأسرع إلى انتهازها .

(١) هو صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وكان ورث الحكم في حلب عن أبيه عام ١٢٣٦ ميلادية وكان عمره ست سنوات يوم ذلك وأخذ دمشق عام ١٢٥٠ ميلادية . السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦٦ . Howarth, Part 3, p. 142.

ومن ثم أمر بتوجه فرقة تتألف من عشرين ألف فارس لنجدة الملك الناصر صاحب الشام ، فلما علم من كان بدمشق من المماليك البحرية بما حدث ، غضبوا ورحلوا إلى الملك المغيث عمر صاحب الكرك ، وعرضوا عليه الاستيلاء على مصر أيضاً فاستجاب المغيث لطلبهم ، ولكن انتهى هذا الأمر بعودة المماليك البحرية إلى مصر وخاصة الظاهر بيبرس ودخلوا في طاعة الساطان المظفر قطز ، فلما علم الملك المظفر قطز بمسير نجدة التتار إلى الناصر خشي المظفر من استفحال الأمر فبعث رسالة إلى الملك الناصر صاحب الشام يتودد فيها إليه ويقسم بالأيمان أنه لا ينازعه في الملك ولا يقاومه ، وأضاف أنه - المظفر - ما هو إلا نائب للملك الناصر بمصر وأنه متى قدم الناصر إلى مصر أقعده قطز على كرسي السلطنة وكتب المظفر قطز في رسالته إلى الملك الناصر يقول : « وإن اخترتني خدمتك وإن اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القدام عليك فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت إليك العساكر صحبة من تختاره (١) ، وإقعد كان لخطاب المظفر قطز الذي وصل إلى الناصر أبلغ الأثر في نفسه إذ بعث في نفسه الطمأنينة والأمان ، وكذلك يظهر واضحاً إلى أي مدى كان قطز حريصاً على سلامة العالم الإسلامي ووحدته مضحياً في سبيل ذلك بمصلحته وأطماعه الشخصية . حدث هذا في الوقت الذي عاد فيه الملك العزيز الذي كان رسولا من قبل والده إلى هولاء كوا لمفاوضته على مد يد العون ضد المماليك ، وكان يحمل رسالة من هولاء كوا جاء في نصها : « الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب ، أننا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها وأسروا سكانها ، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز قال : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) . واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلسات فكذب فواقعه الندم واستوجب منا العدم ، وكان قد جمع ذخائر نفيسة وكانت نفسه نحسيسة . فجمع المال ولم يعبأ بالرجال وكان قد نعى ذكره ، وعظم قدره ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال .

إذا تم أمر دنا نقصه تويق زوالا إذا قيل تم

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤١٨ .

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
وكم من فتى بات في نعمة فلم يدر بالموت حتى دهم

إذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأمورك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روى زمين^(۱) : تأمن شره وتتل خيره كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى .) ، ولا تعوق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان . وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحریمهم إلى كروان^(۲) سراي ، فإن كانوا في الجبال نسفناها ، وإن كانوا في الأرض خسفناها أين النجاة ولا مناص لهارب ولي البسيطان الثرى والماء ، ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت في قبضتي الأمراء والوزراء « ويبدو من هذا الإنذار أن هولاً كوا لم يكن يريد نجدة الملك الناصر وإنما يريد احتلال بلاد الشام ، ولهذا فإنه ينذر ويتوعد ويأمر بالطاعة والاستسلام ولذا أصبح موقف الملك الناصر صلاح الدين يوسف حرجاً فهو لا يقوى بمفرده على قتال التتار ونتيجة لهذا الإنذار شرع الناس في دمشق في الرحيل إلى مصر وسيّر الناصر حریمه إلى الكرك وكان قد أشيع أن هولاً كوا عبر نهر الفرات إلى الشام ، فأرسل الملك الناصر صاحب كمال الدين عمر بن العديم إلى مصر لطلب النجدة من الملك المظفر قطز .

سلطنة المظفر قطز وعزل الملك المنصور علي :

تطورت الأحوال في مصر في هذه الظروف بسرعة وكانت البلاد في تلك الآونة تحت حكم الملك المنصور علي ابن المعز أيبك التركماني ، وكان صغير السن ضعيف الشخصية ، هذا في الوقت الذي كان فيه سيف الدين قطز نائباً ، له مكانة كبرى وبلغ شأواً عظيماً وصار الشخصية البارزة في البلاد ،

(۱) روى زمين معناها ملك الملوك على وجد الأرض : السلوك ج ۱ ق ۲ ص ۴۱۶ حاشية ۱ .

(۲) كروان سراي معناها محط الرجال أو فندق المسافرين غير أنه يوجد هذا اللفظ بمعنى مصر

ويقهم من هذا أن مصر كانت تعرف في بلاد التتار باسم كروان سراي وربما نشأت تلك التسمية من انتهاء

معظم الطرق التجارية إليها من سائر جهات الشرق والغرب للمنصور الوسطى : السلوك ج ۱ ق ۲ ص ۴۱۶

حاشية ۳ . Howorth Part 3, 143-145 .

نتيجة صغر سن السلطان الملك المنصور على من ناحية ولكثرة أنصاره وأتباع قطز من ناحية أخرى ثم حدثت ظروف الغزو المغولي للعراق ، وسقوط بغداد في سنة ٥٦٥٦ / ١٢٥٨ م ، ثم الإنذار المرسل من هولاكو إلى الملك الناصر صلاح الدين ، وأخبار عبور التتار نهر الفرات لغزو بلاد الشام « هذا بالإضافة إلى وصول رسول الملك الناصر صاحب الشام بطلب النجدة من مصر ووصول الرسول إلى مصر في حين كان قطز يريد الخروج للجهاد والذب عن المسلمين وقتال التتار ، فرأى أن ذلك لا يتسنى له والأحوال في مصر على حالها حيث يحكم البلاد سلطان صغير لا يستطيع القيام بواجب الجهاد ضد العدو ومن ثم جمع قطز الأمراء والأعيان بالديار المصرية وذوى الرأي والمشورة كما حضر هذا الاجتماع كمال الدين بن العديم سفير الملك الناصر وأخبرهم قطز : أن الملك المنصور هذا صبي لا يحسن التدبير في مثل هذا الوقت الصعب ولا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم بطبعه كل فرد ويستطيع التصدي ضد التتار وينتصب للجهاد. فأجابه الجميع : ليس لنا غيرك ومن ثم يتضح لنا أن قطز نجح في إقناعهم وجمع صفهم والقضاء على روح الفرقة ، ثم قام بالقبض على الملك المنصور على وخلعه من السلطنة ، ثم بعد ذلك اعتقل بالدور السلطانية في قلعة الجبل أما بالنسبة لقطز فقد بويع ساطاناً على البلاد ولقب بالملك المظفر سيف الدين قطز وبذلك استقر الأمر له وأقسم الناس يمين الإخلاص والولاء للسلطان الجديد . وكان ذلك يوم السبت السابع عشر من شهر ذي القعدة سنة ٥٦٥٧ / نوفمبر ١٢٥٩ م . فلما استتب الأمر للسلطان قطز شرع في الاستعداد لقتال التتار ، وأجاب الملك الناصر يوسف صاحب الشام أنه سيقدم له العون والنجدة ولا يقعد عن مساعدته . وعاد ابن العديم بذلك وسار معه برهان الدين الحضرمي حاملاً جواب الملك المظفر قطز إلى الناصر ولقد واجهت المظفر قطز صعوبات قبل الخروج إلى الجهاد منها حاجته إلى الأموال اللازمة لإعداد الجيش . ومنها موقف بعض الأمراء ومعارضتهم للخروج للقتال وعودتهم عن الجهاد .

أما المشكلة الأولى وهي قلة المال ، فإن قطز جمع الفقهاء والقضاة والأعوان لمشاورتهم فيمن يعتمد عليه في مواجهة التتار وطلب منهم أن يفرض على

الناس ما يستعان به على جهاد العدو ، فلما قدموا إلى قلعة الجبل عند السلطان ، وكان من بينهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام والقاضي بدر الدين السنجاري قاضي الديار المصرية وغيرهما من العلماء والفقهاء ، تشاوروا في موضوع الجهاد وجمع المال ، وكان الاعتماد على ما يقوله الشيخ عز الدين بن عبد السلام وخلاصة ما قال : « إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء وتبيعوا ما لكم من الحوائص المذهبة والآلات النفيسة ، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويستأواهم العامة . أما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا .

أما المشكلة الثانية وهي عدم رغبة بعض الأمراء في الخروج إلى الجهاد ، فقد استطاع قطز بسياسته الحكيمة أن يجذبهم إلى الجهاد ، فخرجوا جميعاً لقتال التتار إذ اتبع قطز سياسة الإقناع والترغيب للأمراء حتى أطاعوه ونراه يناقش سياسة بلاده في اجتماع عام يضم العلماء والفقهاء والأعيان وذوى الرأي والمشورة في دولته ليأخذ برأيهم ويطلعهم على الأحوال الداخلية ، وخطورة الغزو المغولي مما كان له أكبر الأثر في انتقال السلطة إليه ونخاع الملك المنصور على ، هذا بالإضافة إلى مسابرتة للناصر صلاح الدين صاحب الشام وعرضه عليه المساعدة وتوحيد الصف للوقوف في وجه التتار .

زحف التتار نحو الشام : ١٢٥٩ م

في أواخر عام ١٢٥٧ هـ / ١٢٥٩ م . زحف هولاكو بجيشه من بغداد وقد انضمت إليه قوات صليبية من جيش هيثوم ملك أرمينيا الصغرى وبوهمينوند السادس أمير أنطاكية المسيحية^(١) وكان طبيعياً أن يتعاون الصليبيون مع التتار إذ كان المماليك يمثلون القوة الإسلامية المعادية للمغول والصليبيين ، ولهذا رأى الطرفان ضرورة التحالف والتعاون فيما بينهم للوقوف في وجه المماليك . وسار هولاكو

بقواته إلى حلب وأمر بإقامة ثلاثة جسور على نهر الفرات أحدها عند ملطية^(١) ، والثاني عند البيرة^(٢) . والثالث عند قلعة الروم^(٣) ، وعبرت القوات المغولية نهر الفرات بواسطة هذه الجسور^(٤) ، وفي الطريق قصد هولاء كو ديار بكر ونزل على آمد^(٥) . وأرسل إلى الملك السعيد نجم الدين أيلغازي صاحب ماردين^(٦) يستدعيه إليه، ولكن الأخير أرسل ولده والملك المظفر قرا أرسلان وقاضي القضاة مهذب الدين محمد بن مجلى والأمير سابق الدين بلبان ، ومعهم هدية ورسالة منه تتضمن الاعتذار عن الحضور لمرضه ، فلم يقبل هولاء ذلك العذر وعلل تأخره بخوفه من الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام، ومن ثم جهز الرسل عنده وفيهم ولد صاحب ماردين ، وأعاد القاضي بمفرده ليخبر الملك السعيد بما قاله هولاء كو ، فندم الملك على إرسال ولده إلى هولاء كو وأخذ في الاستعداد لقتاله ، وأرسل الملك الناصر يستحثه على الزحف إلى حلب ، وأخبره الملك السعيد أنه سيتقدم بقواته لينضم إليه لمواجهة العدو المشترك . ثم حاصر التتار ماردين فلم ينالوا منها شيئاً فتركوها ، وساروا إلى ميفارقين^(٧) ، وحاصروا أهلها « حتى أكلوا من عدم وجود الأقوات جلود النعال التي تلبس في الرجلين » وتولى حصار المدينة يشموط بن هولاء كو وكان صاحبها الملك الكامل محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازي بن العادل أبي بكر بن أيوب ، ولقد صابر التتار واستمر على المقاومة سنتين حتى نفذت الأقوات وانتشر بين أهل ميفارقين الوباء والقتل مما يسر على التتار الاستيلاء على المدينة وقتلوا الملك الكامل ، وتبع ذلك استيلائهم على حران وبلاد الجزيرة ، ثم أمر هولاء كو ولده

(١) مدينة شمال حلب من ناحية الشرق وهي قاعدة بلاد الثغور : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٣١ .

(٢) قلعة شرق نهر الفرات : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٣) قلعة حصينة غربي شط الفرات مقابل البيرة وتعرف باسم قلعة المسلمين : مراصد الاطلاع ج ٣

ص ١١١٨ .

(٤) الحوادث الجامعة ص ٣٤٠ : وذكر أن هذه القناطر أربعة وهي ملطية والبيرة وقلعة الروم

وفرقيسيا . Howorth, Part 3, p. 146.

(٥) وهي مدينة في ديار بكر واقعة على نهر دجلة : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٣٣ .

(٦) وهي قلعة بديار ربيعة من الجزيرة الفراتية وهي معقل أمراء بني حمدان : بلدان الخلافة

الشرقية ص ١٢٥ - ١٢٦ ، مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٢١٩ .

(٧) وهي قاعدة ديار بكر واقعة بين الجزيرة الفراتية وبين أرمينية : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢٠ .

يشموط بالزحف بمقدمة الجيش المغولي وعبور الفرات والاستيلاء على بلاد الشام بعد أن زوده بجيش كثير العدد فوصل إلى نهر الجوز^(١) ووصل تل باشر^(٢) ، ووصل الخبر بذلك إلى حلب من البيرة . وكان يحكم حلب الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين يوسف نائباً عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف ، وجعل الناس من حلب إلى جهة دمشق . واستعدت حلب بأسوارها المحكمة البناء ، فقصدتها التتار في العشر الأخيرة من ذي الحجة عام ٥٦٥٧ / نوفمبر ١٢٥٩ م ، وأرسل هولاء كو إنذاراً إلى صاحبها وجاء فيه : « إنكم تضعفون عن لقاء المغول ونحن قصدنا الملك الناصر والعساكر فاجعلوا لنا عندكم بحاب شحنة وبالقلعة شحنة وتوجه نحن إلى العسكر ، فإن كانت الكسرة على عسكر الإسلام كانت البلاد لنا وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين وإن كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين ، إن شئتم طردتموهما وإن شئتم قتلتهموهما . فلم يجب المعظم توران شاه إلى ذلك . وعاد رسول هولاء كو بالجواب إلى التتار فتقدمت الجيوش المفوية ونزلوا على قرية يقال لها سلمية^(٣) . وامتدوا إلى جيلان وهي من قرى حلب وسارت فرقة من جيش التتار إلى مدينة حلب نفسها حتى إذا أشرفوا عليها خرج أهلها في جمع كبير من العسكر والعمامة . فلما رأوا التتار وهم في جمع كثير كروا راجعين إلى المدينة . فقرر الملك المعظم توران شاه بعد ذلك ألا يخرج أحد من المدينة^(٤) .

وفي اليوم التالي تحركت قوات التتار إلى حلب في حين اجتمع جيش المسلمين بحلب وتشاوروا في الأمر وفيما يفعلون ، فأشار الملك المعظم عليهم بالألا يخرجوا لقتال العدو لكثرة عدده وقوته ولعجز المسلمين عن لقاءهم ، فلم يوافقوه على ذلك جماعة من العسكر ، وأصرروا على الخروج للقتال حتى لا يطمع العدو فيهم . فخرجوا إلى ظاهر حلب ومعهم عامة الناس ، واجتمعوا على جبل بانقوسا بجوار حلب فتقدمت

(١) ناحية ذات قرى وبساتين ومياه بين حلب والبيرة التي على الفرات وهي قرية من عمل البيرة مرصد الاطلاع ج ١ ص ٣٥٧ .

(٢) تل باشر قلعة حصينة واسعة في شمال حلب بينها وبين حلب يوماً : مرصد الاطلاع ج ١ ص ٢٦٩ .

(٣) بلدة في ناحية البرية من أعمال حماه بينها مسيرة يومين : مرصد الاطلاع ج ٢ ص ٧٣١ .

(٤) Howorth, Part 3. p 147, (٤)

جموع التتار في إثرهم ، فلما حاذوا جبل بانقوسا وعليه بقية جيش المسلمين والعوام اندفعوا جميعاً إلى ناحية حلب والعدو يطاردهم فقتل من المسلمين عدد كبير ، ثم رحل التتار بعد ذلك إلى عزاز^(١) ، فتسلموها بالأمان^(٢) وبعد ذلك عاد التتار إلى حلب وحاصروها حتى استولوا عليها وكان ذلك في التاسع من صفر ٥٦٥٨ / يناير ١٢٦٠م^(٣) ، إلا أنهم بعد أن ملكوها غدروا بأهلها وقتلوا ونهبوا وسبوا وأسروا النساء والذرية ، واستباحوا المدينة مدة خمسة أيام ، حتى امتلأت الطرق والمسالك بجثث القتلى والدماء قيل إنه أسر من حلب زيادة على مائة ألف من النساء والصبيان . ومن هذا يظهر جلياً مدى القسوة التي اتبعها المغول في غزوهم لتلك البلاد أما بالنسبة للمعظم توران شاه بن السلطان صلاح الدين بن أيوب خان فخرج لقتال هولاء كوا إلا أنه مات بعد أيام قليلة ودام حصار التتار لقلعة حلب ثم سلمت بالأمان يوم الاثنين الحادي عشر من ربيع الأول سنة ٥٦٥٨ / فبراير ١٢٦٠م^(٤) .

دخول التتار دمشق :

وردت الأخبار إلى الملك الناصر يوسف بوقوع حلب في يد التتار ولقد كان لذلك أسوأ الأثر على نفسه . ومن ثم خرج هو وأصحابه إلى ناحية القبلة ، هذا في الوقت الذي كان فيه رسل التتار بقرية حرستا^(٥) ، ودخلوا دمشق ليلة الاثنين السابع عشر من صفر ٥٦٥٨ / فبراير ١٢٦٠م ، وهم يحملون فرماناً من هولاء كوا بتأمين المدينة وأهلها وما حولها ، وقرئ هذا المرسوم بعد صلاة الظهر ، ثم وصلت جموع

- (١) هي بليدة فيها قلعة شمالي حلب بينها وبين حلب يوم : مرصد الاطلاع ج ٢ ص ٩٣٧ .
 (٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٥ - ٧٦ المختصر ج ٣ ص ٢٠٠ تنمة المختصر ج ٢ ص ٢٠٢ .
 (٣) Howorth, Part 3, P. 147. وذكروا أن التتار أخذوا حلب في الخامس من صفر ٦٥٨ هـ وكانوا نصبوا عليها عشرين منجنيقاً ونقبوا الأسوار ودخلوها بالأمان : الحوادث الجامعة ص ٣٤٢ مرآة الجنان ج ٤ ص ١٤٨ .
 (٤) تنمة المختصر ج ٢ ص ٢٠٤ ، العبر ج ٥ ص ٣١٦ ، تراجم رجال القرنين ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ المختصر ج ٣ ص ٢٠٢ .
 (٥) قرية كبيرة عامرة في وسط بساتين دمشق على طريق حمص بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ : مرصد الاطلاع ج ١ ص ٣٩٢ .

المخول بقيادة كتبغا إلى دمشق في السابع عشر من شهر ربيع الأول عام ١٢٥٨ هـ / مارس ١٢٦٠ م ، وكان وجوه دمشق قد تشاوروا في أمرهم ، وانفقوا على ذهاب وفد من أعيان البلد للقاء التتار فخرجوا والتقوا بهم « وقرئ ما معهم من فرمان المتضمن الأمان . وبينما هم في طريقهم من جهة الغوطة مارين من وراء الضياع إلى جهة الكسوة (١) . وهناك اجتمع نفر من المسلمين واشتبكوا معهم فأدبواهم التتار ، ثم وصل في السادس والعشرين من ربيع الأول عام ١٢٥٨ هـ / مارس ١٢٦٠ م ، منشور من هولاء كو متضمناً تولية القاضي كمال الدين بن عمر بن بندار التنليسي قاضياً للقضاة ببلاد الشام والموصل وميافارقين وماردين والأكراد والأوقاف (٢) أما بالنسبة لقلعة دمشق فقد قاومت بشدة ، فنصب التتار عليهم المجانيق ثم تسلموها بالأمان في منتصف جمادى الأولى عام ١٢٥٨ هـ / أبريل ١٢٦٠ م . ونهبوا ما فيها وخرّبوا سورها وأحرقوا آلاتها ثم هاجموا بعلبك وأخذوها وهدموا قلعتها ثم ساروا إلى الصبية فأخذوها بالأمان .

أما حماة ، فلما علم أهلها بسقوط حلب ، خرج أعيانها وسلموا مفاتيح المدينة إلى هولاء كو وطالبوا منه الأمان ، فأمنهم وولى على حماة رجلاً أعجمياً يدعى خسرو شاه ، أما الملك الناصر يوسف فقد اضطر بت أحواله وعزم على لقاء هولاء كو فجمع حوالي مائة ألف رجل ، وتحميم عند برزة (٣) ، شلى دمشق ثم أرسل إلى الملك المغيث صاحب الكرك والملك المظفر قنص صاحب مصر يطالب منهم العون لصد هجوم التتار ، إلا أن قوته ضعفت وانهارت وأصبح في وضع لا يسمح بالوقوف أو الصمود في انتظار المدد الذي قد يأتي من مصر أو من الكرك وأدرك قرب زوال ملكه واشتد الاضطراب بالشام نتيجة لاعتقادهم بأن التتار قوم لا يرمون فلما أشار الأمير زين الدين الحافظي بمدارة التتار والدخول في طاعة هولاء كو ،

(١) الكسوة أول قرية تنزلها القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر ، النجوم ج ٧ ص ٧٦ حاشية ٢ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٦ ، ٧٧ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢١٩ ، الذيل ج ١ ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .
تراجع رجال القرنين ص ٢٠٤ .
Babars, P. 39, Howorth Part 3, P. 149,

(٣) وهي قرية في غوطة دمشق : مرصد الاطلاع ج ١ ص ١٨٣ .

صاح به بيبرس البندقدارى وسبه وضربه وقال : « أنتم سبب هلاك المسلمين » .
 وحاول بعض المماليك قتل الناصر صلاح الدين وتولية آخر يستطيع القيام بالجهاد ،
 إلا أنه هرب ولجأ إلى القلعة بدمشق ثم سعى إليه الأكابر والأمرء وأشاروا عليه
 بالخروج إلى المخيم فخرج وفي هذا الوقت الذى ترك فيه بيبرس دمشق وتخلي عن
 الناصر وتقدم إلى غزة ثم إلى مصر ودخل في طاعة الملك المظفر قطز ومعه جماعة
 من المماليك البحرية الذى رحب بهم وأكرمهم ، وتألم الملك الناصر حينما لمس
 تحاذل عساكره ، وخشى من كثرة التتار فسار نحو الديار المصرية ونزل العريش
 ثم قطيا^(١) ، وذلك بعد أن تفرق عنه جنده وسبقوه إلى مصر ومعهم الأثقال ،
 إلا أن الملك الناصر لما وصل إلى قطيا تراجع وعاد خوفاً من الملك المظفر قطز
 صاحب مصر ، ونزل بوادى موسى^(٢) . ثم نزل في مكان يسمى بركة زيزاء
 فأدركه التتار بها وهو في نفر قليل من أصحابه وماليكه مما اضطره إلى الاستسلام
 وبقي عندهم « في ذل وهوان إلى أن قتل » . وكان الناصر حينما مر بخاب ودو في
 طريقه ورأى ما حل بها من خراب وما لحق بها من هوان فأنشد قائلاً :

يعز علينا أن نرى ربكم يبلى وكان آيات حسنكم تتلى

ثم وصل إلى هولاء كو الذى أحسن استقباله ووعدته برده إلى مملكته ، وأقام
 الناصر وولده العزيز عند التتار على أمل أن يعيدهم هولاء كو إلى ملكهم مرة أخرى ،
 إلا أن هزيمة التتار وانكسارهم وقتل كتبغا في موقعة عين جالوت تلك الهزيمة التى
 قضت على كل أحلام هولاء كو ودفعته إلى قتل الملك الناصر وأخيه ومن معه ولم ينج
 من ذلك إلا ابنه وذلك في ذى القعدة عام ٦٥٩هـ / أكتوبر ١٢٦٠م .

والخلاصة أن المماليك استطاعوا أن يسيطروا على معظم بلاد الشام بعد أن ألحقوا
 بها الخراب والتدمير والقتل والسلب والنهب ، ووصلت عساكر التتار في غاراتها
 إلى بيت جبريل والحليل وبركة زيزاء والصلت ، فقتلوا خلقاً كثيراً وأخذوا
 ما صادفوه في طريقهم حتى وصلوا إلى غزة وهى باب مصر ، وفي هذه الظروف

(١) وهى قرية بين القنطرة والعريش في صحراء سيناء : مرصد الاطلاع ج ٣ ص ١١١١ .

(٢) نسبة إلى موسى بن عمران عليه السلام وهو واد في جنوب بيت المقدس مرصد الاطلاع ج ٣

وبعد أن اطمأن هولاء على فتحه بلاد الشام والسيطرة عليها قرر لظروف تتعلق بالملك العودة إلى عاصمة بلاده في الشرق ، وبعد أن ولي النواب على المدن الشامية وترك القيادة لقائده كتبغا ومعه عشرة آلاف فارس من عساكر التتار ، ثم عاد هولاء إلى الشرق . إذ علم بوفاة أخيه منكوخان ، الخان الأعظم على جميع التتار سنة ١٢٥٧ / ٥٦٥٥ م وكان هولاء يطمع في أن يقع عليه اختيار المغول فيكون خاناً أعظم ، وكان هناك أخ ثالث اسمه قوبيلاي وكان والياً على بلاد الصين من قبل أخيه ، وقد خلف منكوخان على جميع بلاد التتار ، بعد أن تغلب على الخصوم والطامعين في العرش من أبناء بيت جنكيز خان سنة ١٢٦٠ / ٥٦٥٩ م^(١) .

أما عن أحوال مصر الداخلية في ذلك الحين فإن الملك المظفر قطز كما بينا استطاع أن يصل إلى السلطنة بموافقة الأمراء والأعيان في البلاد وذلك لصغر سن السلطان المنصور على بن المعز أيبك ، بالإضافة إلى تلك الظروف الحاسمة التي كانت تمر بها البلاد والتي كانت تتطلب وجود شخصية قوية تترى الجهاد ضد العدو ، الذي أصبحت جحافلها على مقربة من الديار المصرية ، وهذا لم يكن أمام دولة المماليك الناشئة إلا أحد أمرين : إما الخروج للجهاد ودحر العدو ، وهذا لن يكون إلا إذا كان هناك قوة تستطيع الصمود أمام هذه الجحافل المدمرة وهذا لن يتأتى إلا إذا كان هناك وحدة في الصف الداخلي أو الانتظار في مصر والدفاع عنها إذا ما هاجمها التتار .

إنذار التتار للمماليك في مصر :

وتتابعت الأحداث وأرسل هولاء إلى مصر إنذاراً جاء فيه : « من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم ، باسم اللهم باسط الأرض ورافع السماء يعلم الملك المظفر

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٧ ، Babars, P. 39 & Howorth, Part 3, P. 151 ، وقد حكم قوبيلاي حتى سنة ٥٦٩٣ - ١٢٩٤ م ، واستولى في أثناء ذلك على البقية الباقية من بلاد الصين ونقل عاصمة التتار من قراقوروم إلى (خان بالق) وهي (بكين) الحالية وأصبحت الصبغة الصينية تميز دولة قوبيلاي منذ ذلك الوقت من دون سائر دول التتار وعرفت الأسرة الحاكمة باسم بن دناسي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٧ حاشية ٢ .

قطز الذى هو من جنس المماليك الدين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعسون بإنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه . بعد ذلك يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأدل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، إنا نحن جند الله فى أرضه خلقنا من سخطه وسلطانا على من حل به غضبه فلکم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيرکم وأسلموا إلینا أمرکم . قبل أن ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود علیکم الخطأ فنحن ما نرحم من : بکى ولا نرق لمن شکى ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد فعلیکم بالحرب وعلینا الطلب ، فأى أرض تأویکم وأى طریق تنجیکم وأى بلاد تحمیکم ؟ فما من سیوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص : فخیوانا سوابق وسهامنا خوارق وسیوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقتالنا لا تنفع ودعائکم علینا لا یسمع ، فإنکم أکلتم الحرام ولا تقفون عند کلام وختم العهود والأیمان وفشا فیکم العقوق والعصیان فأبشروا بالمذلة والخوان . فالیوم تجزون عذاب الهون بما کنتم تستکبرون فی الأرض بغير الحق وبما کنتم تفسقون ، وسیعلم الذین ظلموا أى منقلب ینقلبون فمن طاب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلکم مالنا وعلیکم ما علینا وإن خالفتم ملککم ، فلا تهلكوا نفوسکم بأیدیکم فقد حذر من أندر وقد ثبت عندکم أن نحن الکفرة وقد ثبت عندنا أنکم الفجرة ، وقد سلطنا علیکم من له الأمور المتعددة والأحكام المدبرة فکثیرکم عندنا قليل وعزیزکم عندنا ذلیل ، وبغير الإهانة ما ملوککم عندنا سبیل فلا تطیلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب قبل أن تعتزم الحرب نارها وترمى نحرکم شرارها فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً ولا كافياً ولا حوازاً وتدهون منا بأعظم داهية وتصبح بلادکم منکم خالية فقد أنصفناکم إذ راسلناکم ، وأیقظناکم إذ حذرناکم ، فما بقى لنا مقصد سواکم ، والسلام علیکم وعلى من أطاع الهدى ، وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصرها هلاوون قد أتى بحد سیوف تنتضى وبواتر
 یصیر أعز القوم منها أذلة ویلحق أطفالاً لهم بالأکابر^(١)

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٧-٤٢٩ ، صبح الأعشى فی صنع الإنشاج ٨ ص ٦٤-٦٤ =

فلما تسلم السلطان المظفر قطز الإنذار عقد اجتماعاً للأمرء وأعطاهم الرأي والمشورة فقال لهم : « لقد توجه هولاء كو خان من توران إلى إيران بجيش جرار ولم يكن لأى مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته واستولى على جميع البلاد ثم جاء إلى دمشق ولو لم يبلغه نبي أخيه لحق مصر بالبلاد الأخرى ، ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي كبتوبوفانوبان الذى هو كالأسد الهصور والتنين القوى فى الكمين وإذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته - فيجب تدبير الأمر قبل فوات الفرصة. » فقال الأمير ناصر الدين القيصرى : « إن هولاء كو خان فضلاً عن أنه حفيد جنكيزخان وابن تولوى وأخو منكوفان ، فإن شهرته وهيبته فى غنى عن الشرح والبيان وإن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها فى قبضته الآن . وقد اختص بالتأييد السماوى ، فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان فليس فى ذلك عيب وعار ، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل ، إنه ليس بالإنسان الذى يطمأن إليه ، فهو لا يتورع عن احتزاز الرؤوس ، وهو لا ينى بعهده وميثاقه فإنه قتل فجأة خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه وصاحب أربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق ، فإذا ما سرنا إليه فيكون مصيرنا هذا السبيل . »

فقال قطز : « والحالة هذه فإن كافة البلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناجات والفتجاج وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً يباباً ، وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل فخلت من الأرواح والأبقار والبذور ، فلو أننا تقدمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خراباً تاماً كغيرها من البلاد ، وينبغى أن تختار مع هذه الجماعة التى تريد بلادنا واحداً من ثلاثة : الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن ، أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مفرّاً إلا المغرب ، وبيننا وبينه مسافات بعيدة » ، فأجاب ناصر الدين القيصرى : « وليس هناك مصلحة أيضاً فى مصالحتهم إذ أنه لا يوثق بعهودهم » وقال أيضاً بقية الأمرء : « ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم فمر بما يقتضيه رأيك

= الظاهر بيبرس حضارة مصر فى عصره ص ٤٨ - ٤٩ ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٣٣ ،

Howor h, P. 165 & Babars, P. 39.

« عندئذ قال قطز إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال فإذا ظفرنا فهو المراد وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق . واتفق رأى الأمراء على القتال ثم اختلى قطز مع بيبرس البندقدارى الذى كان أميراً للأمراء وشاوره فى الأمر فقال بيبرس : « إنى أرى أن نقتل الرسل ونقصد كتبونتنا متضامنين ، فإن انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون فى كلتا الحالتين معذورين » .

وتم الاتفاق على قتل الرسل ، ثم خروج الجيش الإسلامى إلى الصالحية ثم شرع المظفر قطز فى الحصول على قسم الأمراء الذين اختارهم للمسير بالجيش للجهاد ، هذا فى حين كان الأمراء غير راضين عن الخروج للقتال إذ كان الاضطراب والخوف يملأ القلوب التى كانت قد « أيست من النصرة على التتار » .

ورأى معظم الأمراء الدفاع عن مصر - بينما أبدى البعض خوفهم من التتار . وقالوا إنهم ما قصدوا بلداً إلا أخذوه ولم يبق خارجاً عن حكم التتار فى الجانب الشرقى إلا الديار المصرية والحجاز واليمن ، ونتيجة لضعف النفوس والمعنويات هرب بعض المغاربة من مصر إلى المغرب ، وهربت جماعة أخرى من الناس إلى اليمن والحجاز .

وفى هذه الظروف صمم الملك المظفر قطز على قتال العدو والخروج لمواجهة ، فأصدر الأوامر بجمع الجيش وحث الناس على الخروج للجهاد فى سبيل الله ونصرة دين رسول الله صلى الله عليه وسلم . وطالب الولاة « بإزعاج الأجناد فى الخروج للسفر ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع » .

فلما اجتمع لدى المظفر قطز الجيش والأمراء ، سار بجيش مصر ومن انضم إليهم من عساكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم من قلعة الجبل قاصداً الصالحية وذلك فى يوم الاثنين الخامس عشر من شعبان ٦٥٨ هـ / يولية ١٢٦٠ م^(١) .

فلما وصل المظفر قطز إلى الصالحية طلب الأمراء واجتمع بهم وتكلم معهم فى المسير لقتال العدو ، فأبى بعضهم وامتنعوا عن الرحيل فقال لهم : « يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد

يصحبنى ، ومن لم يختار ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين « فتكلم الأمراء الذين اختارهم المظفر وحلفهم في موافقته والخروج معه فلم يسع البقية المعارضة إلا الموافقة وانفض الجمع ، وكان الملك المظفر قطز لما تأكد من إجماع الآراء على قتال التتار أحضر الرسل الذين حملوا إليه كتاب هولاء كو وكانوا أربعة : فوسط واحداً بسوق الخيل تحت قلعة الجبل ، ووسط آخر بظاهر زويلة ووسط الثالث بظاهر باب النصر ووسط الرابع بالريدانية وعاقبت رؤوسهم جميعاً على باب زويلة ، وأبقى المظفر قطز على صبي من الرسل جعله من جملة مماليكه ، فلما استكمل قطز استعداداته ركب في الليل « وحرك كوساته »^(١) . وقال : « أنا ألتى التتار بنفسى » فلما رأى الأمراء المعارضون للخروج ذلك الموقف الباسل من قطز وأتباعه انصاعوا له وساروا معه ، وسار الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى بمقدمة الجيش للاستطلاع وكشف أخبار العدو حتى وصل إلى غزة ، وكانت مقدمة الجيش المغولى عند غزة بقيادة بيدار ، فلما رأى طليعة المسلمين أرسل إلى كتبغا في بعلبك يخبره بتحركات المماليك ويطلب منه النجدة . فأرسل كتبغا إليه قائلاً « قف مكانك وانتظر » إلا أن الظاهر بيبرس لم يمهل حتى تصل إليه النجدة ، فهاجمه وانكسر التتار وطاردهم حتى نهر العاصى وارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين بهذا الانتصار ، ثم وصل السلطان المظفر بالجيش إلى غزة وأقام بها يوماً ثم سار بجذاء الساحل حيث توجد إمارات الصليبيين فلما سمعوا بقدومه خرجوا إليه وقدموا إليه الهدايا وعرضوا عليه المسير معه ومساعدته فشكرهم وأخذ عليهم العهود والمواثيق « أن يكونوا لا له ولا عليه » وأقسم لهم « أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى بعسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتار » ورافق الملك المظفر قطز إلى الشام صاحب حماة الملك المنصور وأخوه الأفضل .

أما بالنسبة للتتار فإن دولاً كوخان عاد إلى بلاد الشرق بسبب وفاة الخان الأعظم منكوخان فعاد هولاء كو إلى قراقورم آملاً اختياره خاناً أعظم على المغول وترك قيادة الجيش في الشام للقائد كتبغا ، وكان كتبغا مقدم جيش التتار في البقاع

(١) الكوسات وهى صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص

ومع ذلك طول وشبابه وهى تدق في أوقات خاصة : صبح الأعشي ج ٤ ص ٩ .

عندما علم بمسير السلطان المظفر قطز لقتاله ، فاستدعى إليه الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص وقاضى القضاة محي الدين محمد بن يحيى المعروف بابن الزكى والملك السعيد صاحب الصيت ابن العزيز بن العادل واستشارهم كتبغا فى الأمر ، فأشار بعضهم عليه بالانتظار حتى تصله إمدادات هولاء كولى يقوى بها على لقاء المسلمين ، وأشار آخرون عليه بغير ذلك . واختلفت الآراء حتى استقر رأى كتبغا على القتال ، فجمع التتار الذين كانوا قد تفرقوا فى بلاد الشام وزاد عددهم عن ثلاثين ألف مقاتل وقصد محاربة المسلمين ، وبصحبه الملك السعيد حسن بن الملك العزيز عثمان ، وعرض كتبغا على الصليبيين فى إمارة عكا أن يحالفوه على قتال المسلمين ولكن قطز قطع عليه الطريق عندما عرج أثناء مسيره لقتال التتار على الصليبيين وهددهم وضمن حياى عكا الصليبية .

موقعة عين جالوت ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م :

كان المظفر قطز قد تقدم بقواته حتى وصل الغور الذى به عين جالوت تلك البلدة الصغيرة الواقعة بين بيسان ونابلس من أرض فلسطين ، وكان التتار قد اجتمعوا فى ذلك المكان ، وذلك فى اليوم الخامس والعشرين من شهر رمضان ٦٥٨ هـ / أوائل سبتمبر ١٢٦٠ م ، فأمر السلطان المظفر بجمع الأمراء وقادة الجيش وحضهم على القتال ورجبهم فيه ، وذكرهم بما لحق الأقاليم الإسلامية التى اجتاحتها المغول من القتل والسلب والنهب ، والدمار والحريق ، ودعاهم إلى نصره الإسلام والجهاد فى سبيل الله دفاعاً عن المسلمين وحرمتهم ، وخوفهم من عقاب الله إن هم ولوا الأدبار أمام عدوهم ، فتأثروا لقوله « فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الاجتهاد فى قتال التتار ودفعهم عن البلاد ^(١) » . ثم تقدم بيبرس البندقدارى بفرقة الكشافة لاستطلاع أخبار العدو ومناوشته حتى يصل السلطان ببقية الجيش ، ويبدو أن الهدف من تقدم بيبرس كان إيهاى العدو بقله عدد المسلمين ، ثم ليصل السلطان بالجيش الرئيسى فجأة فينهزم العدو ، وتقدم بيبرس حتى التقى بطلائع التتار ، وكتب إلى السلطان يخبره بذلك ، واستمر يناوشهم إلى أن وافاه السلطان قطز عند عين جالوت

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٠ .

فاصطدمت طليعة المسلمين مع طليعة التتار ، واشتد القتال بينهما حتى انهزم العدو في اللقاء الأول ، فلما حل يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨ هـ / سبتمبر ١٢٦٠ م ، « التقى الجمعان وفي قلوب المسلمين وهم عظيم من التتر (١) ، وذلك بعد طأوع الشمس ، وكان الوادي قد امتلأ بالناس من سكان القرى والضياح المجاورة فكثرت صياحهم ودعائهم بالنصر ، ودقت طبول الحرب واشتد أوار القتال بين الفريقين « وتقاتلا قتالا شديداً لم ير مثله حتى قتل من الطائفتين جماعة كثيرة » (٢) ، وانكسرت ميسرة المسلمين فالتف المظفر قطز بجماعته وأردف الميسرة « حتى تحابوا وتراجعوا » واشتد القتال والمظفر قطز يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت ويكرهم كرة بعد كرة ، ورأى المظفر ضعف جبهته فألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته « وإسلاماه : فاشتدت عزائم المسلمين وحملاوا على العدو حملة صادقة فاشتد القتال مما حدا بكتبغا ليقاتل بنفسه ، وكان بيبرس قد نصب كميناً للتتر في المنطقة وعند لقاء العدو بطليعة المسلمين انكسرت هذه الطليعة وانسحبت فتشجع المغول وتعمقوا المسلمين وقتلوا بعضهم ، ولكن عندما وصلوا إلى الكمين الذي كان أعده لهم بيبرس انقضت عليهم القوات الإسلامية من ثلاث جهات واستبسلت القوات الإسلامية في قتال العدو ، وقاتلوهم قتالاً مستميتاً من الفجر حتى منتصف النهار . ثم تعذرت المقاومة على جيش المغول ولحقت بهم الهزيمة آخر الأمر (٣) ، وانهزم المغول شر هزيمة وولوا الأدبار وقتل مقدمهم كتبغا بيد الأمير جمال الدين آقوش الشمسي ، وقبض على الملك السعيد حسن بن العزيز عماد الدين ابن الملك العادل ومثل بين يدي الملك المظفر قطز بعد انتهاء الجولة الأولى وانكسار التتار ، وكان الملك السعيد معتقلاً بقلعة البيرة فلما ملكها التتار وأطلقوا سراحه وأعطوه بانباس وقلعة الصببية ، وقاتل المسلمين قتالاً شديداً يوم المصاف في عين جالوت فأمر قطز بضرب عنقه صبراً (٤) ، انسحب التتار بعد هزيمتهم الأولى إلى الجبل المجاور فتبعهم عسكر المسلمين وأحدقوا بهم فقتلوا معظمهم وأسر أهل البلاد بقيتهم حتى

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٠ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٩ .

(٣) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ١٣١٤ . Howorth, Part 3, P. 168-169 .

(٤) الذيل ج ١ ص ٣٦١ .

أفنؤهم قتلا وأسراً^(١) ، تعقبت العساكر الإسلامية فلول العدو المهزومة حتى قرب بيسان فانسحب التتار واحتشدوا من جديد « وتصافوا مصافاً أعظم من الأول^(٢) » ، واشتد القتال بين الطرفين فصاح المظفر قطز « وإسلاماه : ثلاث مرات » « بالله » انصر عبدك قطز على التتار « فقويت عزائم المسلمين على عدوهم وقتل معظم قادة المغول ونزل السلطان قطز عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ثم ركب جواده ثانية ، واستمرت بعض الفرق الإسلامية تتبع المهزومين من التتار حتى حمص فألقوا متاعهم ومعداتهم وأطلقوا الأسرى وتخطفهم المسلمون وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا أكثر ، وأقبلت جموع العساكر الإسلامية وقد امتلأت أيديهم بأسلاب وغنائم العدو ، وتبع الأمير بيبرس البندقدارى فلول التتار حتى حدود الفرات^(٣) ، أما الصبي الذي أبقاه السلطان من رسل التتار وأضافه إلى مماليكه وكان يوم عين جالوت حاضراً الواقعة ، وكان وراء السلطان وقت القتال ، فلما اشتد القتال بين الطرفين صوب هذا الصبي سهمه نحو السلطان فرآه من كان حوله فقبض عليه وقتل مكانه ، وهناك رواية أخرى تقول إنه رمى السلطان بسهم فأصاب فرسه وصرعه وترجل المظفر حتى جلبوا له فرساً آخر^(٤) ، ثم وصلت الأخبار إلى دمشق بانهزام التتار ليلة الأحد السابع والعشرين من رمضان ٦٥٨ هـ / سبتمبر ١٢٦٠ م ، فهرب نواب التتار من دمشق وكان نائبها إيل سبان^(٥) ، وتبعهم أصحابهم وكانت مدة استيلاء التتار على دمشق سبعة أشهر وعشرة أيام^(٦) .

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٠ ، ٤٣١ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص : ١٢٢ و ٢٢١ ، الذيل ج ١ ص ٣٦١ ، تمة المختصر ج ٢ ص ٢٠٧ ، النجوم الراهرة ج ٧ ص ٧٩ ، الحوادث الجامعة ص ٣٤٤ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ١٤٩ . The Mamouk Sultans, P. 74 .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣١ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣١ - ٤٣٤ ، جامع التواريخ ج ٢٢ ص ١ ص ٣١٦ النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٩ ، المختصر ج ٣ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، الروض الزاهر ١٣ - ١٥ أخبار الأول ص ١٢٧ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣١ .

(٥) تراجم رجال القرنين ص ٢٠٧ .

(٦) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٢ ، الذيل ج ١ ص ٣٦١ ، تراجم رجال القرنين ص ٢٠٧ .

ولقد كان لهذا النصر أبلغ الأثر على المسلمين مما حدا بالظاهر بيبرس عندما آلت إليه السلطنة إقامة نصب تذكاري تخليداً لذكري انتصار المسلمين على التتار وسماه (مشهد النصر)^(١) .

ثار موقعة عين جالوت في دمشق :

وفي يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان عام ٦٥٨ هـ / سبتمبر . ١٢٦٠ م وصل السلطان المظفر قطز إلى طبرية، وكتب إلى أهالي دمشق أول كتاب منه يبشرهم بنصر الله وهزيمة العدو ، فسر الناس لذلك سروراً عظيماً وظهرت أمارات فرحهم التي اتضححت في استقبالهم للمظفر قطز وانعكست آثار دزيمة التتار على النصارى وأدلى الذمة في الشام ، إذ كان النصارى قد استطالوا على المسلمين بدمشق واستصدروا فريسة من هولاء كوا بمنحهم كثيراً من الامتيازات ، وساءت العلاقات بين المسلمين والنصارى في دمشق نتيجة إيقاع المغول بين الفريقين ، واجتمع قضاة المدينة المسلمون والشهود والفقهاء في القاعة وشكوا « هذا الحال إلى متسلحها إيل سبان فأهينوا وطردها »^(٢) ، ومما تجدر الإشارة إليه أن قبيلة كتيغا مقدم جيش المغول في الشام كانت قد اعتنقت الدين المسيحي منذ قرون^(٣) ، مما أثر على الموقف إذ اعتر النصارى على المسلمين^(٤) وتعاون المغول مع الصليبيين في بعض الأحيان لمحاربة المسلمين والإيقاع بهم ويصور لنا ما أصاب المسلمين من النصارى الذين حرضهم المغول ما رواه ابن الجزري في تاريخه عن والده إبراهيم بن أبي بكر الجزري رحمه الله قال : « خرجت من جامع دمشق بعد صلاة الجمعة وهي ثاني جمعة مرت من شهر رمضان من تحت الساعات ودخلت في الخضراء إلى نحو دكاني بسوق الرماحين فوجدت جميع دكاكين الخضراء فيها الخمور والنصارى فيها يبيعون الخمر على من عبر عليهم من المصلين وغيرهم »^(٥) .

(١) الظاهر بيبرس ص ٣٣ .

(٢) البداية والنهاية ١٣ ص ٢١٩ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨١ ، تراجم رجال القرنين ص ٢٠٨ ،

The Mamluk Sultans, P. 745, Howarth, Part, 3, P. 150 & Babars, P. 41.

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٥ ، حاشية هـ The Mamluk Sultans, P. 745 .

(٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٥ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٠ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٢٥ .

(٥) الذيل ج ١ ص ٣٦٣ - ٣٦٥ .

دخول المظفر قطز دمشق :

وفي صبيحة اليوم التاسع والعشرين من رمضان ٦٥٨ هـ / سبتمبر ١٢٦٠ م ، وصل الأمير جمال الدين محمدى الصالحى بمرسوم السلطان المظفر قطز فنزل بدار السعادة « وأمن الناس ووطنهم » ثم وصل المظفر قطز في يوم الأربعاء آخر شهر رمضان ٦٥٨ هـ / سبتمبر ١٢٦٠ م ومعه العساكر إلى ظاهر دمشق وعسكر بهم حتى ثانی أيام شوال ثم دخل دمشق ونزل بالقلعة واستولى المظفر قطز على بلاد الشام من الفرات إلى مصر ماعدا الكرك الذى كان فى يد الملك المغيـث ، ثم أخذ يرتب أمور الشام ويضع عليها الزواب ، وأقطع الأمراء الإقطاعات واستتاب الأمير علاء الدين سنجر الحلبى فى دمشق ومعه الأمير مجير الدين أبو الهجاء بن عيسى أبو خشر الأزكشى الكردى ، ثم أرسل الملك الأشرف موسى صاحب حمص ونائب دولاكو ببلاد الشام إلى المظفر قطز يطلب الأمان فأمنه ، ثم جعل علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار نائباً على حلب ، وأقر الملك المنصور على حماه وبارين والمعرة ، وأعطى سامية للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب ، وجعل الأمير شمس الدين أقوش البرلى العزيزى أميراً على بلاد الساحل وغزة ، ثم أمر الملك المظفر بشنق حسين الكردى الطبردار لأنه دل على الملك الناصر يوسف كما بينا^(١).

ثم أمر السلطان بأن يدفع النصارى مائة وخمسين ألف درهم فجمعوها وتسلمها الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب أنابك العسكر وسلمها للسلطان .

نتائج موقعة عين جالوت :

واقـد كان لهذه الموقعة الكبرى والحاسمة فى تاريخ الإسلام نتائج عديدة منها : أنها ثبتت دعائم دولة المماليك فى مصر أولاً ثم فى الشام ثانياً وأصبح قطز « سيد سوريا^(٢) » حيث زالت المعارضة ولم تستطع بقايا البيت الأيوبي فى بلاد الشام

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٣ تنمة المختصر ج ٢ ص ٢٠٧ - ٢٠٩ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢١ ، المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٢٠٥ - ٢٠٧ ، العبر ج ٥ ص ٣٧٩ - ٢٨٠ والروض الزاهر ص ١٥ ، Howorth, Part 3, P. 172.

(٢-٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٣ ، Howorth, Part 3, P. 172.

معارضته أو مقاومته ، وفي الوقت نفسه كانت نهاية الدولة الأيوبية ، هذا بالإضافة إلى أنها أنقذت بلاد الشام من الاحتلال المغولي وتحول القوة الإسلامية من الدفاع إلى الهجوم وسحق قوى العدو ومطاردة فلولهم ، كما قضت هذه الانتصارات على الاعتقاد السائد بأن التتار قوم لا يغلبون ، ومن نتائجها أيضاً أن أنقذت مصر بل المغرب الإسلامي كله من الوقوع تحت سيطرة المغول ، إذ أوحق للمغول الانتصار في موقعة عين جالوت لتابعوا زحفهم إلى مصر فيسهل عليهم امتلاكها بعد تحطيم القوة الرئيسية في الشام ، هذا ولقد ثبت حكم المماليك في مصر واعتبروا أنفسهم حماة الإسلام والمسلمين ، فارتفع شأنهم في نظر الناس ، كما أن انتصارات المماليك أضعفت أمل الصليبيين في التعاون مع المغول ضد القوة الإسلامية بسبب ظهور قوة دولة المماليك وانتصاراتهم التي انتهت بطرد الصليبيين من بلاد الشام نهائياً ، وإبعاد الخطر المغولي إلى حدود العراق . بل حاول المماليك غزو العراق واستخلاصها من يد المغول ، وقال بعض الشعراء مادحاً المظفر قطز عند انتصار المسلمين على التتار في عين جالوت :

هلك الكفر في الشام جميعاً	واستجد الإسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر الملك الاروع	سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم فاعتزنا	بسمرة بيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا	دائماً مثل واجبات فروضه

وقال أبو شامة في هذه المناسبة : « ومن العجائب أن التتار كسروا وأهلكوا بأبناء جنسهم من الترك وقال في ذلك :

غلب التتار على البلاد فجاءهم	من مصر تركي بوجود نفسه
بالشام أهلكتهم وبدد شملهم	ولكل شيء آفة من جنسه

أما عن آثار هذه الموقعة بالنسبة للتتار فقد تحطمت قواتهم بعد هذه الهزيمة التي لم يقع لهم مثلها من قبل ، فانحطت معنوياتهم حتى إن بقية بلاد الشام ما إن سمع نوابها وما بها من عساكر التتار بهزيمة المغول في عين جالوت حتى ولوا الأدباء لا ياوون على شيء ، وكان المظفر قطز قد أرسل إلى الملك الأشرف موسى صاحب حمص وإلى الملك السعيد صاحب الصبية بتسليمها إليه فأجابه الأشرف موسى

بأنه سيكون معه وينهزم يوم اللقاء في الميدان ، وأما السعيد بن العزيز فأساء الرد على رسوله وأوقع به ، ومن ثم قتل الملك السعيد صاحب الصبية لأنه اشترك مع التتار في القتال ، ثم قتل كتبغا مقدم التتار وأرسلت رأسه إلى القاهرة ، وكان قد أسر ومثل أمام المظفر قطز فأمر بضرب عنقه وأسر أيضاً بنه مما أثار الألم والحزن في نفس هولاء كوا . وكان كتبغا يوم عين جالوت عرض عليه جماعة من اتباعه الهرب ولكنه أبى أن يستمع لهم وقال : « لا مفر من الموت هنا ، فالموت مع الغزاة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان » ، وظل يقاتل هذا بالرغم من انهزام المغول وتفرق جيش كتبغا عنه ومقتل معظم عساكره إلا أنه بقي صامداً في الميدان ، فقد ظل يكافح ألف رجل إلى أن كبابه جواده في نهاية الأمر فأسر « وكانت تجاور ميدان المعركة مزرعة كبيرة للقصب فهرب إليها كثير من عساكر التتار وفرسانهم فأمر المظفر جنوده بإشعال النار فيها وأحرقوهم جميعاً ، ثم أسر كتبغا وأحضر إلى السلطان مكبلاً فقال المظفر قطز له : « أيها الرجل الناكث العهد .. ها أنت بعد أن سفكت كثيراً من الدماء البرثية وقضيت على الأبطال والعظماء بالوعود الكاذبة وهدمت البيوتات العريقة - بالأقوال الزائفة المزورة قد وقعت أخيراً في الشوك » وعندما سمع كتبغا كلامه وهو مكبل اليدين انتفض وقال : « أيها الفخور المغتر لا تتباه كثيراً بيوم النصر هذا ، فأنا إذا قتلت على يدك فيني أعلم أن ذلك من الله لا منك ، فلا تخدع بهذه المصادفة العاجلة ، ولا بهذا الغرور العابر فإنه حين يبلغ حضرة هولاء كو خان نبأ وفاتي سوف يغلي بحر غضبه وستطأ سنابك خيل المغول البلاد من آذربيجان حتى ديار مصر وستحمل رمال مصر في مخالي خيولهم إلى هناك ، إن هولاء كو خان ثلثمائة ألف فارس مثل كتبغا فافرض أنه نقص واحد منهم فقال له قطز : « لا تفخر إلى هذا الحد بفارسان نوران فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع لا بالرجولة والشهامة مثل رسم داسنان . فرد عليه كتبغا : « إنني كنت عبداً للملك ما حييت ، ولست مثلك ما كراً وغادراً وقاتلاً لمولاه .. »^(١) ثم قال « بادر بالقضاء على بأسرع ما يمكن حتى لا أسع تأنيك » فأمر قطز بقتله ففصلوا رأسه عن جسده^(٢) ، وكان كتبغا ودهو أمير عشرة آلاف جندي قد فتح بلاداً كثيرة وكان كلما دخل بلداً أخذ أهله وساقهم إلى

(١) يقصد بذلك ما فعله قطز بالملك المنصور على عندما خلعه من السلطنة واعتقله في قلعة الجبل .

(٢) جامع التواريخ ٢٢ ج ١ ص ٣١٥ - ٣١٦ .

البلد الآخر الذى يليه ويطلب من أهل ذلك البلد أن يؤووا هؤلاء إليهم فإن فعلوا ذلك « حصل مقصوده فى تضيق الأطعمة والأشربة عليهم فتقصر مدة الحصار عليه ^(١) » أعنى أنه كان يستخدم الضغط الاقتصادى لإجبار البلدان على الاستسلام والخضوع لجبروته ، فإذا امتنع أهل البلد عن إيواء القادمين إليهم قاتلهم بهم ونتيجة ذلك إما أن يتم فتح المدينة دون إىراق دم مغولى فيها وإنما نتيجة تناحر الفريقين وبذلك تصبح المدينة الجديدة لقمة سائغة فى يد المغول ، إذ يقاتلهم بجنده بعد أن يكونوا ضعفوا وأرهقوا وأنهارت قواهم بنى جنسهم ، وكان كتبغا يبعث إلى الحصن أو المدينة بقول لأهله : « إن ماءكم قد قل فنخشى أن نأخذكم عنوة فنقتلكم عن آخركم نسبي نساءكم وأولادكم فما بقاؤكم بعد ذهاب مائكم فافتحوا صلحاً قبل أن نأخذكم قسراً » فإذا أجاب أهل المدينة بأن الماء بعينه ، فإذا ما دخل أحد المغول لرؤية الماء فإنه منهم أن يرسل من أن يرسل لحن عنده من يرى الماء بعينه فإذا ما دخل أحد المغول لرؤية الماء فإنه يضع السم فيه بطريقة خفية . فإذا شرب الناس منه ماتوا .

وهناك روايات تذكر أن كتبغا قتل فى المعركة ولم يمثل أسيراً أمام المظفر قطز ، وإنما وقع ابنه أسيراً ووجد كتبغا قتيلاً بين القتلى فى ساحة المعركة ، ومن المرجح أنه قبض عليه ثم قتل بعد ذلك ، ولقد « كان لمقتل كتبغا وهزيمة جيشه فى إثارة غضب دولاكو وأسف عليه أسفاً عظيماً » . « وقال حين علم بما دار بين كتبغا والمظفر قطز من حديث « أين أجد خادماً آخر مثله بيدي مثل هذه النوايا الطيبة ومثل هذه العبودية ساعة هلاكه » .

أما بقية أمراء المغول الذين نجوا فقد شملهم بعطفه وأعزهم وأكرمهم . ولقد كان لرغبة دولاكو فى الثأر من هذه الهزيمة التى وقعت بجيوشه وأودت بحياة قائده العظيم كتبغا الدافع الأول لتفكيره فى العودة لغزو الشام وبصر إلا أن الظروف لم تكن مواتية بسبب وفاة منكوخان الأعظم وبسبب الخلاف الذى ظهر بين دولاكو وأقاربه . ولهذا عدل عن فكرة غزو الشام ولو إلى حين « وقال أبو شامة مصوراً حالة التثار واضطرابهم عندما سمعوا بهزيمة جيشهم فى عين جالوت : « وجاءنا

الخبر بأن المهزمن من رجال التتار ونسأهم لحقهم الطلاب من المسلمين بأرض حمص ونحوها فسيبوا ما كان معهم من أسرى المسلمين وتبعجت خيولهم فتخففوا ما معهم حتى إنهم رموا أولادهم وضربوا رقاب من عجزوا عن حمله من نسأهم وخرجوا عن طريق الساحل وخطف منهم خلق وقتل ناس وأسر جمع والطلب خلفهم ليستأصلوهم إن شاء الله .

أما بالنسبة للملك الناصر صلاح الدين يوسف فإن هولاكو قبل علمه بما حدث لكتبغا وهزيمة جيشه في عين جالوت ، كان قد أحاط الملك الناصر برعايته وفوض إليه حكومة دمشق وسيره إليها ومعه ثلثمائة فارس شامى ، ولكن بعد أن علم هولاكو بمقتل صهره كتبغا قال له رجل شامى : « إن الملك الناصر ليس مخلصاً لك ، وقد أراد أن يفر إلى الشام لإمداد قطز الذى هزم كتبوبرقا (كتبغا) بتدبيره » فأرسل هولاكو على الفور ثلثمائة فارس مغولى في إثر الملك الناصر فقتاوه ، وكان ذلك يوم الأربعاء السابع عشر من صفر ٦٥٩ / يناير ١٢٦١ م .

مقتل المظفر قطز :

ذكرنا أن الملك المظفر قطز تقدم حتى وصل دمشق ورتب أمور بلاد الشام وأقر الولاية والنواب على البلاد ، وعادت بلاد الشام إلى حكم الإسلام ، وبالتالي دخلت تحت حكم دولة المماليك منذ ذلك الحين « والملك المظفر قطز هو أول من ملك البلاد الشامية واستتاب بها من ملوك الترك ، وأعاد المظفر الطمأنينة للبلاد والعباد ، ثم شرع في العودة إلى الديار المصرية وغادر دمشق يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شوال ٦٥٨ هـ / أكتوبر ١٢٦٠ م في طريقه إلى مصر ، وكان قد عزم على السير إلى حلب ولكنه عدل عن ذلك لما بلغه من تنكر الأمير بيبرس البندقدارى وتغيره عليه لعدم حصوله على حلب ، فخاف السلطان قطز منه « وأضمر له سوء » ، وسار إلى مصر بدلا من قصد حلب ، وعلم بيبرس بما في نفس قطز نحوه فأخذ كل منهما حذره من الآخر والكل يريد هلاك الآخر ، ولما وصل المظفر إلى القصير ، ولم يبق بينه وبين الصالحية إلا مسافة قصيرة فتقدمت العساكر السلطانية إلى الصالحية وبقى المظفر في جماعة قليلة من خواصه وأمرائه ثم خرج لصيد أرنب في الصحراء فتبعه

الظاهر بيبرس وجماعة من أصحابه المتآمرين على قتله ، فقبض بيبرس على يد السلطان وحمل الأمراء على السلطان قطز ورموه عن فرسه وضربوه بسيفهم ورشقوه بالسهم حتى قتلوه وتركوه في العراء وكان ذلك في السابع عشر من ذي القعدة عام ٦٥٨ هـ / أكتوبر ١٢٦٠ م^(١) .

ثم عاد بيبرس وأصحابه إلى معسكر السلطان وهم شاهرون سيوفهم حتى وصلوا إلى المعسكر السلطاني بالصالحية فنزلوا ودخلوا وكان الأتابك فارس الدين أقطاي المستعرب واقفاً على باب الدهليز فأخبروه بما كان من أمر السلطان وقتله فقال المستعرب . . من قتله منكم ، فقال بيبرس : أنا فقال : اجلس على مرتبة السلطان .

أما الشهيد قطز فإنه دفن في القصير ثم نقل إلى القاهرة ويقال إن اسمه محدود ابن ممدود وإن أمه أخت السلطان جلال الدين الخوارزمي ، وإنما استرق عندما أنتصر التتار وباعوه في دمشق ، ثم انتقل إلى القاهرة وبقى بها حتى تولى السلطنة^(٢) .

أما عن الأسباب التي أدت إلى قتل المظفر قطز على هذا النحو قبل أن يصل إلى القاهرة التي أخذت زخرفها لاستقبال البطل المنتصر في عين جالوت . ويمكن تفسيرها كما ذكرت المصادر بأن الملك المظفر قطز كان وعد الأمير بيبرس بولاية حلب وأعمالها ، فلما انتصر قطز على التتار نقض عهده وولى علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مما أدى إلى إيجاد أسباب الوحشة بين المظفر قطز وبيبرس .

وقال ابن كثير : « فلم يف له لما رآه من المصلحة فوقعته الوحشة بسبب ذلك^(٣) ويمكن تعليل ذلك أيضاً بأن بيبرس كانت له اليد الطولى في الجهاد وأبلى بلاء حسناً يوم موقعة عين جالوت ، وطارده التتار حتى الثمرات واستعاد حلب منهم ، كما انتصر

(١) المختصر ج ٣ ص ٢٠٧ ، الروض الزاهر ص ١٦ ، دائرة المعارف الإسلامية م ٤ ص ٢٦٣ ،

٣٦٤ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٥ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢٢ - ٢٢٧ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ النجوم

الزاهرة ج ٧ ص ٨٢ ، فوات الرفيات ج ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ دول الإسلام ج ٢ ص ١٢٥ مرآة

الجنان : ج ٤ ص ١٤٥ Howarth part 3 : 173

على بيدرا قائد التتار في غزة في اللقاء الأول . ولعل هذه الأعمال الجلييلة قد أثارت في نفس بيبرس الطمع في الاستيلاء على السلطنة ، وكان الشخصية الثانية بعد قطز ولم ينتظر حتى يصل قطز إلى القاهرة ليشهد الاحتفاء بقدمه ويفرح بثمره انتصاره على التتار حتى لا ترتفع مكانته ولا تزداد سلطنته ثباتاً مما يؤثر على مستقبل بيبرس إذا ما حاول الثورة على قطز ولذلك عاجله قبل أن يثبت نفسه في الحكم وقبل أن تزداد محبته في القلوب ، فتآمر مع جماعة من أمراء المماليك كانوا يؤيدونه وربما كانوا السبب في تشجيع بيبرس على قتل قطز ، ومن هؤلاء الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى والأمير بيدغان الركنى والأمير سيف الدين بهادر المعزى والأمير بدر الدين بكتوت الجوكندار المعزى والأمير بدر الدين أنص الأصبهاني ، وعلم الدين صنغلي وسيف الدين بلبان الهاروني^(١) . ويمكن القول أن المماليك البحرية وزعيمهم بيبرس دبروا هذه المؤامرة لشيء كان في نفوسهم منذ أن هربوا إلى الشام أيام المعز أبيك ، وقتل الأمير فارس الدين أقطاي ، وكان قطز هو الذي قتل فارس الدين أقطاي خشداشهم ، ولذلك فإنهم كانوا يتحينون الفرصة المواتية للوثوب على قطز وقتله . ولما عادوا إلى مصر إبان الغزو المغولي قبل قطز معاوتهم له لأنه كان في حاجة إليهم للدفاع عن الإسلام وأهله ، وأبلوا جميعاً يوم عين جالوت بلاء حسناً وخاصة بيبرس ، فلما انتهت الموقعة وزال خطر العدوان المغولي لأنه من بلاد الشام «عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من التردد لثأر أقطاي » ولعل ذلك كان من أهم الدوافع التي أودت بحياة الشهيد سيف الدين قطز بالإضافة إلى الأسباب الأخرى^(٢) وكان قبر قطز مزاراً للناس ، فلما علم بيبرس بذلك بعث من بنبشه وينقله إلى مكان آخر بحيث لا يعرفه أحد وعنى أثر قطز ولم يعف خبره .

ومن هذا يتضح لنا مدى الغيرة والحمق اللتين امتلأ بهما نفس بيبرس ضد قطز .

أما عن بيبرس وأصحابه فإنه بعد أن بايعه أصحابه والأمير أقطاي المستعرب الأتابك سار بالأمراء إلى القاهرة ودخل قلعة الجبل في السابع عشر ذي القعدة ٦٥٨هـ / أكتوبر ١٢٦٠م . أي بعد قتل قطز بيوم واحد ، وكتب إلى النواب بالشام يعلمهم

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٤ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٥ ، فوات الوفيات ج ١ ص ١٦١ .

(٢) العبر ج ٥ ص ٣٨٥ .

بسلطنته حتى يبایعوه^(١) ، غير أن الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق رفض البيعة لبيبرس ، وأنكر عليه ما فعله ، ودعا الناس لنفسه وتسمى بالملك المجاهد ، إلا أنه استسلم وخطب للظاهر بيبرس في دمشق يوم الجمعة السادس من ذي الحجة ٦٥٨ هـ / نوفمبر ١٢٦٠ م ، فدعى الخطيب للملك المجاهد أولاً ثم الظاهر ثانياً وضربت السكة باسميهما معاً ثم أسقط المجاهد نهائياً^(٢) ، وكان ينتظر السلطان الظاهر أعمال جسام منها ما يتعلق بالأحوال الداخلية وأخرى تتعلق بالعلاقات الخارجية ، فقد كانت بلاد مصر محاطة بالأعداء من كل الجهات في الشمال يربض ملك أرمينية الصليبي ، وفي الغرب حيث توجد الإمارات الصليبية على طول ساحل الشام ، وفي الشرق كان المغول وتهديدهم للشام ومصر بالإضافة إلى النوبيين الذين لا يكفون عن إثارة القلاقل والاضطرابات ، أضف إلى ذلك توقع وصول حملات صليبية على بلاد الإسلام الشرقية من أوروبا ، وكذلك الخوف من قيام أحد الأمراء الأيوبيين مطالباً بالعرش مدعياً أنه آخر أمراء الأيوبيين الشرعيين ، وقد ينجح لما للأيوبيين من احترام وتقدير عند المسلمين منذ عهد صلاح الدين الأيوبي ، هذا بالإضافة إلى عناصر أخرى تطمع في العرش فبدأ الظاهر بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة ليضفي على سلطنته الصفة الشرعية فيزداد ثباتاً في الداخل ويترى على أعدائه في الخارج^(٣) .

(١) قوات الوفيات ج ١ ص ١٦٢ ، تنمة المختصر ج ٢ ص ٢١٠ ، العبر ص ٥ ج ٣٨١ ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢٣ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٤ ، تراجم رجال القرنين ص ٢١٠ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية م ٤ ص ٣٦٤ .

الفصل الثالث

العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس والمغول

دولة السلطان الظاهر بيبرس :

ذكرنا أن بيبرس تأمر مع جماعة من المماليك البحرية على اغتيال السلطان المظفر قطز ، وأخذاً بثأر فارس الدين أقطاي أحد قادة وأمراء المماليك البحرية الذي كان قد قتله قطز^(١) ، وجلس بيبرس على كرسي السلطنة وبايعه الأمراء ولقب نفسه بالملك الناصر ثم عاد وعد له إلى الملك الظاهر بإشارة من صاحب الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير ، ثم قال الأمير أقطاي الأتابك لبيبرس : « لا تتم السلطنة إلا بدخولك إلى قلعة الجبل » فركب وسار معه الأمير أقطاي وقلاوون الألفي والأمير بيسرى والأمير بليان والأمير ببليك ومماليكه ، ومن ثم توجه إلى قلعة الجبل فقابله الأمير عز الدين أيدير الحلبي نائب السلطنة بديار مصر وكان قد خرج لاستقبال المظفر قطز فأخبره بيبرس بما حدث واضطر الحلبي أمام هذا الأمر أن يقسم له يمين الولاء ، ومهد له الطريق حيث أقنع الأمراء بالولاء لبيبرس عن طريق الوعود البراقة « فلم يخالف منهم أحد » ودخل بيبرس والأمراء قلعة الجبل ليلاً وكان ذلك في ليلة الاثنين تاسع عشر ذي القعدة ٦٥٨ هـ / أكتوبر ١٢٦٥ م . ومن ثم يمكن القول أن مقتل قطز كان في السادس عشر من ذي القعدة وبيعة بيبرس في المعسكر السلطاني بالصالحية تمت في السابع عشر ودخوله القلعة وجلسه على كرسي السلطنة في التاسع عشر من ذي القعدة .

فلما طلع النهار نادى المنادى في الناس « ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم ركن الدين بيبرس » ثم أمر في آخر النهار بالدعاء للملك الظاهر « فغم الناس ذلك وخافوا من عودة دواة المماليك البحرية وسوء مملكتهم وجورهم » وكان الناس قد خرجوا لاستقبال قطز الذي كان من مماليك المعز أيبك التركماني ولم يكن من

المماليك البحريةية أي ممالك الملك الصالح أيوب (١) .

وفي صبيحة يوم الاثنين عقد بيبرس مجلساً لأخذ البيعة ، فجلس بالإيوان بالقلعة حيث أقسم الجند على الطاعة والولاء واستتاب الأمراء فجعل الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائباً واستقر الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب أتاكياً والأمير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحى استادارا (٢) ، والأمير عز الدين بن ابيك الأفرم الصالحى أمير جاندار (٣) والأمير صبام الدين لاجين الدر فيل والأمير سيف الدين بلبان الرومى دواداربه (٤) ، والأمير بهاء الدين أمير آخور (٥) .
والصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير وزيراً والأمير ركن الدين أبا جى والأمير سيف الدين بكجرى حاجين (٦) ، ثم ركب الظاهر بيبرس بشعار السلطنة فى اليوم السابع من صفر ٦٥٩ هـ / يناير ١٢٦١ م ، وسار من قلعة الجبل بشعار السلطنة إلى خارج القاهرة ودخل من باب النصر إلى باب زويلة ثم عاد إلى قلعة الجبل ، ثم أمر الظاهر باستدعاء المماليك البحريةية من الأطراف وكتب إلى الملوك والنواب يخبرهم بسلطنته فأجابوا كلهم بالسمع والطاعة ، وعامل بيبرس الأمراء والشعب معاملة حسنة وخفف عنهم الضرائب فاستجابوا له وطالت أيامه . ومع ذلك فإن نائب دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي « امتعض لذلك وأنف من طاعة بيبرس ، وجمع الأمراء الذين رتبهم قطز، معه ليقسموا له على الطاعة » فأجابه بعض الأمراء ظاهراً ووافقوه الباقون « وتلقب بالملك المجاهد ، وفى سادس ذى الحجة ٦٥٨ هـ / نوفمبر ١٢٦٠ م خطب على منابر دمشق للظاهر بيبرس أولاً ثم

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٧ ، الذيل ج ١ ص ٣٧٢

(٢) هو المشرف على المطابخ السلطانية ويشرف على الأطعمة والشراب وتنظيم الموائد صبح الأعشى :

ج ٤ ص ٢٠ .

(٣) ويقوم صاحب هذه الوظيفة بإدخال الناس على السلطان وهو جالس بالأبواب بقلعة الجبل :

صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ .

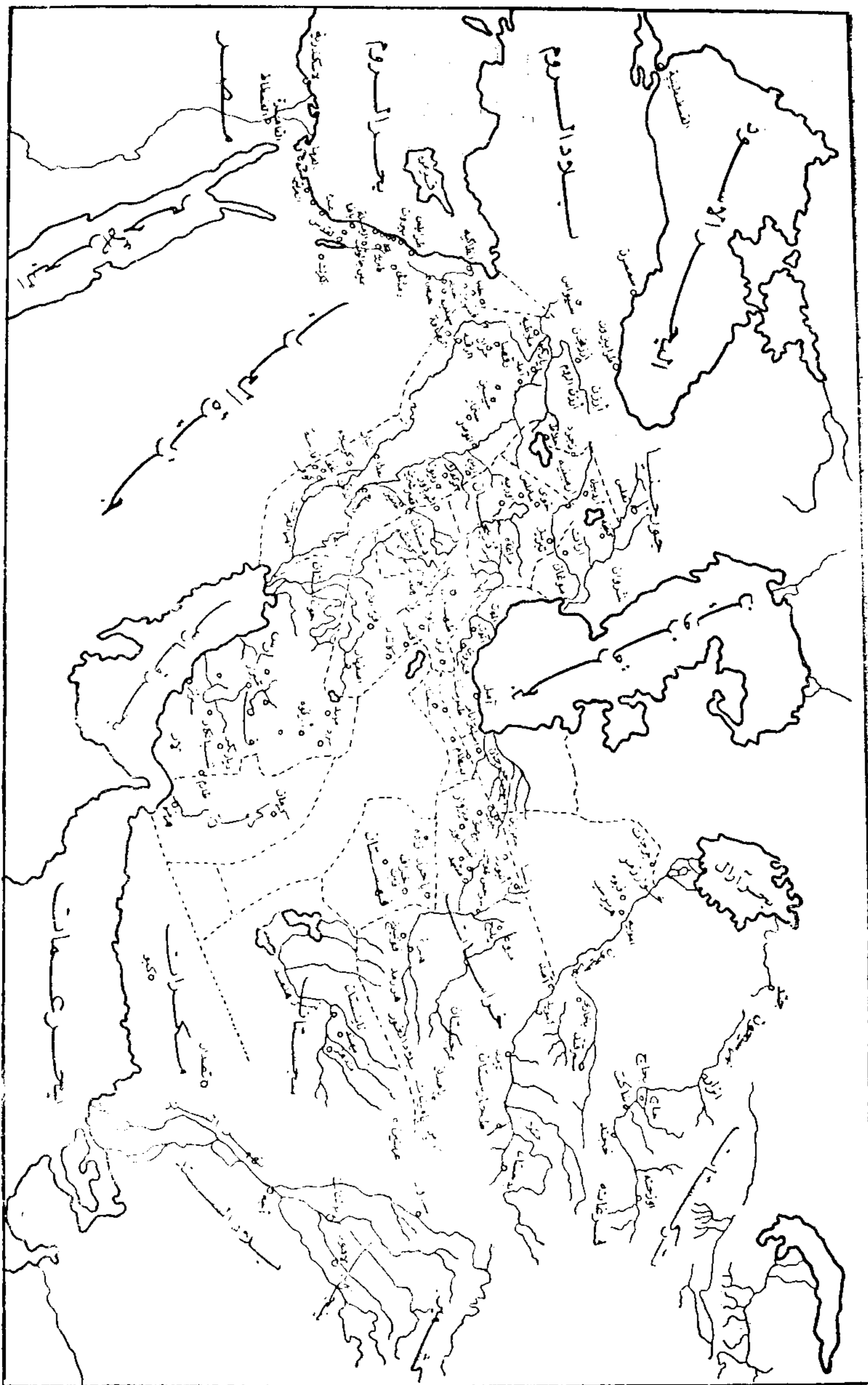
(٤) ويقوم بتقديم كل ما تؤخذ عليه العلامة السلطانية فى المناشير والتواقيع والكتب : الخطاط ج ٣

ص ٣٦١ ، صبح الأعشى : ج ٤ ص ١٩ .

(٥) وهو كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب صبح الأعشى : ج ٤ ص ١٨ .

(٦) الحاجب وينصف بين الأمراء واجهد تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب وإليه تقديم من يعرض

ومن يرد وعرض الجند وما ناسب ذلك . صبح الأعشى : ج ٤ ص ١٩ .



العلاقات السياسية في عصر المغول

العلاقات السياسية

للمجاهد ثانياً وضربت الدراهم باسميهما . ثم أرسل الملك الظاهر بيبرس عساكره بقيادة علاء الدين البندقدارى لقتال سنجر الحلبي بدمشق فهزموه ، وهرب إلى القلعة ثم تركها في الليل ، وسار إلى بعلبك واتبعوه وقبضوا عليه وبعثوا به إلى الظاهر فاعتقله ثم أطلقه وأقطعه وأكرمه .

هجوم التتار على الشام :

لما علم التتار بقتل الملك المظفر قطز اعتقدوا أن في هذا فرصة سانحة للأخذ بثأر الهزيمة الكبرى التي لحقت بهم في عين جالوت ، حيث توقعوا قيام خلافات بين أمراء المماليك وبالتالي انقسام لوحدة الصف الإسلامي وضعفه ، ومن ثم تجمع التتار بقيادة بيدارا بالجزيرة وحران^(١) ، ومن انضم إليهم بعد هزيمة عين جالوت من المنهزمين . وكانت الأحوال الاقتصادية في حران سيئة مما اضطرهم للإغارة على حلب . فسارت القوات المغولية حتى وصلت البيرة فطلب إليهم النجدة من الملك السعيد صاحب حلب ، وكانت البيرة مكشوفة إذ كان التتار قد هدموا أسوارها وأبراج قلعتها . فأرسل الملك السعيد إليهم نجدة بقيادة الأمير سابق الدين أمير مجلس الناصري^(٢) . إلا أن هذه النجدة كانت من القلعة بحيث لم تحقق الغرض المنشود الذي أرسلت من أجله . مما أدى إلى اعتراض الأمراء على الملك السعيد . وقالوا له إن قلعة الجند قد تكون سبباً في الهزيمة وضياع مدينة حلب إذا ما انتصر التتار على هذه النجدة المجردة إلى البيرة من حلب . فلما اقتربوا منها صادفوا التتار بجموعهم فاشتبك الطرفان ولكن سابق الدين لم يكن في استطاعته خوض المعركة لقلّة جنده كما أشرنا ، فسار إلى البيرة فطارده التتار وقتلوا معظم أصحابه . ووصل الخبر بذلك إلى حلب فاضربت المدينة وجفل الناس . نحو الجنوب . وندم الملك السعيد لمخالفته الأمراء فيما أشاروا عليه ثم وصلت

(١) جزيرة ابن عمر وهي مدينة من الجزيرة غربي نهر دجلة وقيل إنها شمال الموصل ودجلة محيطة بها مثل الهلاك : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢٢ ، بلدان الخلافة الشرقية ١٢٣ ، أما حران فيقال إنها أول مدينة بنيت بعد الطوفان وبها حصن من حجارة حسن البناء وكانت مدينة الصابئين وهم على دين إبراهيم عليه السلام - بلدان الخلافة الشرقية ص ١٣٤ .

(٢) وظيفة يقوم صاحبها بحراسة السلطان في مجلسه ويتحدث على الأطباء والكعاليين ولا يكون إلا واحداً : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

رسالة من البيرة تذكر أن طائفة من العدو اتجهت نحو منبج^(١) ، ويؤيدون ، مهاجمة حلب ، وكان الأمراء قد عزموا على القبض على الملك السعيد علاء الدين نائب حلب لفساده وظلمه ، فأجلوا الخلاص منه حتى ينجلى الموقف ويواجهوا التتار وحتى لا يطمع فيهم العدو إذا ما علم بخلافهم ، وأشار الأمراء على الملك السعيد بالخروج إلى التتر ، خارج حلب وأشاروا عليه بجمع الجيش والأعراب والتركان والاستعداد للقاء العدو ، فأجابهم إلى ذلك وأرسل الأمير عصبة إلى منبج لكشف أخبار العدو إلا أنه وقع في يدهم وقتلوه فلما علم الملك السعيد بذلك اشتد خوفه ثم قدم في هذه الآونة الأمير بدر الدين ازدمر الدوادار العزيزي نائب اللاذقية وجبله ، من قبل المظفر قطز وأخبر خشداشيته بمقتل قطز وأشار عليهم بالقبض على السعيد وإقامة أحدهم ملكاً على حلب وبلادها ، فأجابوه إلى ذلك وتوجه الأمراء إلى الملك السعيد وقبضوا عليه بعد أن أمنوه على حياته بشرط أن يسلم كل الأموال ، وهي أكثر من أربعين ألف دينار ، ووزعت الأموال على الجند ثم أرسل الملك السعيد إلى الشغرويكاس^(٢) ، معتقلاً وبقى بها إلى أن أفرج عنه^(٣) ، حدثت هذه التغيرات في حلب في الوقت نفسه الذي تقدمت فيه الجيوش المغولية إلى حلب في يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة ، عام ٥٦٥٨هـ / نوفمبر ١٢٦٠ م بقيادة بيدرا فانسحب الأمير حسام الدين الجوكندار^(٤) وأصحابه والعساكر إلى دمشق فتقدمت القوات المغولية ودخلوا حلب وأخرجوا من فيها من الخلق إلى قرية قرنيبا شرقي حلب ، وهذه كانت سياسة التتار في غزو البلاد وأعملوا السيف في بعضهم فأبادوهم وأطلقوا الباقين « فدخلوا حلب في أسوأ حال » ، وبعد امتلاكهم حلب تقدمت قواتهم إلى حماة وكان نائبها الملك المنصور

(١) بلد قديم كبير واسع بينه وبين الفرات ثلاثة فراسخ وإلى حلب عشرة فراسخ - مرصد ، الاطلاع ج ٣ ص ١٣١٦ .

(٢) الشغرويكاس قلعتان حصينتان قريبتان من النواحي الغربية من حلب والشغر قلعة صغيرة قريبة من كاس يعبر من إحديهما إلى الأخرى بجسر : مرصد الاطلاع ج ١ ص ٢١٣ .

(٣) السلوك ج ٢ ص ٤٤٠ .

(٤) الجوكندار هو الرجل الذي يحمل الجوكان للسلطان اثناء لعبة الكرة وهو المحجم الذي ضرب به الكرة : السلوك ج ٢ ص ٤٣٥ حاشية ١ .

فتزلوا بمشارفها من ناحية الجنوب ، وكان الأمير حسام الدين الجوكندار وعساكره قد وصلوا إلى حماة منسحبين من حلب ، فلما أدركه التتار في حماة سار ، الجوكندار والملك المنصور صاحب حماة إلى حمص ، ثم وصلت القوات المغولية إلى حماة فأغلقت أبوابها وقدم أهل حماة شيئاً من المؤمن والطعام إلى التتار مدارة لهم فتركوا المدينة وطاردوا الجيش الإسلامي المنسحب بقيادة الجوكندار والملك المنصور محمد ، هذا في الوقت الذي هرب فيه بعض الناس خوفاً من ، التتار إلى دمشق .

موقعة حمص الأولى ٦٥٩ هـ - ١٢٦٠ م :

ذكرنا أن الأمير حسام الدين لاجين الجوكندار مقدم عسكر حلب والملك المنصور صاحب حماة وأخوه الأفضل علي والأمير مبارز الدين قد ساروا من حماة بعد أن علموا من اقتراب التتار منها ووصلوا جميعاً إلى حمص حيث اجتمعوا مع صاحبها الملك الأشرف ، هذا في الوقت الذي عزم فيه عسكر حلب على المسير إلى دمشق ، وفي الوقت نفسه كان العدو قريباً من حمص ويتهدها ، فلام الملك الأشرف « الجوكندار » على تخاذله على القتال وقال له : « ما يقلل عنا في البلاد وبأى وجبة نلتى صاحب مصر » وأخذ في حثه هو وصاحب حماة على لقاء العدو ، وتقرر الوقوف في وجه العدو وقتاله ، فوصلت كتائب التتار يوم الجمعة الخامس من المحرم ٦٥٩ هـ / ديسمبر ١٢٦٠ م ، والتقى الجمعان واشتد وطيس القتال عند مكان بالقرب من قبر خالد بن الوليد قرب الرستن ، وبرغم أن كفة العدو كانت الراجحة من حيث العدد والعدد إذ أن جند العدو كانوا حوالي ستة آلاف فارس ، في الوقت الذي كان جند المسلمين نحو ألف وأربعمائة فارس ، إلا أن النصر كان حليف المسلمين « ورزقهم الله النصر عليهم » فبدد شمل عدوهم وحقق لهم النصر المبين ، ولقد كان لهذا النصر أبلغ الأثر في نفوس المسلمين ، فتبعوا فلول عدوهم حتى أفنوا معظمهم ، وفي هذه المناسبة يقول صاحب دولة الإسلام : فحمل المسلمون حملة صادقة ، فكان النصر ووضعوا السيف في الكفرة حتى حصدوا أكثرهم ، وانهزم مقدمهم بيدراً بأسوأ حال ، والعجيب أنه ما قتل

من المسلمين سوى رجل واحد « وكان لهذا النصر أثر كبير في رفع الروح المعنوية للمسلمين وقضت على فكرة أن المغول قوم لا يهزمون ويظهر هذا واضحاً ، إذ أن أهل حماة لما علموا بهزيمة التتار عند حمص بدءوا في عقاب جماعة من المنافقين في المدينة ، كانوا يميلون إلى مد يد العون إلى التتار ، وأرادوا معاً معاونتهم وذلك عن طريق ثقب جزء من السور ليدخل منه التتار إلى المدينة ، ثم وصل الملك المنصور إلى حماة فرجع التتار المنهزمون ونازلوا المدينة يوماً ولكن قوتهم كانت ضعفت وانهارت فتركوا المدينة وساروا إلى أفامية ، أما الملك المنصور وأخوه الأفضل فقد قررا المسير إلى دمشق ، ولكن العامة في حماة منعوهما من ذلك حتى استوثقوا منهما بأنه يعود إليهم عن قرب فمكنوه من السفر ومعه جماعة قليلة من خواصه ومماليكه . وقال لهم إنه يريد أن يأخذ معه عسكرياً ليكون له النصر بهم على التتار ، فسار وترك عندهم الطواشي شجاع الدين مرشداً والعسكر ، وكذلك توجه الملك الأشرف صاحب حمص إلى دمشق إلى الملك المجاهد علم الدين سنجر الذي زين دمشق ابتهاجاً بالانتصار على التتار في حمص ، أما حسام الدين الجوكندار فإنه لم يدخل دمشق بل أخذ طريقه إلى مصر ولم يقبل الدخول ، في طاعة الملك المجاهد ، وأقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق في دورهما ، ولم يدخل في طاعة الملك المجاهد لضعفه وعادا إلى بلادهما (١) ، أما بالنسبة للتتار فساروا عن حماة إلى أفامية . وكان سيف الدين الديبلي الأشرفي قد وصل إلى أفامية وأقام في قلعتها وأخذ يهاجم التتار حتى اضطروهم إلى ترك أفامية وساروا إلى حلب ، وحاصروها أربعة أشهر وأخرجوا من فيها من الرجال ، ثم بعث السلطان الظاهر جيشاً إلى حلب ليطرد التتار منها بقيادة الأمير فخر الدين الحمصي ، والأمير حسام الدين لاجين الجوكندار ، والأمير حسان الدين العيتابي ، فلما وصل هذا الجيش إلى غزة ، أرسل الفرنج يخبرون التتار يحذروهم ، فرحلوا عن حلب بسرعة ودخل الجيش الإسلامي إلى حلب .

وقال الشيخ شرف الدين عبد العزيز شيخ الشيوخ بمدح ملك حماة بمناسبة موقعة حمص قائلاً :

لك في الندى وردى ذوى الأشراك شيم نفوق بها على الأملاك

(١) البرج ٥ ص ٢٨١ .

لما شكادين الهدى اشتكيتيه بشديد بأسك والسلاح الشاكي^(١)
دعت المعالي يا أباهما دعوة لامت عليك فقلت لبي فاك

وزود السلطان الظاهر الخليفة بعشرة آلاف فارس حتى يستقر ببغداد مقر .
الخلافة العباسية وأنفق في سبيل ذلك أكثر من مليون دينار^(٢) ، ولكن أشار أحدهم
على السلطان ألا يفعل ذلك وقال : « فإن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك
وأخرجك من مصر فعدل الظاهر عن المشروع ولم يبعث مع الخليفة سوى ثلثمائة
فارس وجرّد السلطان الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى والأمير شمس الدين سنقر
الرومى إلى حلب وأمرهما بالمسير إلى نهر الفرات وأمرهما أيضاً إذا وصل إليهما
كتاب الخليفة بأن يسير أحدهما إليه . ثم ودع السلطان الخليفة وسافر المستنصر
بالله ومعه فرسانه ورجاله وذلك في الثالث عشر من ذى القعدة ٦٥٩ هـ / أكتوبر
١٢٦١ م ، وكان معه أولاد صاحب الموصل (أولاد الملك الرحيم بدر الدين
لؤلؤ وهم الملك الصالح إسماعيل والملك المجاهد سيف الدين والملك السعيد علاء
الدين^(٣)) .

وكان أحدهم هو الذى أشار على الظاهر بعدم تزويد الخليفة بجيش كبير
فساروا إلى بلادهم وتركوا الخليفة واستمال المستنصر بالله من مماليكهم نحو الستين
مملوكا ووصل الخليفة إلى الرحبة بشاطئ الفرات ، فوصل إليه الأمير يزيد
ابن على بن حذيفة من آل فضل وأخاه الأخرس ومعه أربعمائة فارس من العرب
ولحق بالخليفة من حماة الأمير عز الدين بن بركة ومعه ثلاثون فارساً ، ثم تقدم
الخليفة من الرحبة إلى مشهد على ثم إلى قائم عنقه بجانب الفرات ثم سار إلى
عانه^(٤) حيث كان هناك أمير ادعى أنه من الأسرة العباسية فأرسل الخليفة
المستنصر بالله إلى من كان مع الأمير من الفرسان التركمان واستألمهم إليه ففارقوا
الأمير العباسى وقدموا على المستنصر فأرسل الخليفة إلى الأمير العباسى يستدعيه

(١) الذيل ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٣٢ - ٣٣٥ ، المختصر ٢ ص ٢١٣ ، تمة المختصر ج ٢

ص ٢١٣ العبر ج ٥ ص ٣٨٢ .

(٣) Howorth , part 3 , p : 178.

(٤) بلدة مشهورة بين الرحبة وهبت وبها قلعة حصينة : مرصد الاطلاع ج ٢ = ص ٩١٢ .

إليه وأمنه على نفسه ورغبه في اجتماع الكلمة على إقامة الدولة والخلافة العباسية وتودد له في الخطاب حتى أجاب ، وقدم إليه واحترمه وصار المستنصر بالله إلى عانة كما ذكرنا ، وكان الأمير العباسي الحاكم بأمر الله لما نزل على عانة رفض أهلها تسليمها إليه وقالوا :

« قد بايع الملك الظاهر خليفة وهو واصل في نسلها إلا إليه »

فلما وصل المستنصر بالله إليها نزل إليها وكرّم الدين ناظرها وسلمهاها إليه فاقطعها للأمير اغليش أخ الأمير علم الدين سنجر الحلبي .

ثم سار إلى الحديث^(١) وأرسل كتاباً إلى السلطان الظاهر يخبره بتحركاته وأحواله - ثم فتح أهل الحديث المدينة للخليفة فدخلها وجعلها خاصة به ، ثم رحل عنها إلى هبت^(٢) ، علم فلما قرابغا مقدم جيش التتار بالعراق وبهادر على الخوارزمي شحنة بغداد بتحركات الخليفة . خرج قرابغا بخمسة آلاف فارس^(٣) . وسار إلى الأنبار^(٤) فدخلها قرابغا بقواته بعد أن هاجمها فجأة وقتل جميع من فيها ثم لحق بقرابغا بهادر على بمن بقي في بغداد من جيش المغول ، وكان المستنصر في ذلك في ذلك الوقت قد وصل إلى هبت وحاصرها لأن أهلها أغلقوا الأبواب دونه وبقي محاصراً لها حتى فتحها ودخلها في التاسع والعشرين من ذي القعدة ٥٦٥٩ / أكتوبر^(٥) ١٢٦١ م ثم رحل عنها إلى الدور ثم سير مقدمة عسكره تجاه الأنبار - فلما رأى قرابغا تقدم التتار - مقدمة جيش الخليفة أمر من معه من العساكر بالعبور إليها في المخاض والمراكب ليلاً ،

(١) وهي على بعد خمسة وثلاثين ميلاً أسفل من عانة وعرفت بحديثه النوره تمييزاً لها عن حديثه وجلة وفيها قلعة حصينة في وسط الفرات والماء يحيط بها ، أنشئت في أيام عمر بن الخطاب : بلدان الخلافة الشرقية ص ٨٩ .

(٢) بلدة على الفرات فوق الأنبار غرب الفرات : مرصد الاطلاع ج ٣ ص ١٤٦١ .

(٣) Howorth, part 3, p : 178.

(٤) وهي من نواحي بغداد على شاطئ الفرات وقيل إنها تبعد عشرة فراسخ عن بغداد بلدان الخلافة الشرقية ص ١٧ .

(٥) وهي سبعة مواضع من أرض العراق من نواحي بغداد : مرصد الاطلاع ج ٢ ص ٤٥٠،٥٣٩ .

ولحقت الهزيمة بالخليفة ووقع معظم عساكره في نهر الفرات ثم خرج كمين من التتار فلما رآه العسكر التركماني والأعراب هربوا وانهمزوا أحاط الكمين بعسكر المستنصر بالله واشتد القتال بين الطرفين واستبسل المسلمون ولكن لحقت بهم الهزيمة ، أما الخليفة فلم يعثر له على خبر فقبل إنه قتل في الواقعة وعنى ، وقيل إنه نجا بعد إصابته بجراح بالغة وحملته جماعة من العرب فمات عندهم ، وقيل سام وأضمته البلاد وحضر في نصف رجب ٦٦٠ هـ / يونية ١٢٦٢ م جماعة من مماليك الخليفة كانوا تأخروا في بغداد بعد قتل الخليفة المعتصم فأحسن إليهم السلطان^(١)

عودة السلطان الظاهر إلى مصر :

رتب السلطان أمور الشام وأحضر الأمراء من الأعراب ومنحهم الإقطاعات وألزمهم بحفظ الطرقات والمسالك إلى حدود العراق ، وجعل الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا أميراً على جميع العربان وفوض نيابة دمشق إلى الأمير علاء الدين طبرس الوزيرى ، وجعل قضاء الشام للقاضى شمس الدين أبى العباس أحمد ابن محمد إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان فجعله قاضياً من بلاد العريش إلى الفرات ، ثم خرج السلطان من دمشق ومعه الأمراء والعساكر والقاضى نجم الدين ابن سنى الدواة وساروا إلى مصر^(٢) .

وكان السلطان الظاهر قد جعل الأمير سنجر الحلبي نائباً على حلب بعد أن عفى عنه لثورته بدمشق إبان سلطنة الظاهر بيبرس وسير معه جماعة من الأمراء وحدد اختصاصاتهم^(٣) ولكن سنجر الحلبي ترك نيابة حلب وسار إلى دمشق فاستولى الأمير شمس الدين أقوش البرلى على حلب بعد خروج الحلبي منها إلى دمشق وبعث بالطاعة للسلطان الظاهر إلا أن الأخير طلب من البرلى الحضور إليه أولاً فلم يفعل وأعلى عصيانه ، وكان يؤيد البرلى المماليك العزيزية والناصرية فأرسل السلطان الظاهر

(١) الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ص ٤٩ . Howorth p 3, p 176 — 179 .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٦٥ والديل ج ١ ص ٤٦٠ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ .

العساكر لقتال البرلى بقيادة سيف الدين الرشيدى والأمير سنقر الرومى فرحل البرلى عن حلب بعد أن أقام بها حوالى أربعة أشهر ، ثم سار إلى البيرة وأخذها وسار إلى حران وأقام بها « وصار يقرب من حلب ويبعد عنها خوفاً من السلطان » (۱) .
 وولى السلطان على حلب بعد عودة الرشيدى وسنقر الرومى منها ولى عليها الأمير علاء الدين بندقدار وأقام بها حتى تركها لغلاء الأسعار وقلة الأوقات (۲) .

هجوم التتار على الموصل :

ولقد كان للاضطرابات التي تموج بها الموصل والانقسامات التي تعانها فرصة سانحة للمغول لمحاولة الاستيلاء عليها ومن ثم سار صندغون بعشرة آلاف فارس (۳) ، من جيش التتار إلى الموصل وحاصرها ، ولقد كان السبب في ذلك أن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ سار إلى مصر قبل ذلك مما أغضب أهل الموصل والحاكم المغولى المقيم بالموصل ، وكان ممن خرج لوداع الملك الصالح وقتذاك أحد قاداته واسمه علم الدين سنجر ، فلما رجع الأخير بعد وداعه للملك الصالح ، منعه حاكم التتار من دخول الموصل لأن البلاد كانت تحت سيطرة المغول - إلا أن علم الدين سنجر استطاع أن يدخل المدينة مع رجاله سرّاً ، فاضطر الحاكم المغولى أن يلجأ إلى القلعة بالمدينة هذا في الوقت الذي قام فيه علاء الدين سنجر بالتنكيل بالمسيحيين وهدم كنائسهم ، هذا في الوقت الذي كان الملك الصالح غائباً عن البلاد في مصر ووردت الأخبار أنه في طريق العودة ، فما علم التتار بعودته إلى بلاده حتى رفعوا الحصار عن الموصل ، واختفوا في مكان مجاور حتى دخل الملك الصالح إسماعيل الموصل فأعاد المغول الحصار للمدينة من جديد وحاصروا بها الصالح إسماعيل ونصبوا عليها ثلاثين منجنيقاً ترمى ليلاً ونهاراً (۴) ، وبدأ القتال من الداخل والخارج « فضايقوها أشد مضايقة ولم

(۱) السلوك ج ۱ ق ۲ ص ۴۶۵ ، ۴۶۶ ، تاريخ المغول ، ص ۱۱۴ .

(۲) السلوك ج ۱ ق ۲ ص ۴۶۳ ، النجوم الزاهرة ج ۷ ص ۱۱۴ .

(۳) Howorth part, 3, p, 181.

(۴) من حوادث الجامعة ص ۳۴۶ وذكر أن عدد المجانيق خمسة وعشرون :

Howorth, part B, p : 181.

يكن فيها سلاح يقاتلون به ولا قوت يمسك رمق من فيها^(١)» فاستنجد الملك الصالح بالأمير شمس الدين أقوش البرلى في حلب في الوقت الذي سير فيه أخويه إلى الملك الظاهر بيبرس ليسألاه نجدة أخيها واستجاب الظاهر لمطلبهم فسير جيشاً من مصر بقيادة الأمير شمس الدين سنقر الرومي ، وكان ذلك في رابع جمادى الأولى ٦٦٠ هـ / مارس ١٢٦٢ م ، وفي الوقت نفسه كتب الظاهر لصاحب دمشق ، بخروج جيشها لنجدة الصالح بقيادة الأمير علاء الدين الحاج طيبرس^(٢) . كذلك خرج شمس الدين البرلى متملك حلب على رأس قواته لإنجاد الملك الصالح إسماعيل حتى وصل إلى سنجار ، فلما علم التتار بقرب وصول النجدات للملك الصالح عزموا على ترك الحصار والهرب لولا وصول الزين الحافظي موقداً من هولاءكو وتشجيعه، ثم على استمرار الحصار وعرفهم أن عساكر البرلى قليلة وقال ، للتتار « والمصلحة أن تلاقوهم لثلاثي توصلوا بالعجز فيقطع فيكم . فسار صندغون ومعه العساكر لمقاتلة البرلى وقصد سنجار حيث يوجد البرلى » ومعه سبعمائة فارس غزاً وأربعمائة من التركمان ومائة من العرب ، فالتقى الجمعان يوم الأحد الرابع عشر من جمادى الآخرة ٦٦٠ هـ / مايو ١٢٦٢ م فانهزم البرلى وقتل معظم أصحابه ونجا البرلى في جماعة يسيرة من أصحابه من المماليك العزيزية والناصرية ، فوصلوا إلى البيرة حيث فارقه أكثرهم وساروا إلى مصر ، وما إن دخل البرلى البيرة حتى وصلت إليه رسل هولاءكو ومن بينهم ابن خال شمس الدين البرلى وزين الدين فزاجا الناصري الجدار وكان آخذاً سيراً من حلب - وطلبوا من البرلى المسير إلى هولاءكو ولكنه لم يفعل بل طلب الإذن من السلطان الظاهر بدخول الشام فأذن له وسار من البيرة في التاسع عشر من رمضان ٦٦٠ هـ / أغسطس ١٢٦٢ م ودخل مصر في أول ذي القعدة ٦٦٠ هـ / سبتمبر ١٢٦٢ م فأنعم عليه الظاهر بيبرس وأكرمه بالمال والخلع .

أما عن صندغون بعد انتصاره على البرلى فعاد إلى الموصل ومعه الأسرى ، فأدخلهم من النقوب إلى داخل المدينة ليخبروا الملك الصالح بهزيمة البرلى الذي

(١) الذيل ج ١ ص ٤٩٢ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٦٨ .

فأرسل قائد التتار صندغون إلى الملك الصالح بعده ، بالوعود الحسنة فاستجاب لذلك « وبطل القتال وقعدوا قعوداً ، إلا أن صندغون نكث بوعوده ، وهي عادة جاء لنجدته ، في الوقت نفسه شدد الحصار على المدينة حتى قلت الأوقات بها التتار فبعد أن فتحت أبواب المدينة في السادس والعشرين من شعبان ٦٦٠ هـ / يوليو ١٢٦٢ م . أي بعد تسعة أشهر^(١) من الحصار دخل التتار المدينة وسبوا ونهبوا أهلها واستباحوا المدينة أكثر من أسبوع^(٢) .

وفي أواخر شوال عام ٦٦٠ هـ / سبتمبر ١٢٦٢ م عاد المغول إلى بلادهم ، وصحبهم الملك الصالح الذي قتل في الطريق قبل أن يصل إلى هولوكو كما ذكر المقرئ في كتابه .

علاقة السلطان الظاهر مع بركة خان :

وكان إسلام بركة خان ملك المغول الذين يعيشون حول نهر الفولجا والذين عرفوا باسم مغول العراق أو القبيلة الذهبية ، ووقوع العداوة والحرب بين بركة وبين هولوكو - فرصة مناسبة للظاهر بيبرس رأى استغلالها لأجل مصلحة البلاد ومن ثم دارت مكاتبات بينه وبين بركة خان حول إقامة تحالف فيما بينهما . فيضعف قوة المغول ويزداد قوة بمحالفته للملك بركة خان ملك مغول القبيلة الذهبية . أما عن أسباب الخلاف بين بركة خان وابن عمه هولوكو فكثيرة منها اعتناق بركة خان للإسلام منذ حدثته ، أما هولوكو فبقى على دين التتار ، وقد استاء هولوكو من تدخل بركة خان وتحكمه في شئون الملك ، وكان هولوكو يكن في قلبه حقداً وكرهية شديدة لبركة خان ، ولكنه أظهر ذلك العداء فجأة وقال هولوكو معبراً عن ذلك : « ولو أنه - بركة - كبير الأسرة وسيدها إلا أنه لا يرعى الحياء والحجل ويخاطبني بتهديد وعنف وإني لن أحابه بعد هذا^(٣) ، فلما علم بركة خان بغضب هولوكو قال هو الآخر : إنه قد دمر جميع مدن المسلمين

(١) ذكر أن مدة الحصار اثنا عشر شهراً : الحوادث الجامعة ص ٣٤٥ وذكر أيضاً أنها ستة

أشهر . . Howorth, part 3, p : 181.

(٢) دول الإسلام ج ٢ ص ١٢٨ ، تاريخ الخميس ج ٢ ص ٤٢٣ .

(٣) جامع التواريخ ج ٢ ص ٣٣٢ . (٤) جامع التواريخ ج ٢ ص ٣٣٢ .

وقضى على أسر ملوك الإسلام جميعهم ولم يميز بين الصديق والعدو وأعدم الخليفة دون مشورة كبار الأسرة ، فلو أمدنى الله تعالى لطالبتة بدماء الأبرياء « ، وجرى بين الطرفين قتال شديد ^(١) يضاف إلى ما تقدم سبب جوهرى هو مطالبة بركة خان بنصيبه مما فتحه هولاءكو من البلاد وأخذ من الأموال وذلك على ما جرت عليه عادة ملوك التتار ، إلا أن هولاءكو قتل رسل بركة خان فاشتد غضب الملك بركة خان فكاتب السلطان الظاهر بيبرس « ليتفقا على هولاءكو ^(٢) ، ومن العوامل التى وسعت هوة الخلاف بين بركة خان وهولاءكو ، أن بركة لم يرض بما فعله هولاءكو ببلاد المسلمين وعنفه لقتل الخليفة المستعصم ، ومنها أيضاً أن تأسيس دولة هولاءكو بفارس لم يعجب بركة خان ولا سبياً بعد إدماج بلاد أران وأذربيجان داخل حدودها مع أنهما كنتا من إرث جوشى والد بركة خان حسب وصيته جنكيزخان ، ولعل من أسباب نشأة العداوة بينهما أيضاً ما قاله ابن أبى الفضائل : إن عدم مظاهر بركة خان للخان الأعظم قوبيلاي وانتصاره لأخ صغير اسمه أريقابوقا ، واعترف بركة بهذا الأخ الصغير خاناً أعظم على جميع بلاد التتار ، مما أغضب قوبيلاي وهولاءكو ويضيف ابن أبى الفضائل سبباً آخر للعداوة بينهما هو أن هولاءكو كان منذ أن أصبح بركة خان ملكاً على مغول القفجاق (القبشاق) قد منع عن ذلك الفرع المغولى نصيبه المعتاد من مغنم الحروب فقد ورد من عند بركة خان رسولان إلى هولاءكو وذلك فى عام ٥٦٦٠ / ١٢٦٢م أحدهما يسمى بلاغيا ولآخر ططر شاه ومعها رسالة ضمنها ما جرت به العادة من إعطاء بيت باتوخان نصيبهم من فتوح البلاد وغنائم الحرب ، وكانت العادة أن يجمع التتار الغنائم التى يملكونها فى البلاد المفتوحة ابتداء من نهر جيحون فى الشرق إلى ما تصلى إليه فتوحاتهم ناحية الغرب ، فكانت تقسم خمسة أقسام قسمان للقان الأكبر ،^٣ وقسمان للعسكر وقسم لبيت باتوخان الذى يعتبر بركة خان وريثه ، فلما مات باتوخان وجلس بركة خان على تخت مغول الشال (القفجاق) منع هولاءكو نصيبه ، ثم وقع الصدام المسلح بينهما ودارت معارك دامية بين جيوشهم ، والسبب

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢٤ .

في ذلك أن الملك التتار منكوقا أن توفى فخلفه في الملك أخوه الأصغر أريقابوقا ، وكان الأخ قوبيلاي غائبا بالهند فأنف من ذلك وجمع عساكره وسار إلى أخيه وتقاتلا فمد بركة خان يد العون للأخ الأصغر كما أشرنا . وكسروا عسكر قوبيلاي وكان ذلك في عام ٦٥٨هـ ١٢٦٠م ، واستمرت المعارك بينهما لمدة طويلة ، وكانت تلك الحروب سبباً في عودة هولاكو خان إلى الشرق وترك قيادة الجيش المغولي للمقدم كتبغا ، وكان قصد هولاكو من ذلك تأييد قوبيلاي ضد بركة خان وأريقابوقا ، وما لا شك فيه أن هولاكو كانت تحذوه أطماع كبيرة وهي الاستيلاء على كرسي العرش المغولي ، ومن ثم جمع قواته وسار لمحاربة بركة خان والتقى الفريقان في ناحية شروان ، فقتل من الفريقين خلق عظيم وانكسر دولاكو هرب إلى قلعة تلا^(١) في وسط بحيرة أذربيجان فدخلها وقطع الطريق إليها فبقي « كالمحبوس وقتل ابن هولاكو في هذه الحرب ، وكان لاختلاف التتار ظاهران أولهما التنافس الشديد بين مغول القبياة الذهبية - القفجاق - ومغول فارس وثانيهما تهديد مغول المسلمين في الشام ومصر بعد أن أخذوا العراق ، وكان من نتائج هذا التنافس بين دواتي المغول أن تقارب مغول القفجاق مع سلاطين المماليك في مصر والشام للوقوف في وجه العدو المشترك - مغول فارس - وكان من ثمار هذه الحرب أن اضطرت بلاد التتار وأحوالهم ، وانشغلوا بأنفسهم وهرب كثير منهم إلى بلاد الإسلام مستأمنين ، وكانت قد خرجت الكشافة الإسلامية لاستطلاع أخبار العدو ، فعثروا على جماعة من المستأمنين ، فلما علم الظاهر بهم كتب إلى النواب ببلاد الشام بإكرام الوافدين والإحسان إليهم وتقديم المساعدات لهم وكل ما يحتاجون إليه » وصيرت إليهم الخلع والإنعامات والسكر ونحوه وساروا إلى مصر فخرج الظاهر لاستقبالهم في السادس والعشرين من ذي الحجة ٦٦٠هـ نوفمبر ١٢٦٢م ولم يتأخر أحد من مشاهدتهم فتلّفهم وأنزلهم في دور بنيت لهم في اللوق ، وأكرم وفادتهم وقدم إليهم الخيول والأموال والخلع وأمر السلطان أكابره ونزل باقيهم في جملة المماليك البحرية » وكانوا مائتي فارس بأهاليهم فحسنت حالهم ودخلوا في الإسلام ويصف المقريزي حال هؤلاء التتار في مصر واهتمام السلطان بهم قائلاً : « فأعطى

(١) وهي بحيرة أرمية وفيها قلعة حصينة على جبل وبها مدافن دولاكو وغيره من أمراء المغول ، بلدان الخلافة الشرقية : ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

السلطان كبراءهم أمريات فمنهم من عمله أمير مائة ونهمدون ذلك ، ونزل بقيتهم من جملة البحرية وصار كل منهم من سعة الحال كالأمير في خدمته الأجناد والغلمان وأفرد لهم عدة جهات برسم مرتبهم وكثرت نعمهم وتظاهروا بدين الإسلام فلما بلغ التتار ما فعله السلطان مع هؤلاء وقدم عليه منهم جماعة وهو يقاسهلم بمزيد الإحسان فتكاثروا بديار مصر ، وتزايدت العمائر باللوق وما حوله وفي سادس من ذى الحجة سنة ٦٦١ هـ / أكتوبر ١٢٦٣ م قدم من التتار زيادة على ألف وثلثمائة فارس فأنزلوا في مساكن عمرت لهم باللوق بأهليهم وأولادهم وجهاز السلطان الظاهر وفداً إلى بركة خان بضم الفقيه مجد الدين الزوراوى والأمير سيف الدين كش تك ، ومعهما من التتار كانوا وصلوا من بلاد بركة خان وكتب معهما رسالة إلى بركة خان تتضمن أحوال الإسلام ومبايعة الخليفة العباسى بالقاهرة وإحياء الخلافة ثم استمالة بركة خان وحثه على الجهاد ثم وصفاً لعساكر المسلمين وكثرة عددهم وتعدد أجناسهم وما فيها من عشائر وتركان وأكراد ومن وافقها وهادها وأنها كلها سامعة مطيعة لإشارته إلى غير ذلك من الإغراء بقتال هولاء كو والتقليل من شأنه ومكانته وتقبيح فعله في بلاد المسلمين ، وجهاز الظاهر معهما نسخة الخليفة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم « وأذهبت وكتب فيها الأسجال بشبوتها » ، ثم جمع الظاهر الأمراء ورجال دولته وقرئت عليهم الكتب المرساة إلى بركة ثم صالحت للرسول وسير معهما اثنان من التتار أصحاب الملك بركة ليعرفاهما على الطريق ، وتوجهوا إلى بلاد بركة في المحرم « ٦٦١ هـ / نوفمبر ١٢٦٢ م . فساروا بالبحر من بلاد بيزنطة فقام بخدمتهم صاحب البلاد وحدث أن صادف وصول رسل بركة خان إلى إمبراطور بيزنطة وهم الأمير جلال الدين والشيخ نور الدين على : فسار رسل الظاهر مع هؤلاء الرسل إلى بلاد بركة خان وعاد الفقيه مجد الدين لمرض أصابه ومعه كتاب من إمبراطور بيزنطة يتضمن مسير الأمير سيف الدين وأصحابه إلى بلاد بركة خان .

اضطراب بلاد الشام :

أشرنا إلى أن المغول هاجموا الموصل وحاصروها تسعة أشهر وفتحوها بخدعة عسكرية ثم قتلوا أهل المدينة بعد أن استباحوها أسبوعاً كاملاً ، وقتلوا صاحبها الملك

الصالح إسماعيل وولده ، هذا بالإضافة إلى تحركات القوات المغولية في الشرق ومسيرها من مكان لآخر ، مما أدى إلى اضطراب بلاد الشام لكثرة ما سمع الناس عن التتار وتحركاتهم ، لوصل الكثير من الوافدين منهم إلى ديار الإسلام ، لعل هذه الأحداث هي سبب اضطراب بلاد الشام وتوقع الناس لوصول العدو فعم الخوف والقلق البلاد فكتب السلطان الظاهر بأمر أهل الشام بالرحيل إلى مصر مع إعفائهم من الضرائب والزكاة وأمر ألا يتعرض لما معهم من متاجر ومتاع وذلك حفظاً على الأمن وحياة الناس ، ثم أرسل الظاهر إلى حلب يأمر بحرق الأعشاب في جهة الشرق وحلب التي سيهاجمها العدو ، فسارت جماعة إلى بلاد آمد وغيرها وحرقوا الأعشاب التي كانت بالمروج « فعمت النار مسيرة عشرة أيام حتى صارت كلها رماداً ، ثم امتد الحريق حتى وصل إلى بلاد خلاط ، وقطعت السنايل قبل نضوجها لئلا يستفيد منها العدو ، وهذه خطة عسكرية يقصد بها إضعاف العدو وعدم إتاحة الفرصة له بالتزود بالأغذية والأعلاف من بلاد الإسلام ، وما إن انتصف شهر رمضان ٦٦٠ هـ / أغسطس ١٢٦٢ م ، حتى اضطربت دمشق خوفاً من التتار وشرع الناس في الرحيل إلى مصر « وباع الأمراء حواصلهم حتى حواصل القلعة وتهيئوا للهرب « وارتفعت أجور دواب الانتقال « وكان البدوي يجاب الحمل ويبيعه بأضعاف قيمته ويشترى به الغلة الرخيصة ، لأن الناس بين خائف يبيع حاصلة ليتجهز به « ، هذا في حين أن إلحاح علاء الدين طيبرس نائب دمشق قد ألزم أهل دمشق بالرحيل إلى مصر وأمر أكابر البلد بترحيل عائلاتهم وأولادهم وأنفسهم إلى مصر ، ولكن ما لبثت بلاد الشام أن هدأت وزال خوف الناس حيث وردت الأخبار بوقوع الخلاف بين المغول أنفسهم وهزيمة هولاء في حربه مع ابن عمه بركة خان فهدأت الأحوال ووصلت إلى الشام فرقة من الجيش المصري بقيادة الأمير عز الدين الدمياطي ، فاطمأنت النفوس ، وألقي القبض على علاء الدين طيبرس نائب دمشق لإيذائه للناس وإكراههم على الرحيل من دمشق إلى مصر .

اتفاق السلطان الظاهر مع صاحب بلاد الروم :

قدم الأمير شرف الدين الجاكي والشريف عماد الدين الهاشمي من بلاد الروم ومعهم رسل سلطان الروم عز الدين كيكائوس بن كيخسرو ، أما الرسل فهم الأمير

ناصر الدين نصر الله بن كوح رسلان أمير حاجب، والصدر صدر الدين الأخلاطي ويحملون كتاباً منه إلى السلطان الظاهر متضمناً أنه نزل عن نصف بلاده للسلطان وسير دروجا^(١)، بما يقطع في البلاد لمن يختاره السلطان ويؤمره « وطلب من السلطان الظاهر أن يكتب له منشوراً فأكرم الظاهر هؤلاء الرسل وشرع في تجهيز جيش نجدة لصاحب الروم، وأمر بكتابة المناشير، وعين السلطان الظاهر الأمير ناصر الدين أعلش السلاح دار، الصالحى مقدماً لثلاثمائة فارس وأقطعه إقطاعاً ببلاد الروم منه آمد وبلادها، ثم لم يلبث السلطان الظاهر حتى وصله كتاب من سلطان الروم بأن هولاء كولو لما علم باتفاق الروم مع السلطان الظاهر « خاف من هيئته وولى هارباً » . .

اعتقال الملك المغيث عمر صاحب الكرك :

خرج السلطان الظاهر من القاهرة وتوجه إلى الشام ووصل إلى غزة، فوصلت إليه والدة الملك المغيث صاحب الكرك تشفع لولدها عند الظاهر فأقبل عليها السلطان وأكرمها وطمأنها على ولدها وأذن لها في العودة إلى ولدها فعادت ثم أرسل الظاهر الرسل إلى المغيث يطلب قدومه عليه وكان المغيث يسوف في الأمر خوفاً من الظاهر وانتهى به الحال أن مثل بين يدي السلطان الظاهر^(٢)، فاستقبله الظاهر في السادس والعشرين من جمادى الأولى ٦٦١ هـ / أبريل ١٢٦٣ م، ثم أفرد في خيمة خاصة وقبض عليه وبعث به إلى قلعة القاهرة صحبة الأمير شمس الدين آق سنقر الفارفاني السلحدار فوصلها ليلة الأحد الخامس عشر من جمادى الآخرة ٦٦١ هـ / أبريل ١٢٦٣ م فكان آخر العهد بالملك المغيث^(٣)، ولاحظ الظاهر استياء بعض الأمراء بسبب القبض على المغيث^(٤)، فجمع الأمراء وأظهر لهم وسائل الملك المغيث إلى التار يحرضهم فيها على قصد البلاد، وأطلعهم على كتب التار إليه التي حوت شكر هولاء كولو وبذل الوعود فقال له « قد أقطعتك من بصرى^(٥) إلى

(١) جمع درج وهو الورق المستطيل المركب من عدة أوصال وهو عبارة عن عشرين ورقة متلاصقة :

السلوك ج ١ ق ٣ ص ٤٧٠ حاشية ٢ .

(٢) Howorth part 3 : p 201 .

(٣) وهما موضعان إحداهما بالشام وهي التي وصل إليها النبي صلى الله عليه وسلم للتجارة وهي في

كورة حوران، والأخرى من قرى بغداد : مرصد الاطلاع ج ١ ص ٢٠١ .

غزة وقد عرفت ما أشرت إليه من طلب عشرين ألف فارس تسيرها تفتح بها مصر ، ووعده هولاكو بإرسال هذه القوات إليه ويوصيه بعدة أمور ، ثم أخرج الظاهر فتاوى الفقهاء بخيانة الملك المغيث ووجوب معاقبته وأحضر الرسل الذين كانوا يحملون الرسائل إليه ومنه إلى التتار ، واعترفوا بذلك ، وتسلم السلطان الظاهر الكرك يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الآخرة ٦٦١ هـ / مايو ١٢٦٣ م ، ثم سار إلى مصر ومعه أولاد وحریم الملك المغيث ، فلما وصل مصر أمر ولد الملك المغيث على مائة فارس (وهو العزيز عثمان بن الملك المغيث عمر) ، وكان وصول الظاهر إلى مصر في السادس عشر من رجب ٦٦١ هـ / مايو ١٢٦٣ م .

تحالف الظاهر مع بركة خان :

وفي الحادى عشر من رجب سنة ٦٦١ هـ / مايو ١٢٦٣ م وصل إلى القاهرة رسولان أوفدهما الملك بركة خان أحدهما جلال الدين قاضى دوقات والآخر الشيخ على التركمانى ^(١) وكان وصولهما إلى الإسكندرية بطريق البحر بعد أن مر ببلاد الدولة البيزنطية ، وكان مضمون هذه الرسالة : « أنت تعلم أنى محب لهذا الدين وأن هذا العدو يعنى هولاكو قد تعدى على المسلمين واستولى على بلادهم ، وقد رأيت أن تقصده من جهتك وأقصده من جهتى ونصدمة صدمه واحدة فنقتله أو نظرده عن البلاد ومتى كانت واحدة من هاتين أعطيتك ما كان فى يده من البلاد التى استولى عليها ^(٢) ، وذكر بركة خان فى رسالته أنه قام وإخوته الأربعة بمحاربة هولاكو من جميع الجهات لإقامة شريعة الإسلام ، وأنه أخذ بثأر الأئمة والأمة ، وأنه أقام الأذان والصلاة والقراءة فى بلاده ^(٣) ، فاستجاب الظاهر لطلبات بركة خان وأخذ فى تجهيز الرسل إليه فصاروا من القاهرة فى شهر رمضان ٦٦١ هـ / يوليو ١٢٦٣ م ، وبعث معهم الظاهر عماد الدين عبد الرحيم الهاشمى العباسى والأمير فارس الدين أقوش المسعودى ومعهم هدابا ثمينة ^(٤) ، وتضمنت رسالة السلطان الظاهر أيضاً

(١) ورد اسمه فى الروض الزاهر ص ٨١ على النحو الآتى : الشيخ نور الدين على .

(٢) الروض الزاهر ص ٨١ الذيل ج ١ ص ٥٨٤ ، الذيل ج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥ وتلفيق الأخبار

ص ٤٣٥ .

(٣) الروض الزاهر ص ٨١ ، تلفيق الأخبار ص ٤٢٧ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٩٧ حاشية ٣ ، الذيل ج ٢ ص ١٩٧ .

الدخول في الطاعة وطلب المعاوضة على هولاكو على أن يكون للظاهر من البلاد التي
 قترع من هولاكو مما يلي الشام ، فلما وصل هؤلاء الرسل إلى القسطنطينية وجدوا
 صاحبها «الباسلوس كرميخائيل غائباً في حرب مع الفرنج ، فلما علم بقدمهم
 أحضرهم إليه «فصاروا إليه عشرين يوماً في عمارة متصلة» واجتمعوا به في قلعة
 أكشانا فأحسن استقبالهم ووعدهم بالمساعدة ، ووجدوا عنده رسلا من هولاكو
 فاعتذر صاحب القسطنطينية للرسل عن تأخيرهم خوفاً من إطلاع هولاكو على
 ما وصلوا من أجله ، ثم أمرهم بالعودة إلى القسطنطينية والمقام بها حتى يعود ويجهزهم إلى
 الملك بركة خان ، ولكنه استمر يسوف لهم « ولم يزل يمتطهم سنة وثلاثة أشهر^(١) »
 « فبعثوا إليه » إن لم يمكنك المساعدة على توجهنا فلتأذن في الرجوع « فأذن للسيد
 عماد الدين بمفرده واعتذر لهم عن تأخيرهم لكونه بعيداً عن بلاده ويخشى من مهاجمة
 هولاكو لبلاده ، ويبدو أن صاحب القسطنطينية كان يخشى هولاكو وانتقاض
 الصلح معه فيهاجم بلاده إذا ما علم بمساعدته أرسل صاحب مصر وبركة خان اللذان
 هما في حالة حرب وعداء شديد معه ، وعاد عماد الدين وتأخر الأمير فارس الدين
 أقوش المسعودي مدة سنتين^(٢) ، ونتيجة لتأخير الرسل في بيزنطة سارت جيوش
 الملك بركة خان ، وهاجمت أطراف بيزنطة وهرب الباسلوس من القلعة التي كان بها
 إلى القسطنطينية وأرسل الأمير فارس الدين إلى مقدم جيش بركة خان ليخبره أن
 البلاد البيزنطية في عهد الملك الظاهر وصالحه ، وأن بركة في صلح من صالحه وعهد
 من عاهده ، فطلب مقدم جيش بركة من الباسلوس أن يكتب له مرسوماً بذلك
 فكتب أيضاً أنه لن يقوم بتأخير الرسل فرحل عسكر بركة بعد أن أخذوا معهم السلطان
 عز الدين كيكائوس وكان محبوساً في قلعة من قلاع القسطنطينية فأخرجوه منها ثم
 بعث الباسلوس الأمير فارس الدين إلى بركة بعد أن جهزه وبعث معه رسولا من جهته
 برسالة ضمنها أن يقرر على نفسه ما يحمله كل سنة ثلثمائة ثوب أطلس على أن يكون
 معاهداً ومصالحاً له مدافعاً عن بلاده ، فسار فارس الدين إلى بركة ، فلما وصل
 إليه سأله بركة عن سبب تأخره وهلاك معظم ما معه ، فاعتذر عن ذلك بسبب منع

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٩٧ حاشية ٤ والروض الزاهر ص ٨٣ والذيل ج ٢ ص ١٩٧ .

(٢) الذيل ج ١ ص ٥٣٧ ، ٥٣٨ والذيل ج ٢ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

صاحب القسطنطينية له وأخرج خطاباً بما كتبه الباسلوس لمقدم عسكر بركة خان ثم قال بركة إلى فارس الدين : أنا ما أؤاخذك لأجل الملك الظاهر وهو أول من يؤاخذك على كذبك وإفساد ما بعثه معك « وكتب السلطان عز الدين كيكائوس رسالة إلى الملك الظاهر يخبره بإهمال فارس الدين وتقصيره ولأنه كان سبياً في رحيل عسكر بركة خان عن بلاد صاحب القسطنطينية لما أوهمه من أن البلاد في عهد السلطان بيبرس ، وكان جيش بركة قادراً على أن يأخذ منه في مقابل عودته عنه قيمة ما فسد من الهدية ، فلما عاد فارس الدين واجتمع به الظاهر ، نقم عليه وأخذ ما معه من البضائع ما قيمته أربعون ألف دينار وقبض عليه ، وكان وصوله في جمادى الآخرة عام ٦٦٥ هـ / مارس ١٢٦٧ م .

وصول جماعات من التتار إلى بلاد الإسلام :

كان من نتيجة اختلاف التتار وقاتل بركة خان لابن عمه هولاكو ، أن اضطربت بلادهم وكثر هروب جماعات المغول إلى بلاد الشام المجاورة لهم بحثاً عن النجاة وذلك راجع إلى ما سمعوه عن معاملة السلطان الظاهر لهؤلاء الوافدين من استقبال وإكرام وإنعام مما جذب الوافدين وزاد عددهم ، فوصلت طائفة من التتار مستأمنين في شهر ذي القعدة ٦٦١ هـ / سبتمبر ١٢٦٣ م عدتها فوق الألف وثلثمائة فارس من المغول ، فلما علم السلطان بهم كتب إلى نوابه بحسن استقبالهم والإحسان إليهم ، ووصلت هذه الطائفة إلى مصر في شهر ذي الحجة ٦٦١ هـ / أكتوبر ١٢٦٣ م فركب السلطان الظاهر واستقبلهم ، فلما رأوه نزلوا عن خيولهم وقبلوا الأرض بين يديه فأكرمهم وعادوا إلى القلعة ثم خلع عليهم ، ثم جاءت طائفة أخرى من المغول فاحتفل بهم السلطان واستقبلهم وجاءت طائفة ثالثة فأكرم وفادتهم « وأمر أكابره وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وختنوا بأجمعهم .

تحالف ملك الأرمن مع التتار :

يقصد ببلاد الأرمن أرمينيا الصغرى وكان ملكها هيثوم قد انضم إلى هولاكو رغبة منه في حماية مملكته من السلاجقة الروم بالشمال وحماية لها من دولة المماليك من الجنوب ، وصارت تلك المملكة الأرمينية تابعة للتتار بحكم هذه المحالفة ، ففي شهر ربيع الآخر ٦٦٢ هـ / فبراير ١٢٦٤ م وردت الأخبار بأن

هيثوم ملك الأرمن قد جمع جيشاً وسار إلى هرقله^(١) ونزل على قلعة صرفند^(٢) فأرسل السلطان الظاهر البريد إلى حماة وحمص بخروج عساكرهم إلى حلب فساروا إليها وأغاروا على عسكر الأرمن وقتلوا ثلاثين نفرًا وأسروا جماعة فانهزم الأرمن وطلبوا النجدة من حلفائهم التتار فتقدم من كان من التتار ببلاد الروم وهم سبعمائة فارس ، وطاب ملك الأرمن نجدة من أنطاكية الصليبية فساعدوه بمائة وخمسين فارساً ولبس الجميع ملابساً تشبه ملابس التتار واجتمع هؤلاء والتتار وساروا لمحاربة المسلمين ، فلما وصاوا إلى حارم عاقبهم الثلج والبرد عن التقدم فهلك كثير منهم وعادوا من حيث جاءوا ، وبدأت الاستعدادات العسكرية لمواجهة الأرمن والتتار في جمادى الأولى ٦٦٢ هـ / مارس ١٢٦٤ م ، ذلك أن ملك الأرمن هيثوم جمع جيشه مرة ثانية وألبسهم ملابس الجند المغول ليوهم المسلمين أن نجدة التتار قد وصلت إليه ، ولهذا كانت القوات الإسلامية اجتمعت فسارت من مصر إلى الشام بقيادة الأمير سيف الدين بلبان الزينى وذلك للقيام بتجهيز القلاع واستعراض جيش حماه وحلب ورجال الثغور ، ثم إلزام الأمراء « بتكميل العدد والعدة وإزاحة الأعذار بسبب الجهاد » .

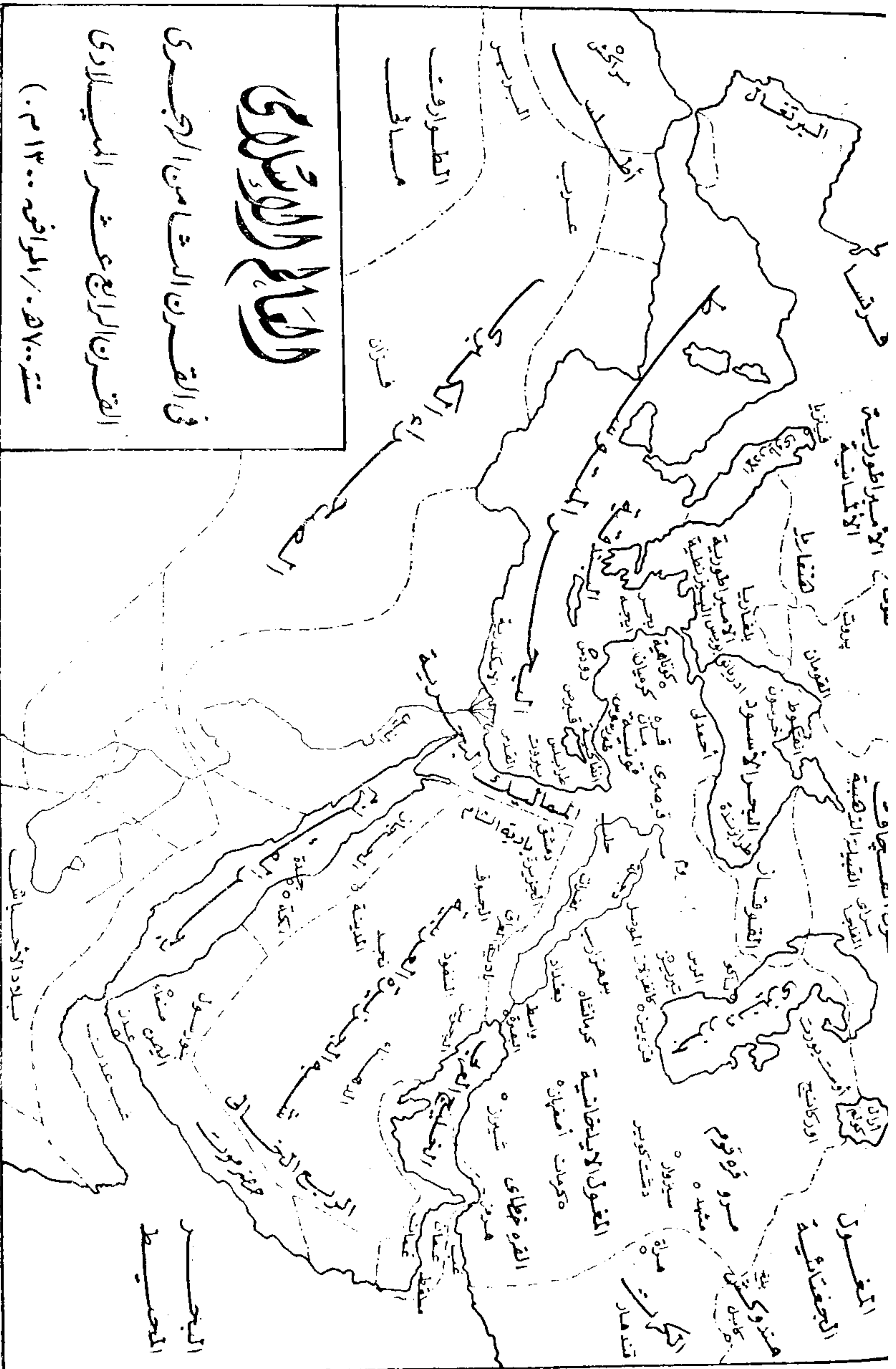
ولما كانت البيرة من الحصون الأمامية وتعتبر خط دفاع أول للمسلمين ، رأى الظاهر أنه لا بد من تقوية أسوارها وتدعيمها بالمجانيق في حالة تسمح لها بالصمود لحصار طويل ، هذا في الوقت الذي كان فيه الأعراب من عرب خفاجة قد أغاروا على التتار حتى وصلت غاراتهم إلى أبواب بغداد^(٣) وفي شهر جمادى الآخرة ألتى القبض على جاسوسين من التتار وفي تلك الآونة كان هيثوم ملك الأرمن ينظم أموره وعمد إلى خدعة بقصد إيهام المسلمين بأن هناك قوة آتية لنجدة التتار وعلى هذا أعد ألف قباء تترى وألف سراقوج^(٤) وذلك لتنفيذ خدعته ، فلما علم السلطان الناصر بذلك أمر بخروج الجيش من دمشق إلى

(١) هرقله : مدينة ببلاد الروم فتحها الرشيد وهي حصن غربي الفرات : مرصد الاطلاع ج ٢ ص ١٤٥٦ . . .

(٢) صرفند : قرية من قرى صور بساحل الشام : مرصد الاطلاع ج ٢ ص ٨٢٨ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥١١ .

(٤) وهي قلنسوة تترية وجمعها سراقوجات : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥١١ حاشية ٣ .



البلاد الرومانية
 في القرن الثامن الهجري
 القرن الرابع عشر الميلادي
 سنة ٥٧٠ هـ / الموافق ١٣٠٠ م

حمص وكذلك عسكر حماه وعربان الشام وتحركت كل هذه القوات وأغارت على الأرمن من كل جهة فشتت شملهم وولوا الأدبار لا يلوون على شيء هذا في الوقت الذي واصل فيه المسلمون غاراتهم إلى أنطاكية ، ثم أغاروا بعد ذلك على بلاد الساحل التي كانت في يد الفرنج حتى وصلوا إلى أبواب عكا .

سياسة الظاهر مع الوافدين من بلاد التتار :

ولما كان الجيش وقوته هما الدعامة الأساسية للحفاظ على الدولة الإسلامية والدود عن حياضها ، فإن الظاهر أبدى اهتماماً كبيراً بشئون الجيش والاستعداد للجهاد واليقظة التامة الدائمة ، وإعلان حالة الطوارئ ، وذلك لعلمه بوجود عدوين يريدان تحطيم دولة المماليك والإسلام والمسلمين وهما الفرنجة والمغول . وفي شهر شعبان ٦٦٢ هـ / يونية ١٢٦٤ م أمر السلطان الظاهر الأمراء والعساكر جميعاً بالتسلح وشراء الأسلحة وصنع المعدات اللازمة للقتال ، ومن ثم ازدحمت الأسواق الخاصة بالأسلحة بالجنود وبالتالي ارتفعت أسعار الحديد لكثرة الطلب وأيضاً زاد أجر الحدادين وصناع آلات السلاح « ولم يبق لأحد شغل إلا ذلك حتى صار العسكر لا ينفق متحصله في شيء سوى السلاح » ، وأخذوا في التدريب على فنون القتال والفروسية^(١) .

وفي هذه الآونة علم السلطان الظاهر بقدم جماعة من التتار والأتراك والبغاددة مستأمنين إلا أن الشك ساور الظاهر تجاههم نتيجة لازدياد تدفق الوافدين منهم ، وظن أنها سياسة مرسومة من العدو ولا بد له من أن يأخذ حذره ومن ثم جمع الظاهر الأمراء وأهل الرأي والمشورة وأخبرهم برأيهم وقال : « أخشى أن يكون في مجيئهم من كل جهة ما يستراب منه والرأي أن نخرج إليهم ، فإن كانوا طائعين عاملناهم بما ينبغي وإلا فنكون على أهبة ، ومن احتاج من العسكر إلى شيء أعطيته ، وما أنا إلا كأحدكم يكفيني فرس واحد ، وجميع ما عندي من خيل وجمال ومال كله لكم يجاهد في سبيل الله » ، فاستقر رأي الأمراء على الخروج للقائهم ولكنهم في الوقت نفسه أشاروا على الظاهر ببيرس أن يوصى بسلطنة ولده الملك

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥١٢ .

السعيد وجعله ولياً للعهد لينوب عن والده أثناء غيابه للجهاد خارج مصر ، ووافق الملك الظاهر على هذا الرأي ، وفي يوم الخميس الثالث عشر من شوال ٦٦٢ هـ / أغسطس ١٢٦٤ (١) ، ألبس الملك السعيد شعار السلطنة وركب في موكب عظيم وزينت القاهرة أحسن زينة وسار حتى مر بباب النصر ثم عاد إلى القلعة وكتب تقليداً للملك السعيد بتفويض عهد السلطنة له . (٢) أما السلطان الظاهر فما زال يتأهب ويستعرض العساكر والأسلحة وآلات الحرب ، وقدمت أيضاً طائفة أخرى من جهة التتار مستأمنة ، فأرسل الظاهر إلى عرب خفاجة في الشرق بخدمتهم والإحسان إليهم ، حتى يضمن عيونهم ويكونوا له عيوناً على التتار وتحركاتهم .

مهاجمة التتار للبيرة :

ولقد صدق حدس الظاهر في شكه في أن التتار يضمرون شرّاً من وراء تحركاتهم تلك ، إذا وصل إلى علم السلطان الظاهر بنزول التتار على البيرة ومحاصرتهم لها ومن ثم أرسل الأمير بدر الدين الخازندار على الفور إلى بلاد الشام ليخرج بأربعة آلاف فارس لقتال العدو ، وعين الأمير عز الدين ايسغان المعروف باسم سم الموت مقدماً على الجيش ومعه الأمراء فخر الدين الحمصي والأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى والأمير علاء الدين كشتفدى الشمسى وعدة من الأمراء مع أربعة آلاف فارس ، وخرجوا من القاهرة في الرابع من شهر ربيع الأول ٦٦٣ هـ / ديسمبر ١٢٦٤ م ، ثم سارت فرقة ثانية عدتها أربعة آلاف فارس أخرى بقيادة الأمير جمال الدين المحمدي والأمير جمال الدين ايدغدى الحاجبي ، وكان مسيرهم في اليوم التالي لخروج الفرقة الأولى ، واجتمعوا خارج القاهرة ثم ساروا إلى الشام في العاشر من ربيع الأول ٦٦٣ هـ / يناير ١٢٦٥ م (٣) ، ثم طلب الظاهر من صاحبي حماة وحلب التحرك بقواتهما ، فسارت جميع هذه القوات

(١) الروض الزاهر ص ١٠٥ - ١٠٦ ، ولكن ذكر في الذيل على مرآة الزمان ج ٢ ص ٣٢٢ أن ذلك في ثاني عشر شوال ٦٦٣ هـ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥١٥ - ٥١٦ ، الروض الزاهر ص ١٠٦ - ١٠٩ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٢٣ - ٥٢٤ ، الروض الزاهر ص ١١٩ ، ١٢٠ .

وعبرت نهر الفرات وكان السلطان الظاهر قد أمر عيسى بن مهنا بعد أن أرسل إليه عسكرياً أن يسير بهم عبر الصحراء إلى حران والإغارة عليها ، أما السلطان الظاهر فإنه استعد هو الآخر وخرج من القاهرة على رأس القوات السلطانية ، وكان ذلك في الخامس من شهر ربيع الآخر ٦٦٣ هـ / يناير ١٢٦٥ م ، إلا أن هذه القوات تعرضت أثناء مسيرها إلى الشام لفناء أدى إلى هلاك معظم الدواب التي تحمل المهمات والأسلحة الخاصة بالجيش « وصارت الأموال مطروحة إلا أن السلطان برغم ذلك قرر الاستمرار في المسير » فلما اشتكى إليه بعض الأمراء من سوء الحال « وقلة الظهر » قال السلطان « ما أنا في قيد الجمال ، أنا في قيد نصرته الإسلام » ، ووصل الظاهر بجيشه إلى غزة في العشرين من ربيع الآخر ٦٦٣ هـ / من فبراير ١٢٦٥ م فعلم وهو بها أن العدو نصب على البيرة سبعة عشر منجنيقاً فكم ذلك النبا حتى لا يتراجع العسكر ومحافضة منه على ارتفاع الروح المعنوية عند الجند ، وكتب الظاهر كتاباً إلى الأمير عز الدين إيفان مقدم الجيش يقول له : « متى لم تدرکوا قلعة البيرة ؟ وإلا سقت إليها بنفسى تجريدة » ، وكان ذلك من قبيل بث روح التشجيع للأمير إيفان على سرعة المسير لإنقاذ المدينة من الوقوع في قبضة العدو ، فأسرع الأمير إيفان بقواته ، هذا في الوقت الذي تقدم فيه السلطان من غزة ، ونزل قريباً من صيدا^(١) ، ثم سار إلى بينى^(١) في السادس والعشرين من ربيع الآخر ٦٦٣ هـ / فبراير ١٢٦٥ م ، فورد كتاب على السلطان من دمشق ، جاء فيه أن الملك المنصور صاحب حماة يقول إنه وعساكره والأمير عز الدين إيفان وجماعة من الأمراء وصلوا إلى البيرة بالعساكر ، فلما شاهدتهم العدو هرب ورموا مجانيفهم وغرقوا مراكبهم ، وتوالت كتب الأمراء بالبشائر تحمل نفس الأنباء وكتب السلطان بإعادة إصلاح ما تهدم من البيرة وحمل آلات القتال إليها والأسلحة من مصر والشام كما أمر أيضاً « أن يعبا فيها كل ما يحتاج إليه أهلها في الحصار لمدة عشر سنين » ، وأمر كذلك الأمراء وصاحب حماة بالإقامة على البيرة وعدم مغادرتها حتى ينظف الخندق من الحجارة التي ردمها العدو فيه ، فأخذ الأمراء في نقل الحجارة على أكتافهم فكتبوا إلى السلطان يخبرونه

(١) بينى بلد قرب الرملة بفلسطين ، مراد الاطلاع ج ٣ ص ١٤٧٣ .

بعملهم هذا في الوقت الذي كان هو يحاصر قيسارية^(١) ويعمل في هدم أسوارها بنفسه فكتب السلطان الظاهر جوابه للأمراء في البيرة قائلاً : « أنا عبد الله ما تخصصنا عنكم براحة ولا دعة ولا أنتم في ضيق ونحن في سعة ، ما هنا إلا من هو مباشر الحروب الليل والنهار ، وناقل الأحجار ومرابط الكفار وقد تساوينا في هذه الأمور وما ثم ما تضيق به الصدور » ، وأراد الظاهر أن يسترضى الأمراء ويرفع من قدرهم ويشعرهم باهتمامه بهم وتقديره لمجهودهم ، فأرسل كتاباً إلى القاهرة يطلب مائتي ألف درهم ومائتي تشريف وكذلك أرسل إلى دمشق يطلب مائة ألف درهم ومائة تشريف ، فلما تجمعت لديه هذه الأموال والتشريف أرسلها إلى البيرة ، وكتب إلى الأمير عز الدين إيفان « بأن يحضر أهل قلعة البيرة ويخلع على سائر من فيها من أمير ومأمور وجندى وعامى وينفق فيهم المال حتى الحراس وأرباب الضوء^(٢) ، ونفذ ذلك كله ، وبعد أن هدم الظاهر أسوار قيسارية وأرسوف^(٣) وفتحها وأخضعها عاد إلى مصر ، ووصلها في يوم الخميس الحادي عشر من شعبان ٦٦٣ هـ ط ١٢٦٥ م والأسرى بين يديه وكان في استقباله الملك السعيد والأتابك عز الدين الحلبي نائب السلطنة^(٤) ، ثم عادت العساكر والأمراء من البيرة مع الأمير عز الدين إيفان والأمير جمال الدين الحمدي ، وقدمت معهم هدية ملك الكرج^(٥) ثم استولى الأمير عز الدين

(١) بلدة على ساحل الشام بفلسطين ، وقيسارية مدينة كبيرة في بلاد الروم .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٢٥ ، أما أرباب الضوء فهم المشاعلية المكلفون بأعمال الإنارة ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٢٥ حاشية ٢ .

(٣) مدينة على ساحل الشام بين قيسارية ويافا : مرصد الاطلاع ج ١ ص ٥٦ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٣٤ .

(٥) كانت مملكة الكرج قد انضوت تحت حكم المغول منذ سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م وكان ملكها صاحب الهدية الواصلة إلى القاهرة هذه السنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م هو داود أولو David Ulu أي داود الفخم وقد أشرك داود هذا وجنوده الكرجية في هجوم هولاء على بغداد ، وفي موقعة عين جانوت ثم حدث أن ثار داود ضد الحكم التتاري سنة ٦٥٩ هـ - ١٢٦٠ م فتخلى عنه معظم أمرته وصالحوا التتار ثم هرب بعد هزيمته إلى بلدة كوتياس حيث كان ابن عمه داود نارين أي داود الماهر ، وفي هذا الوقت نشبت الحرب بين هولاءكو وبركة خان فرأى هولاءكو ترضية داود الفخم وإعادةه إلى مملكته مع تبعيته للمغول ، وقد ظل داود حتى وفاته سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م راضياً بتلك التبعية في الظاهر غير أنه كان في الوقت نفسه يكيد لهولاءكو عند كل من الملك بركة خان والسلطان بيبرس - السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٣٧ حاشية ١ .

السكندري نائب الرحبة على قرقيسياء^(١) وقتلوا من كان بها من التتار والكرج وأسروا ما يزيد على ثمانين رجلاً وذلك في منتصف شهر رمضان سنة ٦٦٣ هـ / يولية ١٢٦٥ م^(٢) .

وفاة هولاءكو خان ملك التتار :

وفي التاسع عشر من ربيع الأول سنة ٦٦٣ هـ / يناير ١٢٦٥ م وردت الأخبار بوفاة هولاءكو بن طولو خان بعلة الصرع ، وكانت وفاته بالقرب من كورة مراغة^(٣) ودفن في قلعة تلا ، وكان هولاءكو قد تولى السلطنة مدة عشر سنوات على مملكة إيلخانات فارس واتسع ملكه ، وقال المقرئزي عن ممالك هولاءكو « كان بيد هولاءكو إقليم خراسان وكرسيه نيسابور عراق العجم ويعرف ببلاد الجبل وكرسيه إصفهان ، وعراق العرب وكرسيه تستر ويسميا العامة شستر . وفارس وكرسيه شيراز وديار بكر وكرسيها الموصل والروم وكرسيه قونية » .

وكان هولاءكو لا يتقيد بدين من الأديان ، وكان هولاءكو يلقب بالقان وهو لقب الخان الأعظم ببلاد التتار^(٤) . وتولى الملك بعده أبانغا وجهاز أبانغا (أبانغا) جيشاً قوياً لمحاربة الملك بركة خان فانهزم هزيمة منكرة . وتحالف مع ميخائيل إمبراطور القسطنطينية وتزوج من ابنة ميخائيل المسيحية بتشجيع والدته التي كانت نصرانية تعتنق المذهب النسطوري . حدث ذلك وما زال الظاهر بيبرس مستمراً في إعداد قواته وتنظيم دولته .

غزو بلاد أرمينية الصغرى :

كان ملك الأرمن قد أمره هولاءكو بالإغارة على بلاد الشام ، فسار عام ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م وأمدته صاحب بلاد الروم من عساكر التتر وسار معه بنو كلاب من

(١) مرتفع على ملتقى نهر الخابور بالفرات .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٢٧ .

(٣) بلدة مشهورة في أذربيجان - مرصد الاطلاع ج ٣ ص ١٢٥٠ .

(٤) لقب بهذا اللقب الخان الأعظم لبلاد التتار ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٤١ حاشية ٤ .

أعراب حلب ، فجهز السلطان الظاهر عساكر حماة وحمص وقابلوهم وهزموهم ورجعوا إلى بلادهم ، فلما كان الخامس من شهر ذي القعدة عام ٦٦٤ هـ / أغسطس ١٢٦٦ م سارت الجيوش الإسلامية من بلاد الشام بقيادة الملك المنصور صاحب حماة ، وفيهم الأمير عز الدين إيفان والأمير قلاوون وقصدوا بلاد سيس عاصمة أرمينية الصغرى ^(١) ولقد كان القصد من هذه الحملة هو تأديب بلاد سيس لموقفها من المسلمين زمن التتار عندما استولوا على حلب وبلاد الشام إذ أنهم أسروا من نساء المسلمين وأطفالهم خلقاً كثيراً ثم كانوا يغيرون بعد ذلك على بلاد المسلمين في زمن هولاء كما مر بنا ، هذا بالإضافة إلى رغبة السلطان الظاهر في الوصول إلى أسواق الخيل والبغال والحنطة والشعير والحديد ، أي فتح باب التجارة بين الشام وبلاد الأرمن ولكن صاحب سيس لم يستجب لهذه الرغبة خوفاً من هولاء ، لهذا سارت القوات الإسلامية لغزو بلاد سيس ، وعندما التقى الفريقان انهزم الأرمن وأسر ليفون بن ملك سيس وقتل عمه ، وهرب عمه الآخر وقتل ابنه هيثوم الآخر وتمزق باقي جيشه وأصحابه « وقتل أبطالهم وجنودهم » . ثم دخلت القوات الإسلامية سيس نفسها « فأخربوها وجعلوا عاليها سافلها » وفتحوا قلعة العمودين وقتلوا أهلها ووصلت البشائر بذلك إلى السلطان الظاهر بيبرس وهو بدمشق ، فأعطى المبرر ألف دينار ، وفي الثالث عشر من شهر ذي الحجة ٦٦٤ هـ / سبتمبر ١٢٦٦ م خرج الظاهر لاستقبال الجيش العائد من غزوة سيس بقيادة صاحب حماة الملك المنصور ومعهم ابن متملك سيس ليمون الثالث ، ولم يزل ملك الأرمن هيثوم يسأل السلطان الظاهر في إطلاق ولده ليفون (ليون) ، وخاصة بعد استيلاء الظاهر على أنطاكية ، ويعرض في فدائه الأموال والقلاع ، وكان التتار قد أسروا الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من حلب عندما استولوا عليها أول مرة عام ١٢٦٠ م / ٢٥٨ هـ فاشترط السلطان الظاهر على ملك سيس شروطاً منها إحضار الأمير سنقر الأشقر عوضاً عن ولده ليفون ، ثم رد القلاع والبلاد التي أخذها ملك سيس من مملكة

(١) سيس عاصمة أرمينية الصغرى - قليقية - وموقعها بين أنطاكية وطرسوس السلوك ج ١ ق ٢

حلب وهي بهسنا ودربساك ومرزبان ورعبان وشيخ الحديد - اسم مدينة -
فسأل هيثوم الظاهر أن يعطيه مهلة سنة للقيام بهذه المهمة ويبعث إلى الأردن^(١)
فذهب ملك سيس إلى ملك التتار « فتدلل له وتمسكن وخضع له حتى أطلقه له »
فأرسل ملك سيس إلى الظاهر يخبره بأنه وجد سنقر الأشقر وأنه أطلق سراحه
إلا أن هيثوم كان ينوي الخداع ؛ونقض عهده بتسليم القلاع فكتب إليه الظاهر
مخذراً إياه : « إذا كنت تقسو على ولدك وولي عهدك ، فأنا أقسو على صديق
ما بيني وبينه نسب ويكون الرجوع منك لأمني ونحن خلف كتابنا فمهما شئت
افعل بسنقر الأشقر ، فلما وصلت رسائل السلطان الظاهر بما ذكرنا إلى هيثوم
وكان السلطان الظاهر في أنطاكية خاف وخشى من وقوع الخلاف بينه وبين الظاهر
ومن ثم قرر الصلح على تسليم قلعة بهسنا^(٢) ودربساك ومرزبان ورعبان وشيخ
الحديد ،^(٣) وكل ما أخذه من بلاد الإسلام ، وأن يرد الجميع بحواصليها كما
تسلمها ويطلق سنقر الأشقر ، ويطلق السلطان الظاهر في مقابل ذلك ابن ملك
سيس ليفون وابن أخيه وغلماهما ، واشترط أيضاً أن يحضر ملك الأرمن رهينة
حتى يتسلم السلطان القلاع المتفق عليها في عقد المصالحة ، فكتب الهدنة بأنطاكية
وسار الأمير بلبان الرومي الدوادار والصدر فتح الدين بن القيسراني كاتب الدرج^(٤)
لاستحلاف ملك سيس وسار الأمير بدر الدين بجكا الرومي لإحضار الملك ليفون
من مصر وذلك ليلة الثالث عشر من رمضان ٦٦٦ هـ / مايو ١٢٦٨ م فوصلها
وعاد إلى دمشق ومعه ابن ملك الأرمن « بحرمة عظيمة وخيالة كثيرة ، وحلف
التكفور ملك الأرمن في السابع والعشرين من رمضان ٦٦٦ هـ / يونيو ١٢٦٨ م
فانتظم الصلح ثم سار السلطان من أنطاكية إلى شيزر ثم إلى حمص ثم سار من حمص

(١) لفظ مغولي معناه المعسكر أي معسكر إيلخان الدولة المغولية بفارس - السلوك ج ١ ق ٢

ص ٥٦٩ حاشية ٢ .

(٢) بهسنا قلعة حصينة قرب مرعش وسيباط وهي من عمل حلب ، ودربساك حصن قرب

أنطاكية - مراصد الاطلاع ج ١ ص ٢٣٤ ، ج ٢ ص ٥٥٤ .

(٣) المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٥

(٤) وهو الذي يوقع على جانب القضايا والأوراق الرسمية بعد أن يقوم بقراءة تلك الأوراق والقضايا

السلوك ج ١ ق ١ ص ٤٨٩ حاشية ٣ .

إلى دمشق فدخلها والأسرى بين يديه وليفون ابن صاحب سيس في خدمته فأحسن إليه ، ثم أقسم ليفون للسلطان على الصيغة التي أقسم عليها والده وهو قائم مكشوف الرأس ، وسار إلى بلاده في شهر شوال ٦٦٦ هـ / يونية ١٢٦٨ م بصحبة الأمير بدر الدين بجكا حتى وصل إلى مملكته ، ثم وصلت الرهائن فأحسن السلطان إليهم وأكرمهم وما زالوا عند الظاهر حتى تسلم نواب السلطان القلاع من أهل سيس فأعيدت الرهائن لأهلها ، ولما وصل ليفون إلى سيس أطلق سراح سنقر الأشقر فقدم على الظاهر فأكرمه وأحسن إليه وبني له داراً بقلعة الجبل وجعله من خاصته .

غارات التتار على بلاد الشام :

وفي السابع والعشرين من جمادى الآخر عام ٦٦٥ هـ / مارس ١٢٦٧ م تقدم السلطان الظاهر إلى الشام وبصحبه جماعة من الأمراء وترك معظم قواته بمصر . وبينما الظاهر في صفد علم بغارة التتار على الرحبة ، وإن أهل الرحبة قتلوا وأسروا من العدو عدداً كبيراً فعادوا منهزمين إلى بلادهم .

وفي شهر صفر عام ٦٦٦ هـ / أكتوبر ١٢٦٧ م علم السلطان الظاهر بمسير التتار إلى حلب فأمر بالاستعداد وأرسل على الفور إلى الشام يأمر النواب بتجهيز لقوات والاستعداد لمواجهة العدو ، وحاول الفرنجة مد يد العون مع المغول في محاربة المسلمين ، فتقدم الفرنجة لمهاجمة وادي الأردن في ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م ، ثم خرج السلطان الظاهر إلى الشام في شهر جمادى الآخرة ٦٦٧ هـ / فبراير ١٢٦٩ م ومعه الأمراء والعساكر ، فلما وصل السلطان إلى دمشق قدم عليه خطاب من صاحب سيس يتضمن بأن رسول أبغا بن هولاءكو وصل إليه ويريد الحضور إلى السلطان الظاهر ، فبعث الظاهر إليه الأمير ناصر الدين بن صيرم ليتسلمه من سيس ويحترز عليه بحيث لا يمكنه أن يتحدث مع أحد ، وكان معه جماعة من بلاد سيس ، فأنزلهم السلطان بقلعة دمشق وأحضرهم في اليوم التالي وتسلم كتاب منهم ومضمونه : « أن الملك أبغا بن هولاءكو لما خرج من الشرق ملك جميع البلاد ومن خالفه قتل وأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض اتخلص منا فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً وأنت مملوك أبعث في سيواس فكيف

تساقق ملوك الأرض»^(١) فأجاب السلطان الظاهر على ذلك الإنذار إجابة حاسمة ، ولم يلتفت إلى التهديد وقال للرسول : « أعلموه أنى من ورائه بالمطالبة ولا أزال حتى أنزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض » ولم يتمكن أيضاً من إنفاذ حملاته لغزو الشام في هذه الفترة لوقوع الخلاف بينه وبين مملكة مغول القفجاق وانشغلوا بأنفسهم .

تحالف الفرنجة مع التتار :

علم السلطان الظاهر بحركة التتار واتفاقهم مع الصليبيين بالساحل وعلم أيضاً بغارة التتار على الساجور^(١) بالقرب من حلب فجهز الظاهر العساكر وسيرهم إلى الشام بقيادة الأمير علاء الدين البندقدار ، وأمره الظاهر بأن يربط بقواته في أطراف بلاد الشام على أهبة واستعداد ، ثم سار الظاهر من قلعة الجبل في ربيع الأول ٦٦٨ هـ / أكتوبر ١٢٦٩ م في نفر يسير فوصل غزة ثم دمشق بعد أن صادفت العساكر أضراراً بالغة ومشقة عظيمة بسبب البرد القارس ، ولم تلبث الأخبار أن وصلت إلى السلطان بالهزيم التتار عندما علموا بتحريك السلطان الظاهر « وكان الله في أنفس الناس أن السلطان وحده يقوم مقام العساكر الكثيرة في هزيمة الأعداء وأن اسمه يرد الأعداء من كل جانب »^(٢) ، ولكن الظاهر علم بأن جماعة من الفرنج ساروا من بلاد الغرب وراساوا أبغا بن هولكو بأنهم قادمون من جهة سيس للاشتراك في مهاجمة المسلمين ، ولكن الله أهلك هؤلاء الفرنجة قبل أن يصلوا إلى سيس إذ هبت على سفنهم ريح صرصر عاتية أتلفت سفنهم وأغرقتها ، ويمكن تفسير محاولات الفرنج هذه بأنهم نتيجة لمراسلات أبغا بن هولكو مع ملوك أوروبا والبابا كليمنت الرابع في عام ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م إذ طلب أبغا من البابا إرسال جيش ليهاجم المسلمين في الوقت نفسه الذي يتقدم فيه أبغا بقواته نحوهم فوعده البابا بذلك^(٣) ، أما من سلم من حملة الفرنج هذه التي حطمتها

(١) وهو نهر بجعات منبج وتقع عليه عينتاب وتل باشر - السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٨٤ حاشية ٣ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٨٥ .

(٣) Babars, P. 57 & Howorth, Part 3, P. 279, 280 & 281.

العاصفة يبدو أنهم ساروا إلى عكا بدلا من سيس وتجمعوا هناك مع فرنجة عكا واغثروا بكثرة عددهم وبما قدم إليهم من فرنجة الغرب وسارت جماعة من هؤلاء لمهاجمة عساكر المسلمين في جنين وعسكر صفد فخرج السلطان من دمشق إلى مرج برغوث^(١) ، ثم أمر الظاهر عسكر صفد بالإغارة على الفرنج واشتد القتال بين الفريقين ، وانهمز الفرنج وانكسروا كسرة عظيمة وأسر السلطان أكابرهم ، فسارت البشائر إلى مختلف الجهات ثم أغار على حصن الأكراد وقتل جماعة من فرسان الفرنج واستخف بهم وقال :

« خلوا الفرنج يخرجوا فما نحن أكثر من أربعين فارساً بأقبية بيض » ، فلم يظهر منهم أحد خوفاً منه ، وذلك نتيجة تأمرهم ومحاولتهم التعاون مع التتار .

غارة التتار على الشام :

أمر أبغا ملك التتار جيشه بالمسير إلى البلاد الشامية فساروا في عشرة آلاف جندي بقيادة الأمير صمغراً (سماغور) والبرواناه^(٢) ، وكان السلطان الظاهر موجوداً بالشام في تلك الفترة . فلما علم التتار بذلك أرسلوا ألفاً وخمسمائة فارس بقيادة آمال بن بوغاي ليغيروا على أطراف بلاد حلب . وأرسل الظاهر إلى مصر يطلب مسير عساكرها إليه فحضرت العساكر الإسلامية من مصر بقيادة الأمير ببسرى وعدتهم ثلاثة آلاف فارس . فوصلوا إلى السلطان في الخامس من ربيع الآخر ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م . وتقدم بهم نحو التتار في السابع من ربيع الآخر علم العدو بمسيرة السلطان إليهم « فولوا على أعقابهم » وكان صاحب حماة الملك المنصور قد وافق الظاهر فنزل السلطان حلب يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الآخر ٦٧٠ هـ / نوفمبر ١٢٧١ م وعسكر بقواته بالميدان الأخضر وسير الأمير شمس الدين بن سنقر الفارقاني - بعد حضوره من جنين - بجماعة من الأجناد

(١) مرج برغوث جهة على الطريق بين دمشق وجسر يعقوب .

(٢) لفظ فارسي معناه في الأصل الحاجب وقد أطلق في دول السلاجقة بآسيا الصغرى على الوزير كبر ، وهو سليمان بن علي بن محمد بن حسن صاحب معين الدين البرواناه توفي شهيداً في أواخر ٦٧٦ هـ واقعة التتار مع الملك الظاهر - النجوم ج ٧ ص ١٥٥ حاشية ٣ .

وأمره بتعقب العدو حتى أطراف البلاد في الشمال وأمره ألا يتعرض لبلاد صاحب
ميس ثم جهز الأمير علاء الدين طبرس الوزيري في عسكر وأمره بالمسير إلى
حران ، أما الأمير شمس الدين الفارقاني فقد تتبع فلول التتار حتى وصل إلى
مرعش^(١) فلم يعثر على أحد منهم ، وعاد إلى حلب حيث يقيم الظاهر
بيبرس فرحل عندئذ الظاهر نحو الديار المصرية في الثامن والعشرين من ربيع الآخر
٥٦٧٠ / ديسمبر ١٢٧١ م ، ودخل مصر وكان الفرنج قد أغاروا على حصن قاقون^(٢)
بفلسطين وذلك بالاتفاق مع التتار ، فسار السلطان من حلب سرّاً حتى يفاجيء
الفرنجة ودخل دمشق وبين يديه عدة من أسرى التتار من حران في الوقت الذي
سار فيه الأمير أقوش الشمسي بعسكر عين جالوت ، فلما علم الفرنج بتحركات
السلطان وعساكر الإسلام رحلوا عن حصن قاقون ولكن العساكر الإسلامية
كانت تتبعهم حتى قتلوا جماعة كثيرة منهم ، وبلغت خسائر الفرنج من الدواب
خمسمائة رأس^(٣) ، وسار من دمشق في الثالث من جمادى الأولى ٦٧٠ هـ /
ديسمبر ١٢٧١ م بقصد الإغارة على عكا إلا أنه عدل عن ذلك ولعل ذلك راجع
إلى سوء الأحوال الجوية وشدة الأمطار ، ومن ثم رجع إلى مصر ووصل إلى
إلى قلعة الجبل في الثالث والعشرين من جمادى الأولى ٦٧٠ / ديسمبر ١٢٧١ م^(٤)
أما الأمير علاء الدين طبرس فسار بقواته نحو نهر الفرات فخاضوا النهر إلى الجانب
الآخر وساروا إلى حران ، فلما اقتربوا منها خرج من بها من نواب التتار وألقوا
أسلحتهم واستسلموا وقبض عليهم جميعاً ، ثم سار طبرس إلى حران فأعلن أهلها
ولاءهم للسلطان ، ثم عاد علاء الدين طبرس ولم يدخل حران فعبّر الفرات سباحة
وعاد إلى مصر^(٥) ونتيجة لموقف حران من المسلمين وعدم مقاومة أهلها للأمير

(١) مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخلق وفي وسطها حصن عليه سور - النجوم

ج ٧ ص ١٥٦ حاشية ٧ .

(٢) حصن بفلسطين قرب الرملة - مرصد الاطلاع ج ٣ ص ١٠٥٩ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠١ Howorth, Part 3, P. 243

(٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠١ ، المختصر ج ٢ ص ٢٢١ ، النجوم ج ٧ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦١ ، الذيل ج ٢ ص ٤٦٧ - ٤٦٩ .

(٥) الذيل ج ٢ ص ٤٦٩ .

علاء الدين طبرس ، ثم نتيجة لاستسلام التتار الذين كانوا بها وصلت جماعة من المغول إلى حران في الخامس والعشرين من رمضان ٦٧٠ هـ / أبريل ١٢٧٢ م وأخربوا سورها وكثيراً من أسواقها ودورها وهدموا جامعها وأخذوا أخشاب سقفه وسبوا أهلها « واستصحبوا معهم من فيها فخرت ودثرت (١) » .

طلب التتار الصلح مع الممالك :

بينما السلطان الظاهر يتصيد بجهة الصالحية جاءه الخبر بأن العدو المغولي يقوم بتحركات نحو الشام ، فعاد الظاهر مسرعاً إلى قلعة الجبل وسار إلى الشام في الثالث من شعبان ٦٧٠ / مارس ١٢٧٢ فقابله رسل الفرنج بعكا وهو بالسواد (٢) يطلبون الهدنة فأرسل إليهم الأمير فخر الدين إياز المقرئ والصدر فتح الدين بن القيسراني كاتب الدرج فعقدت الهدنة مع الفرنج لمدة عشر سنين وعشرة أشهر ابتداء من رمضان ٦٧٠ هـ / أبريل ١٢٧٢ م ، ثم سار الظاهر إلى دمشق ، فوصلت إليه رسل التتار في شوال ٦٨٠ هـ / مايو ١٢٧٢ م يطلبون الصلح ، فأحسن السلطان الظاهر إلى هؤلاء الرسل وأكرمهم ثم بعث فخر الدين إياز المقرئ والأمير مبارز الدين الطوري رسولين إلى أبغا وأرسل معهما هدية ، فلما وصلا قونية ببلاد الروم أديا الرسالة إلى صمغرا وضمونها شكره ، ثم أخذهما البرواناه وسار بهما إلى أبغا ملك التتار . فلما اجتمعا به قال لهما ما الذي جئتما فيه ؟ فقالا إن صمغرا بعث إلى السلطان الظاهر وأخبره أنك أعبت أن يأتي إليك من جهته رسول : فأرسلنا نقول لك ، « إن أردت أن أكون مطاوعاً لك فرد ما في يدك من بلاد المسلمين » فقال أبغا : « هذا لا يمكن وأقرب ما في هذا أن يبقى كل واحد منا على ما في يده ودارت بينهما مفاوضات أغلظ فيها أبغا لرسول الظاهر وعادا من عنده بدون اتفاق فوصلا دمشق في الخامس عشر من صفر ٢٧١ هـ / سبتمبر ١٢٧٢ م .

ويبدو أن التتار كانوا يطلبون الصلح لسببين أولهما اضطراب أحوالهم

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠٠ ، الذيل ج ٢ ص ٤٧١ .

(٢) السواد هنا موضع بنواحي البقاء - السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٦٠١ حاشية ٤ .

السياسية في داخل البلاد . وثانيهما خداع المسلمين وهو الأسلوب الذي اتبعه الفرنجة فإنهم كانوا يسرعون بتقديم الولاء وطاب الصلح إذ كانت ظروفهم سيئة لا تساعدهم على القتال ، فإذا ما شعروا بقوتهم تعاونوا مع التتار لمحاربة المسلمين في وقت واحد . فكثيراً ما خرج السلطان لمحاربة التتار فيحارب الصليبيين أيضاً ذلك أن الطرفين - التتار والصليبيين - يهدفون إلى هدف واحد هو محاربة بلاد الإسلام واحتلالها . وانتهت المراسلات والمفاوضات بين المغول والسلطان الظاهر بدون اتفاق ^(١) . ولم يلبث أن قدم رسل التتار في شهر صفر ٦٧١ هـ / سبتمبر ١٢٧٢ م فطلبوا أن يقدم الأمير سنقر الأشقر إلى بلاد أبغا حتى يعقد الصلح . فأمر الظاهر العساكر بارتداء معداتهم وأسلحتهم واستعرضوا أمام رسل التتار ثم عادوا في رابع شهر ربيع الأول ٦٧١ هـ / سبتمبر ١٢٧٢ م إلى بلادهم بدون اتفاق أيضاً . ^(٢) ويبدو أن كثرة رسل التتار كانت بمثابة ستار لتحركاتهم ونواياهم العدوانية . إذ لم تمض أيام على عودة الرسل إلى أبغا حتى تحركت الجيوش المغولية نحو الشام ، ويمكن القول إن هذه الغارات كان الهدف منها إرغام المماليك على عقد الصلح مع التتار ، إلا أن الغدر والخداع كانا مسيطرين على التتار فلم يطمئن السلطان إلي عهدهم .

موقعة البيرة والفرات ٦٧١ هـ - ١٢٧٢ م :

وصل السلطان الظاهر بيبرس إلى دمشق في الخامس من المحرم ٦٧١ هـ / أغسطس ١٢٧٢ م فعلم بحركة التتار ، فعاد إلى مصر سراً ، ووصل إلى قلعة الجبل على حين غفلة . وكان قد أخبر أمراء الشام أنه متوجه إلى البيرة لتفقد أمورها ، فجهز الجيش وعاد إلى الشام فدخل قلعة دمشق ليلاً ^(٣) ثم تحركت القوات المغولية إلى البيرة وحاصروها ونصبوا عليها الجنايق وذلك في جمادى الأولى ٦٧١ هـ / ديسمبر ١٢٧٢ م ثم وضعوا (التتار) على مخاض الفرات من يحفظها

(١) النجوم الزهرة ج ٢ ص ١٥٨ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠٥ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠٥ .

حتى يمنعوا من يصل إليهم من عسكر المسلمين ، فاستعد السلطان وجهاز الأمير
فخر الدين الحمصي بفرقة من الجيش إلى جهة حارم^(١) وجهاز الأمير علاء
الدين الحاج طبرس الوزيري في فرقة ثانية .

أما السلطان نفسه فقد أعد السفن اللازمة لعبور الفرات وحصلها على ظهور
الجمال وأسرع المسير حتى وصل إلى الباب من أعالي حلب ، وأرسل جماعة من
الأجناد والعرب لكشف أخبار العدو وسار إلى منبج ، فعاد الكشافة وأخبروه
أن طائفة من التتار تبلغ ثلاثة آلاف فارس تقريباً على شط الفرات مما يلي الجزيرة .
فرحل عن منبج يوم الأحد الثاني عشر من جمادى الأولى ٦٧١هـ / ديسمبر ١٢٧٢
حتى وصل الفرات ، فوجد على الفرات جموعاً من التتار ، فأنزل المراكب في
النهر وملأها بالمقاتلين واشتبكوا مع العدو وتراموا بالسهم واقتحم الأمير قلاوون
الفرات ثم تبعه الأمير بدر الدين بيسرى الشمسي . ثم تبعهما السلطان بنفسه مع
العسكر وعبروا الفرات سباحة ، وكان الأمير قلاوون الألفي أول من وصل
أرض العدو على الشاطئ الشرقي للفرات ومعه جماعة من العسكر فهزم التتار
ومزقهم فلما وصل السلطان إلى أرض المعركة صلى ركعتين شكراً لله تعالى ووزع
العساكر يميناً وشمالاً فقتلوا وأسروا عدداً كبيراً ، فلما علم التتار الذين كانوا
يحاصرون البيرة بهزيمة جيشهم على شاطئ الفرات انهزموا مع مقدمهم درباي
وتركوا أثقالهم وأقواتهم ، فاستولى أهل البيرة على كل ذلك « فتقووا به » ،
ولما علم الظاهر ببيبرس بذلك سر كثيراً ، وانتظر حتى يأتيه أحد من التتار ليقاتله .
ولما لم يأت أحد من التتار لمحاربة السلطان بعد هزيمتهم عاد بجيشه في الفرات
كما خاضوه أول مرة وسار الظاهر بعد ذلك إلى البيرة وخلع على نائبها وترك
بها جماعة من العسكر لحفظها ، وعاد إلى دمشق في الثالث من جمادى الآخرة
٦٧١هـ / ديسمبر ١٢٧٢ م وبين يديه جماعات كبيرة من أسرى التتار وسار إلى
مصر فوصلها في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة ٦٧١هـ / يناير ١٢٧٣ م^(٢)

(١) قلعة حصينة في جهة الغرب من حلب - الأعيان ج ٤ ص ١٢٤ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠٦ - ٦٠٧ ، النجوم ج ٧ ص ١٥٨ - ١٥٩ ، البداية والنهاية

ج ١٣ ص ٢٦٣ ، المختصر ج ٤ ص ٧

Howarth, Part 3, P. 244.

وقد خرج لاستقباله الملك السعيد فتقابلا بين القصير والصالحية في يوم الجمعة الثاني والعشرين من جمادى الآخرة ٦٧١ هـ / يناير ١٢٧٣ م فرجلا واعتنقا طويلا وسار الجميع إلى قلعة الجبل وبين أيديهم أسرى التتار ، ودخل الظاهر قلعة الجبل في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة ٦٧١ هـ / يناير ١٢٧٣ م وأنعم السلطان على رجال دولته وأمرائها وقادتها « وأعطى كل واحد منهم ما يليق به من الخيال والذهب والحوائص والثياب والسيوف » وبلغت هذه الخلع والتشريفات فوق ثلثمائة ألف دينار .

وقال العلامة شهاب الدين أبو الثناء محمود كاتب الإنشاء قصيدة في هذا الانتصار أولها (١) .

خضت الفرات بسابح أقصى منى هوج الصبا من نعله آثار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى بحرأ سواك تقله الأنهار
وتقطعت مزقاً ولم يك طودها إذ ذاك إلا جيشك الجرار

محاولة التتار غزو الشام :

علم السلطان الظاهر أن أبغا ملك التتار قد حرك قواته نحو بلاد الشام ، فخرج الظاهر من مصر في السادس والعشرين من المحرم ٦٧٢ هـ / ١٢ أغسطس ١٢٧٣ م . فلما وصل الظاهر إلى عسقلان بفلسطين أرسل إلى مصر يطلب خروج عساكرها جميعاً بقيادة الأمير بيبيك الخازندار ، وأمر الجميع بالمسير إلى الشام وقال من ملك فرساً عليه الخروج للجهاد ، « وأن تخرج كل قرية من قرى الشام رجاله يركبون الخيل على قدر حالهم ويقومون بالقرية بكلفة من يتوجه » . وحدث في هذه الآونة أن درب الأمير شمس الدين بهادر بن الملك فرج من بلاد التتار إلى السلطان بيبرس . وكان الملك فرج في أول أمره أمير طشت (٢) السلطان جلال

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٥٩ - ١٦٠ ، فوات الوفيات ج ١ ص ١٦٤ البداية والنهاية

ج ١٣ ص ١٦٤ .

(٢) والطشت الذي تفعل فيه الأيدي والملابس فيكون مشولا عنه أمير طشت وهو مشول عن كل

ما يلبسه السلطان من الثياب ونحوها .

الأعشى ج ٤ ص ١٠ - ١١ .

الدين خوارزم شاه ، ووصل الملك فرج إلى بلاد الروم السلاجقة فأقطع بها إقطاعاً وكان يرأس السلطان الظاهر بيبرس بأخبار العدو فعلم التتار تيمية عليهم لمصلحة المسلمين فقبضوا عليه وحملوه إلى الأردن وهربت حاشية الملك شمس الدين بهادر خوفاً من الإيقاع بهم وساروا إلى بلاد الإسلام فأكرمهم السلطان وأحسن إليهم ، إلى شمس الدين بهادر بن الملك فرج فإنه هرب من عندهم وقدم إلى البيرة ثم وصل إلى دمشق وكان بها الملك الظاهر . بيبرس وهنا تحركت القوات المغولية نحو بلاد الإسلام ، فأمر الظاهر الأمير عيسى بن مهنا أمير العرب بالغارة على بلاد التتار فأغار حتى وصل إلى الأنبار في الثامن عشر من شعبان ٦٧٢ هـ فبراير ١٢٧٤ م فظن العدو أن السلطان الظاهر قدم لقتالهم فانهزموا إلى أربعا ملكهم فرجع بهم إلى بلاده وكان الظاهر قد عاد إلى مصر في جمادى الآخرة ٦٧٢ هـ / يناير ١٢٧٤ م^(١) .

غزو بلاد سيبس ٦٧٣ هـ - ١٢٧٥ م :

سار الظاهر من مصر في طريقه إلى الشام على رأس الجيش . فلما وصل الشام سير الأمير عيسى بن مهنا والأمير حسام الدين العينتابي بعسكر إلى البيرة لحفظها وكشف أحوالها ، فسار الأمير عيسى بعربانه إلى الأنبار ، فوجد بها جماعة من عسكر التتار فظن التتار أن السلطان وصل إليهم فجأة وتقاتل الأمير عيسى مع عرب خفاجة في تلك الجهة في الثامن عشر من شعبان ٦٧٢ هـ / فبراير ١٢٧٤ م ، فلما علم أربعا بذلك تراجع وانهزم على أسوأ الأحوال^(٢) . وجهز الظاهر بيبرس الأمير سيف الدين قلاوون الألبى والأمير بيليك الحازندار بجيش وأمرهم بالمسير إلى بلاد سيبس لأسباب منها أن معين الدين البرواناه كتب إلى السلطان الظاهر يحرضه على الدخول إلى بلاد الروم وذلك أنه لما ضاق من معاملة آجاي بن دولاكو وعزم آجاي على قتل البرواناه فاضطر البرواناه إلى مكاتبة السلطان الظاهر لغزو بلاد الروم ، وكان ذلك في سنة ٦٧٢ هـ /

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦١١ ، تاريخ الدول والملوك م ٧ ص ٤ - ٥
Howorth, Part 3, p. 245.

(٢) الدول والملوك م ٧ ص ٦ .

١٢٧٣ م ، وأرسل أبغا أيضاً يطلب حضور آجاي إليه فسار إليه واتفق في هذه الآونة وصول السلطان الظاهر إلى بلاد الشام « أفاق البرواناه على نفسه » فأرسل إلى الظاهر يطلب إليه غزو بلاد سيس ثم يؤجل بلاد الروم إلى العام القادم ، فسارت القوات الإسلامية كما أشرنا إلى بلاد سيس ^(١) ، ويتضح من ذلك أن البرواناه كان السبب في مسير الظاهر هذه السنة إلى بلاد الشام وذلك لغزو بلاد الروم نتيجة خوف البرواناه من التتار من ناحية ، وعدم اطمئنانه إلى الظاهر من ناحية ثانية . وانتهى أمره بأن قتله التتار بعد هزيمتهم في موقعة ابلستين كما سنبين فيما بعد .

أما القوات التي سارت إلى سيس فقد هاجمت المصيصة ^(٢) حيث قتلوا من كان بها من الأرمن . وكانت المراكب قد نقلت على ظهور البغال ليعبروا بها نهر جيحان ، ^(٣) والنهر الأسود ^(٤) ، ثم وصل الظاهر بيبرس بعساكره في إثر القوات المتقدمة بعد أن عبر النهر الأسود فملكوا الجبال وغنموا الكثير من الدواب والأغنام ثم دخل الظاهر سيس بعساكره في التاسع والعشرين من شعبان ٦٧٣ هـ / يناير ١٢٧٥ م فدمر قصور التكفور ملك أرمينيا ومناظره وبساتينه ، وسير قواته ناحية الروم وفرقة أخرى إلى طرسوس ^(٥) ، وسير جيشاً إلى إياس ^(٦) فغنموا وقتلوا وأسروا ثم سار الظاهر من سيس عائداً إلى

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦١٧ حاشية ١

(٢) وهي مدينة على نهر جيحان وبينها وبين أذنه تسع أميال وتقع بالقرب من طرسوس السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦١٧ حاشية ٢ .

(٣) وتقع عليه المصيصة ويصب في البحر الأبيض على مسافة قريبة من المصيصة صبح الأعشى ج ٤ ص ٨٢ .

(٤) أحد فروع الفرات الأعلى ويمر تحت دريساك ويمتد حتى يصب في بحيرة أنطاكية ويخرج منها ويصب في نهر العاصي . صبح الأعشى ج ٤ ص ٨١

(٥) مدينة من بلاد الأرمن على ساحل البحر الأبيض بالقرب من حلب . صبح الأعشى ج ٤ ص ١٣٣ .

(٦) وهي ثغرة على ساحل البحر المتوسط بأرمينيا الصغرى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٣٣ .

إلى دمشق بعد أن مر بأنطاكية ، ثم قسم الغنم فدخل دمشق في منتصف
ذى الحجة ٦٧٣ هـ / يونية ١٢٧٥ م ^(١) .

هجوم التتار على البيرة عام ٦٧٤ هـ - ١٢٧٥ م :

سارت قوات التتار وحليفاتها الروم إذ كانت مكونة من ثلاثين ألف مقاتل ^(٢) .
منهم خمسة عشر ألفاً من الفرسان المغول وخمسة عشر ألفاً من فرسان الروم ، وكان
المقدم على جيش الروم الأمير معين الدين البرواناه ومقدم جيش المغول أبطاي نوين
(أقطاي نوين) وتابشى ومقدم جيش ماردن وميافارقين شرف الدين عبد الله
اللاوى ، فوصلوا البيرة وحاصروها ونصبوا عليها ثلاثة وعشرين منجنيقاً ، فخرج
أهل البيرة على العدو في الليل وأحرقوا المنجنيقات ونهبوا شيئاً كثيراً من أثقالهم
وأحمالهم ورجعوا إلى بيوتهم سالمين ، وأستمر حصار التتار للبيرة حتى التاسع عشر
من جمادى الأولى ٦٧٤ هـ - نوفمبر ١٢٧٧ . ولما فشلوا في فتحها رجعوا بغيظهم
وكان السلطان الظاهر لما علم بنزول التتار على البيرة قد أعد جيشاً كبيراً وأنفق على
العساكر أموالاً طائلة بلغت ستمائة ألف دينار ، ثم سار إلى الشام ومعه ولده الملك
السعيد ، وبينما هو في الطريق علم بهزيمة التتار وعودتهم ، ولكنه واصل سيره حتى
وصل حلب ثم عاد إلى مصر .

أما معين الدين البرواناه مقدم جيش التتار والروم في غزوتهم للبيرة ، لما عاد
إلى بلاده خشي من انتقام السلطان الظاهر منه لنتضه وعده حين قاد جيش التتار
والروم إلى البيرة بأمر من أبغا ، فلما عاد إلى بلاده اجتمع بالأمراء وأخذ عليهم
الأيمان على أن يكونوا موالين للسلطان الظاهر بيبرس ، وينابذوا أبغا فحافوا للبرواناه
بذلك وكتب إلى السلطان الظاهر يخبره بهذا ويطلب إليه أن يرسل له جيشاً ويحمل
له ما كان يحمله إلى التتار على أن يكون غياب الدين كيكائوس كيسخرو على
ما هو عليه ملكاً على الروم ، ثم اختلف البرواناه مع أمراء الروم ففارقه بعضهم إلى

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦١٨ ، العبرج ٥ ص ٣٩١ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦٨ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦٩ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٣٥ ، تاريخ الحميس ج ٢

السلطان الظاهر بيبرس وساروا من قيسارية وذلك بقصد الدخول في خدمة الظاهر وإعلان الولاء والطاعة له . فقدموا على السلطان في الشام فجهزهم إلى القاهرة وعاد الظاهر في شهر رجب ٦٧٤ هـ - ديسمبر ١٢٧٥ م إلى مصر ثم وقع خلاف بين أبغا وابن عمه في تلك الآونة وتغلب أبغا عليه وأخضعه لحكمه وأخذ عليه شروطاً بعدم الثورة عليه .

موقعة أبلستين ٦٧٥ هـ - ١٢٧٦ م :

عزم السلطان الظاهر على دخول بلاد الروم لأسباب منها ما وعده به معين الدين البرواناه ووصول بعض أمراء بلاد الروم وأنحيازهم إلى الظاهر بيبرس وتشجيعهم له على أخذ بلاد الروم « فتقوا عزمه على ذلك » ونتيجة لعلم السلطان بميل أمراء الروم إليه أرسل الأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي ومعه ألف فارس إلى بلاد الروم ، وأرسل معه رسالة إلى أمراء الروم يحثهم على طاعته والانقياد إليه . فلما وصل الأمير بدر الدين الأتابكي إلى الأبلستين^(١) صادف جماعة من جيش الروم فقدموا إليه الهدايا والعطايا وسألوه أن يبقى على حياتهم مقابل أن يقوموا بقتل من في أبلستين من التتار ثم يسيروا معه إلى السلطان الظاهر بيبرس فأمنهم على حياتهم فخذوا ما أتفقوا عليه . وحضروا معه إلى الشام وكان السلطان قد دخل دمشق في المحرم ٦٧٥ هـ - يونيه ١٢٧٦ م . فلما قدم عليه أمراء الروم مع بدر الدين أحسن إليهم وبعث حريمهم إلى القاهرة ثم وصل إليه الأمير سيف الدين جندرباك صاحب الأبلستين ومعه الأمير مبارز الدين سواربن الجاشنكير ، ومعهم جماعة من أمراء الروم فاستقبلهم الظاهر بنفسه وعند ذلك تقوى عزمه على غزو بلاد الروم . ولكنه قبل أن يقدم على ذلك أرسل كتاباً إلى الأمراء بمصر يستشيرهم في إرسال الجيش لغزو بلاد الروم . وطلب من الأمير بيسرى والأمير أقرش أن يحضرا إليه فخرجا إليه بصحبهم الأمير سنقر الأشقر بعساكره . وسار الظاهر بعد ذلك إلى حلب وسير الأمير سيف الدين بلبان الزينى الصالحى بجماعة من الجيش فتقدموا حتى وصاوا عينتاب وعاد الظاهر إلى مصر فدخاها في الرابع عشر من ربيع الأول ٦٧٥ هـ - أغسطس

(١) مدينة ببلاد الروم أسماها الحار البشان وهي قرية من أفسوس مدينة أهل الكهف : السلوك

١٢٧٦ م وأصدر الأوامر بالاستعداد التام لاستعراض القوات العسكرية انشغل الجميع في الاستعداد . ثم بدأ السلطان في استعراض قواته بالقاهرة في الخامس من جمادى الأولى ٦٧٥ هـ - أكتوبر ١٢٧٦ م ، وشاهد رسل التتار وأمراء الروم الاستعراض العسكري وجرت مناورة بين فرق الجيش اشترك فيها الظاهر ووالده الملك السعيد ووزعت الجوائز في نهاية الاستعراض على العلماء والأمراء واتمضاة والمقدمين وبعد الانتهاء من الاستعراض ، خرج السلطان بجيشه في رمضان ٦٧٥ هـ - فبراير ١٢٧٧ م يريد بلاد الشام وغزو بلاد الروم ، فوصل إلى دمشق ثم سار إلى حلب فوصلها أول ذي القعدة من نفس السنة وسار منها إلى جيلان ، وبعد ذلك سار الأمير نور الدين علي بن مجلى نائب حلب للمرابطة على شاطئ الفرات ومعه جيش حلب لحفظ معابر النهر خوفاً من دخول التتار إلى الشام فجأة ، فلما وصل نور الدين بجيشه إلى الفرات جاءه الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وربط بعسكره مع نائب حلب ، أما السلطان الظاهر فإنه ما مر على مملكة ببلاد الشام « إلا أخذ معه عسكرها وخزائنها وأسلحتها » وتحرك من جيلان إلى عينتاب وسار في المسالك المؤدية إلى بلاد الروم ، وكان الأمير سنقر الأشقر قد قدم الجيش بفرقة صغيرة للاستطلاع فوقع في طريقه على ثلاثة آلاف فارس من التتار يقودهم كراى فانهمزموا أمامه وأسر جماعة منهم وذلك في يوم الخميس التاسع من ذي القعدة ٦٧٥ هـ - أبريل ١٢٧٧ م فلما علم أبغا ملك التتار بذلك جهز جماعة من عرب خفاجة ليهاجموا جيش حلب على حين غرة ، فعلم نائب حلب وهو مرابط على الفرات فاستعد لهم وقاتلهم وهزمهم وأخذ منهم ألفاً ومائتي جمل^(١) ، وفي تلك الآونة علم السلطان الظاهر باتفاق الروم والتتار على قتاله ، وكانت بلاد الروم قد تغلب التتار عليها وأبقوا سلطانها على حاله بكافة البرواناه . وكان التنافس قائماً بين المغول والظاهر بيبرس على الاستيلاء على بلاد الروم ، وأقام التتار لهم أميراً وعسكراً من التتار في أرض الروم ويسمونه بالشحنة أى حامية التتار ببلاد الروم ، وكان البرواناه يتأذى من التتار لاستطالتهم عليه وسوء ملكهم ، فأراد مكاتبة الظاهر ، يستعنه على قتال التتار ، ولكنه تغير ولما قدم الظاهر لغزو بلاد الروم حسب وعد البرواناه نقض عهده وراسل أبغا

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٢٨ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٦٨ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ١٧٤ ، الحوادث الجامعة ص ٣٨٩ ، ذيل مرآة الزمان ج ٣ ص ١٧٦ .

فأمده بجيش من المغول^(١) لقتال الظاهر ، وسار التتار بقيادة الأمير تتاورن وعسكر الروم بقيادة معين الدين البرواناه ، فاستعد الظاهر ورتب قواته ، وتأهب للقاء العدو ووصل بقواته إلى جبال تشرف على صحراء أباستين ، هذا في الوقت الذي نظم فيه العدو صفوفه في كتاب وكراديس كل كردوس يزيد على ألف فارس^(٢) ، ثم اصطف العسكر الرومي في جانب واحد حتى لا تحدث مؤامرة بين الروم والمسلمين^(٣) واشتد حمى القتال ، فلما رأت القوات الإسلامية حملة السلطان على العدو حملوا على العدو حملة واحدة واشتد القتال فترجل التتار عن خيولهم « وقاتوا قتال الموت فلم يغن ذلك عنهم شيئاً »^(٤) فعظم القتل في التتار وانهزمت قواتهم وهربت فرقة منهم واعتصمت بالجبال فأدركتها القوات الإسلامية وأحاطت بهم وترجل العدو عن الخيول ، وقاتلوا قتالاً شديداً إلا أنهم برغم الشجاعة التي أبدوها في القتال انهزموا هزيمة نكراء وتذرق جمعهم ووقع عدد كبير منهم في الأسر وكان من بين الأسرى في هذه الواقعة سيف الدين قبجق الذي سيصبح نائباً للشام في عهد الملك الناصر محمد وأمر الظاهر بتتل أسرى التتار ، وقتل تتاورن مقدم التتار في نفس الواقعة .

أما بالنسبة لمعين الدين البرواناه فقد نجا بنفسه وأنهزم أصحابه ، وكان السلطان الظاهر يظن إذا ما وصل إلى قيسارية^(٥) أن البرواناه سيحضر إليه بناء على ما اتفق عليه سرّاً ولكن البرواناه لم يفعل ، وسار إلى قيسارية فدخلها وأجتمع مع السلطان غياب الدين وكيكاوس بن كيخسرو وأمراء البلاد وأخبرهم بالهزيمة وقال لهم « إن التتار المنهزمين دخلوا قيسارية فتكوا بمن فيها حقاً على المسلمين » وأشار على السلطان والأمرء بالخروج ، فخرج السلطان بأهله إلى توقات - دوقات - إحدى بلدان الروم وبينها وبين قيسارية مسيرة ثلاثة أيام^(٦) وقال العلامة شهاب الدين أبو الثناء محمود قصيدة في موقعة الأبلستين منها :

(١) العبرج ٥ ص ٣٩٢ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٢٨ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٦٨ ، الذيل ج ٣ ص ١٧٦ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٢٨ ، النجوم ج ٧ ص ١٦٨ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٦٨ ، جامع التواريخ ج ٢ م ٢ ص ٦٢ ، الذيل ج ٤ ص ١٧٧ .

(٥) مدينة عظيمة كبيرة في بلاد الروم ، آسيا الصغرى : مرصد الاطلاع ٣ ص ١١٣٩ .

(٦) السلوك م ٢ ق ٢ ص ٦٢٩ .

سرت من حمى مصر إلى الروم فاحتوت عليه وسوراه الظبا واللاهاذم
 بجيش تظل الأرض منه كأنها على سعة الأرجاء في الضيق خاتم
 كتاب كالبحر الخضم جيادها إذا ما تهادت موجه المتلاطم
 يحيط بمنصور اللواء مظفر له النصر والتأييد عبد وخادم

دخول السلطان الظاهر قيسارية :

قدم السلطان الظاهر الأمير سنقر الأشقر بجماعة من العسكر لمطاردة المنهزمين من التتار للمسير إلى قيسارية ، وكتب معه كتاباً إلى أهل قيسارية بالأمان ، وإخراج الأسواق والتعامل بالدرهم الظاهرية ، إظهاراً للطاعة والخضوع ، ومر سنقر الأشقر بفرقة من التتار معهم بيوتهم فأخذ منهم جانباً وأدركه الليل فهرب من بقي منهم في الظلام ، ثم سار الظاهر في يوم السبت الحادى عشر من ذى القعدة عام ٦٧٥ هـ - أبريل ١٢٧٧ م قاصداً قيسارية الروم فاستولى على ما في طريقه من البلاد ، ووصل الظاهر قيسارية يوم الأربعاء الخامس عشر من ذى القعدة ٦٧٥ هـ - أبريل ١٢٧٧ م فخرج أهل المدينة لاستقبالهم ومعهم العلماء والأكابر ، رساروا حتى وصل الظاهر إلى أن وصل قيسارية فارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل واجتمع الروم وأخذوا في الغناء والضرب بالآلات الموسيقية فقبل لهم : « هذه الهيئة لا تنفق عندنا ، وما هذا موضع الغناء بل موضع الشكر »^(١) ثم وزع السلطان الأموال على الأمراء وعين النواب ، وصلى الجمعة في قيسارية ولبس شعار السلطنة السلجوقية ، وجلس على تخت بن سلجوق وهناه الناس ، ثم جمعت الأموال التي تركها النازحون عن قيسارية وزوجة البرواناه ، ثم أرسل معين الدين بهنى السلطان الظاهر بيبرس بجاوسه على تخت الملك في قيسارية ، فرد عليه الظاهر يطلب حضره ليقره على مملكة الروم . فطلب البرواناه مهابة خمسة عشر يوماً^(٢) وكان يهدف البرواناه بذلك أن يصل أبغا بتواته ليدرك الظاهر وهو بقيسارية ، حيث كان البرواناه طلب

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٣٠ ، صبح الأعشى ج ١٤ ص ١٥٤ ، الذيل ج ٣ ص ١٨١ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٣١ ، النجوم ج ٧ ص ١٧٣ ، جامع التواريخ ج ٢٢ ص ٦٢ .

من أبغا الحضور نفسه ، فلما علم الظاهر بما ينويه البرواناه ومراسلته لأبغا ملك التتار خرج من قيسارية في الثاني والعشرين من ذي القعدة ٦٧٥ هـ - أبريل ١٢٧٧ م ومن أسباب خروج الظاهر من قيسارية وعودته منها قلة الأوقات وخراب البلاد وفاق العساكر الإسلامية لبعدهم عن بلادهم فتترروا وودتهم والساطان .

عودة السلطان الظاهر من قيسارية :

لما علم الظاهر بتأمر البرواناه مع التتار خرج من قيسارية إلى الشام في الثاني والعشرين من ذي القعدة ٦٧٥ هـ - أبريل ١٢٧٧ م بعد أن وزع الغنائم والأموال على الأبراء . فلما وصل إلى خان كيتباز بجهة الرمانه سير الأمير طبرس الوزير إلى الأرمن . فحرق وقتل وسبي من بها من الأرمن ، وذلك لأهم كانوا قد أخذوا جماعة من التتار . ثم سار السلطان إلى الأباستين ومر على مكان الوقعة ايرى رجم القتلى من التتار فذكر أهل الأباستين أنهم عدوا من القتلى ستة آلاف وسبعمائة وستين قتيلاً . فأمر السلطان بدفن من قتل من عسكر المساحين وترك منهم قايلاً دون دفن وقصد بذلك نكايه التتار في إظهار كثرة من قتل منهم وقلة من قتل من المسلمين ثم سار الظاهر في طريق عودته في الرابع من ذي الحجة ٦٧٥ هـ - مايو ١٢٧٧ م ووصل إلى حارم في السادس من ذي الحجة حيث أمضى عيد الأضحى بها ثم سار إلى دمشق فدخاها في السابع من المحرم ٦٧٦ هـ - ١٢٧٧ م فعلم الظاهر في يوم دخوله بتقدم أبغا لقتاله وتنهياً للخروج إليه ، وعزم أبغا على غزو الشام وذلك في فصل الصيف قتال الأبراء المغول : « وإن أواخر الحريف والشتاء أنسب لتلك الحملة فتربت لذلك السبب وأرسل رسولا إلى بيبرس يهدده ويخوفه فيما قل : « إنكم تنقضون فجأة كاللصوص وتطاردون فرساننا وطلائعنا وتقتلون بعضهم . فإذا ما باغتنا الأخبار وتحركنا لصدكم تفرون كاللصوص ، فإذا كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا ، فادخلوا الميدان كالرجال وثبتوا الأقدام ، تعال لكي ترى مناني وتنظر إلى التواء عناني . فإن كنت جبلاً فستنهار من أساسك . وإن كنت حجراً فان تستقر في مكانك ، فأين شاهدت المقاتلين . يا من لم يسمع عواء الثعالب ، وإن لم تأت فإن جيوشنا مستعدة لقتالك في طبيعة الشتاء . وإذا امتدت نار غضبنا إلى بلاد الشام

فإنها بلا ريب سوف تأتي على كل ما لكم من أنخضر ويابس لأن الله الأزلى قد وهب جنكيزخان وذريته بلاد العالم ، وأدخل السراة المتمردين في ربة طاعتنا ، وكل من يخالف أهل الإقبال تكون مخالفته دايلا على الإدبار» وأخذ السلطان الأهبة وعزم على الخروج لقتال العدو ، غير أن رجلا من التركمان وصل إلى الظاهر وخبره بأن أبغا عاد إلى بلاده . فلما تأكد الظاهر من عودته أطمأن وكان ذلك من أطف الله تعالى بالمسلمين . فإن الملك الظاهر في يوم الجمعة منتصف المحرم ٦٧٦ هـ بدأ يعاني مرض الموت .

انتقام أبغا من الروم :

لما علم أبغا ملك التتار بهزيمة جيشه في موقعة أباستين ٦٧٥ هـ - ١٢٧٧ م سار بقواته لمحاربة السلطان الظاهر بيبرس للانتقام من هذه الهزيمة فقباه في الطريق معين الدين البرواناه ، وكان الظاهر قد رحل من قيسارية وسار إلى الأباستين فتبعه أبغا ، فلما وصل إلى مكان الموقعة بالأباستين وعابن القتلى وجددهم من التتار ، فشق ذلك عليه وكان قد علم بأن البرواناه هو السبب في الهزيمة وأنه كاتب الظاهر وأطعمه في غزو بلاد الروم ، ولذلك عاد أبغا إلى قيسارية ونهبها وقتل من ببلاد الروم من المسلمين واستمرت غارة جيش التتار سبعة أيام في بلاد الروم فقتل المساحين ونهب الأموال والدواب وقيل « إنه قتل من الفقهاء والقضاة والرعايا ما يزيد على مائتي ألف نفس » ولم يقتل أحد من النصارى وشمل القتل من أرزن الروم ^(١) إلى قيسارية وقيل إن عدد من قتل في هذه الكارثة كان خمسمائة ألف ، ^(٢) ، ثم سار أبغا معه غيات الدين صاحب بلاد الروم وقبض على البرواناه ثم قتله وقطعوا إربا ، وكان ذلك في محرم ٦٧٦ هـ - يونية ١٢٧٧ م ، وكان قد اتهم البرواناه بثلاثة اتهامات أولها أنه هرب من الأعداء (المسلمين) وثانيها أنه لم يخبر قادة المغول على الفور بمجيء الظاهر بيبرس وثالثها أنه لم يقدم سريعاً إلى أبغا وقتل جماعة من أصحاب البرواناه ،

(١) بلدة من بلاد أرمينية ، مراد الاطلاع ج ١ ص ٥٥ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٢٢ ، وذكر في دول الإسلام ج ٢ ص ١٣٦ أن عددهم فوق مائة

ألف قتيل .

وكان البرواناه يكاتب الظاهر في الباطن وظن الظاهر أنه سيحضر إليه في قيسارية إلا أنه لم يفعل بل أرسل أبغا ليحضر لقتال الظاهر قبل رحيله عن قيسارية .

وفاة السلطان الظاهر بيبرس ٦٧٦ هـ - ١٢٧٧ م :

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من المحرم عام ٦٧٦ هـ - يوايه ١٢٧٧ م توفي السلطان الظاهر وأخفى موته لئلا تضطرب الأحوال بالبلاد ويطمع فيها العدو ، واتفق الرأي على نقله إلى القلعة بدمشق سرًا ثم كتب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار بذلك إلى الملك السعيد بمصر ، فلما وصل إليه الخبر أخفى نبأ وفاة أبيه ، فأمر السعيد بدفن والده في دار العتيق بعد أن اشتراها بثمانية وأربعين ألف درهم وجعلها مدرسة للشافعية والحنفية . أما عن وفاة الظاهر فقد اختلفت الآراء حول أسبابها فهناك رأى يقول إنه مات مسمومًا وذلك عن طريق الخطأ ولم يكن المقصود بالسم هو بل آخر اسمه الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك بن السلطان الملك المعظم عيسى ابن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب وكان الظاهر يريد اغتياله بالسم . فأسقاه الساقى في كأس ثم ملأ نفس الكأس عن طريق السهو للظاهر . وانتهى الأمر بوفاة الظاهر بيبرس . وهناك رأى آخر يقول إن وفاته كانت بسبب إصابته في الحرب مع المغول بنشابة . فلما حاول إخراج النصل من جسمه لم يتمكن من ذلك وبقى أياما يحاول ذلك « ولما أذن للجرائح أن يخرجوه وجاهد في إخرجه مع خروج النصل فارق الدنيا » ولقد كان الملك الظاهر « ملكًا شجاعًا غازيًا مجاهدًا مرابطًا خليقًا بالملك خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه » وقال الحافظ أبو عبد الله الذهبي في تاريخه عن الظاهر : « وكان خليقًا بالملك لولا ما كان فيه من الظلم والله يرحمه ويغفر له ، فإن له أيام بيضًا في الإسلام ومواقف مشهورة وفتوحات معدودة » .

وخلف من الأولاد الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان والملك نجم الدين خضر والملك بدر الدين سلامش . فتولى السلطنة بعده ابنه الملك السعيد ناصر الدين

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٤٧ ٥ - جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) تنمة المختصر ج ٢ ص ٢٢٤ ، العبر ج ٥ ص ٣٩٢ - ٣٩٣ ، البداية والنهاية ج ١٣

ص ٢٧٢ - ٢٧٤ . الدول والملوك م ٧ ص ٩٩ - ١٠٠ ، المختصر ج ٤ ص ٩ - ٢٠ .

محمد بركة خان ، وكان مولده في صفر سنة ٦٥٨ هـ - يناير ١٢٦٠ م وتولى السلطنة في يوم الخميس الثالث عشر من شوال سنة ٦٦٢ هـ - أغسطس ١٢٦٤ م وذلك في حياة والده ، لكن لم يكن له من السلطنة شيئاً إلا بعد وفاة والده وخطب له على المنابر بمصر في السابع والعشرين من صفر ٦٧٦ هـ - يولييه ١٢٧٧ م وحاف له الأمراء والعساكر ولكن الملك السعيد أساء السيرة وحبس معظم أمراء والده الكبار ، وحكم الأصاغر والخاصكية في شأنه وقتل الأمير بدر الدين بياليك النائب ، وتغير على الأمراء وقلب لهم ظهر المجن فنفرت منه قاوب الأمراء مثل الأمير علم الدين سنجر الحلبي والأمير بدر الدين بيسرى رسييف الدين قلاوون وشمس الدين سنقر الأشقر - والمماليك الصالحية فإنهم كانوا يرون أنهم أحق من الظاهر نفسه بالسلطنة ، فصار ابنه « الملك السعيد يضع من أقدارهم ويقدم عليهم مماليك الأصاغر » ثم قبض الملك السعيد على شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير بدر الدين بيسرى فدخل خال الملك السعيد الأمير بدر الدين محمد بن بركة خان إلى أخته أم السلطان ، وقال لها « قد أساء ابنك التدبير بقبضة علي مثل هؤلاء ، الأمراء الأكابر والمصاححة أو ترديه إلى الصواب لئلا يفسد نظامه وتقتصر أيامه ، فلما حدثته أمه في ذلك اعتقل خاله ثم أفرج عنه والأمراء المذكورين بعد تدخل والدته ، ولكن بعد أن « تمكنت عداوته من قاوبهم » واتفق رأى الأمراء على مهاجمة السعيد بالتملعة والثورة عليه وبعثوا إلى السعيد « بأنك أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء فيما أن ترجع عما أنت عليه وإلا كان لنا ولك شأن » وانتهت هذه الحركة بالصاح بعد أن أقسم لهم السعيد على أنه لا يريد بهم سوءاً فرفضوا وانصرفوا » ولكن الملك السعيد لم يغير سياسته فأشار عليه خاصكيته بإبعاد الأمراء الأكابر عنه فجهز جيشاً لغزو بلاد سيس في ذي الحجة عام ٦٧٧ هـ أبريل ١٢٧٩ م بقيادة الأمير قلاوون الأتبي والأمير بيسرى فساروا إلى سيس قلوبهم غاضبة فغزوا سيس وقتلوا وسبوا وعادوا إلى الشام فأراد الملك السعيد الإيقاع بهم فساروا إلى مصر وحاصروا الملك السعيد ، فلما طال الحصار طالب السلطان وساطة الخلفية الحاكم بأمر الله أحمد فقال للأمراء : يخاع الملك السعيد نفسه من الملك ونعطيه الكرك ، ثم خلع الملك السعيد نفسه في السابع من ربيع الآخر ٦٧٨ هـ أغسطس ١٢٧٩ م وسافر إلى الكرك بعد أن اتفق الأمراء على أن يعطى الكرك

والشوبك ويذهب معه أخوه نجم الدين خضر فيكون الشوبك لخضر والكرك للملك السعيد ثم مات الملك السعيد في الحادى عشر من ذى القعدة ٦٧٨ هـ / مارس ١٢٨٠ م .

سلطنة الملك العادل سلامش وخلعه :

استقر رأى الأمراء بعد ذلك على سلطنة الملك العادل بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس بعد أن عرضت السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون الأنفى فامتنع وقال : « أنا ما خلعت الملك السعيد طمعاً فى السلطنة والأولى ألا يخرج عن ذرية الملك الظاهر . » فاستدعوا سلامش وكان عمره سبع سنوات وبويع بالسلطنة وأقسم الجيش والأمراء على الولاء له وجعلوا الأمير سيف الدين قلاوون أتابكاً ومدبراً للمملكة ، وأقيم عز الدين أيبك الأفرم نائباً للسلطنة ولم يكن قصد قلاوون بامتناعه عن قبول السلطنة حرصاً على بقاء الحكيم فى أسرة الظاهر وإنما أراد تسكين الفتنة خشية إثارة المماليك الظاهرية الذين كانوا يشكرون معظم الجيش . وكانت القلاع والنيابات بيد نواب الملك السعيد ، ولذلك كان هدف قلاوون المهادنة ثم استغلال الظروف الملائمة للوثوب على سلامش ، وانتزاع السلطنة منه . فقبض على أعيان الأمراء الظاهرية وأعضاء المعارضة « فكان صورة أتابك وتصرفه تصرف الملوك » واستمال المماليك الصالحية وأعطاهم . الإقطاعات والأموال فقضى بهم جانبه . وجمع الأمراء فى العشرين من رجب ٦٧٨ هـ نوفمبر ١٢٧٩ م وتحديث معهم عن صغر .. سن السلطان وقال لهم : قد علمتم أن المملكة لا تكون إلا برجل كامل فاتفق رأيهم على خلع الملك العادل بدر الدين سلامش فخلعوه وأرساره إلى الكرك ، وكانت مدة ملكه مائة يوم ثم أعيد سلامش إلى مصر بعد ذلك وأرسل عام ٦٨٦ هـ / ١٣٨٧ م مع أخيه خضر وأهله إلى إستانبول وأقام بها حتى توفى عام ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م .

الفصل الرابع

علاقات قلاوون الألفى وأسرته بالمغول

سلطنة سيف الدين قلاوون الألفى ٦٧٨ هـ - ١٢٧٩ م :

جلس قلاوون على تخت الملك في يوم الأحد العشرين من شهر رجب عام ٦٧٨ هـ نوفمبر ١٢٧٩ م^(١) وحلف له الأمراء وأرباب الدولة تلقب الملك المنصور^(٢) فخرج عليه الأمير سنقر الأشقر وحلت عساكر وأمراء دمشق لنفسه وتلقب بالملك الكامل وقبض على حسام الدين الأمير نائب قلعة دمشق لأنه لم يحلف له وكذلك على جماعة من الأمراء^(٣) .

وأصبحت الشام خارجة عن حكم السلطان قلاوون الذي اقتصر نفوذه على الديار المصرية وأعمالها ، ثم سارت القوات إلى دمشق وعدتهم ثلاثة آلاف فارس بقيادة الأمير حسام الدين ايتمش بن أطلس خان في طلب الأمير سنقر الأشقر إلا أنه شعر بضعف مركزه وتفرق أتباعه وطاب النجدة من التتار فكتب إلى أبغا بن هولكو يحثه على القدوم لفتح بلاد الشام والاستيلاء عليها . وكتب معه أيضاً الأمير عيسى بن مهنا بمثل ذلك فلما علما بمسير جيش دمشق إليهم سار سنقر الأشقر في الصحراء إلى صهيون وتحصن بها^(٤) وبذلك عادت بلاد الشام إلى حكم

(١) ذكر أنه جلس على سرير الملك في ثاني عشر رجب ٦٧٨ هـ بدائع الزهور ج ١ ص ١١٤ وذكر في البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٨٩ أنه جلس في الحادي والعشرين من رجب .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٦٣ - ٦٦٤ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٩٢ ، تاريخ الدول والملوك م ٧ ص ١٥٢ مرآة الجنان ج ٤ ص ١٨٩ ، المختصر ج ٤ ص ١٢ - ١٣ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ١٧٠ والنجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٩٤ والمعبر ج ٥ ص ٢٩٦ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٨٩ ، تاريخ الدول والملوك م ٧ ص ١٦٢/١٦٣ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ١٨٩ وتاريخ دولة المماليك في مصر ص ٥٥٦ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٧٧ - ٦٧٨ ، العبر ج ٥ ص ٣٩٦ النجوم ج ٧ ص ٢٩٨ ، تنمة المختصر ج ٢ ص ٢٢٧ ، تاريخ مختصر الدول ص ٥٠٣ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٩٠ - ٢٩١ المختصر ج ٤ ص ١٣ تاريخ الدول والملوك م ٧ ص ١٧٢ .

Howorth, Part 3, P. 267 & The Mamluk Sultans P. 751.

السلطان مصر وترددت الرسل بين سنقر الأشقر والسلطان . وذلك بسبب وصول طلائع التتار ، وهجومهم على الشام ثم اتفق أخيراً في ربيع الأول ٦٨٠ هـ يونية ١٢٨١ م مع الملك منصور على أن ينزل عن شيزر^(١) ويعطيه الثغر وبكاس وتبقى معه الحصون وهي (صهيون وبرزيه وبلاطنس وإفامية وأنطاكية وكفر طاب)^(٢) . وأن تقتصر قواته على ستمائة فارس فقط ويطرد الأمراء الذين لحقوا به وتم الصالح وكتب له السلطان تقليداً بتك الأعمال وولى على نيابة شيزر الأمير بابان الطباخي ثم أرسل الملك المنصور جيشاً لحساب سنقر الأشقر عام ٦٨٦ هـ ١٢٨٧ م فاضطر الأخير إلى الاستسلام وقدم إلى مصر وأحسن إليه الملك المنصور إلا أنه كان يضم الحيانة فقد انشق على السلطان قلاوون بعد قليل وكاتب التتار واستحثهم على غزو بلاد الشام وكذلك فعل الأمير عيسى بن مهنا ، فكان لهذه المراسلات الدافع الأساسي إلى غزو التتار لبلاد الشام هذه السنة . مستغنين انشغال السلطان بالمسائل الداخلية وكثرة تغير السلاطين واختلاف الكامة ، وظنوا أن سنقر الأشقر ومن معه يتفق معهم على قتال المنصور قلاوون وكان أبغا ملك المغول يريد الانتقام لهزيمة جيشه في موقعه الأباستين ولذلك فإنه حاول التحالف مع الصايبين هذه المرة ، هذا بالإضافة أنه كان يريد تقديم المساعدة والنجدة لسنقر الأشقر ، فلما سارت قوات التتار في ثلاث فرق الأولى وقد سارت من جهة بلاد الروم بقيادة صمغار وتنجى وطرنجى ، والثانية من جهة الشرق بقيادة بيدو بن طوغاي بن هولاكو^(٣) وصحبته صاحب ماردين ، أما الفرقة الثالثة وفيها معظم الجيش فسارت مع منكو تمر بن هولاكو وبلغ عدد الجيش المغولي خمسين ألف فارس ومعهم صاحب سيس والأرمن ، فلما علم المسلمون بذلك استعدت قواتهم وخرج الأمير ركن

(١) قلعة تشتمل عليها كورة بالشام قرب المعرى بينها وبين حماة يوم في وسطها نهر الأرنؤ مرصد الاطلاع ج ٢ ص ٨٢٦ .

(٢) صهيون حصن من أعمال حمص : مرصد الاطلاع ج ٢ ص ٨٨٩ ، وبلاطنس حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية من أعمال حلب - مرصد الاطلاع ج ١ ص ٢١٥ ، وكفر طاب بلدة بين المعرة وحلب : مرصد الاطلاع ج ٣ ص ١١٧٠ وبرزية قرية في غوطة دمشق مرصد الاطلاع ج ١ ص ١٨٣ وأفامية مدينة حصينة من سواحل الشام مرصد الاطلاع ج ١ ص ٩٩ .

(٣) وتذكر أنه بيدو بن طوغاي بن هولاكو : تاريخ الدول والملوك م ٧ ص ١٨٥ .

الدين إياجي على بعسكر من دمشق وانضم إليه العسكر المحاصر لشيزر (وكانت تابعة لسنقر الأشقر قبل الاتفاق معه) ثم سارت القوات من مصر بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش النجمي واجتمعت هذه القوات في ظاهر حماه وراسلوا الأمير سنقر الأشقر في إخماد الفتنة وتوحيد الكلمة والوقوف في وجه العدو وقالوا له : هذا العدو قد دهمنا وما سببه إلا الخائف بيننا وما ينبغي هلاك الإسلام والمصلحة أننا نجتمع على دفعه فأرسل إليهم عسكرياً من صهيون أقاموا حول الحصن ، وبقى كل فريق في جهته للدفاع ولم يختلطوا مع عسكر الساطان . ووقع في هذه الآونة الاضطراب في بلاد الشام وخاصة مدينة حلب وشرع الناس في الرحيل إلى الديار المصرية ، ثم تحركت قوات العدو وهاجمت أعمال حلب في الحادي والعشرين من جمادى الآخرة ٦٧٩هـ / أكتوبر ١٢٨٠م واستولوا على عين تاب وبغراس^(١) ودربسك ، ثم دخلوا مدينة حلب وكانت خالية من العساكر بدون مقاومة . فقتلوا ونهبوا وأحرقوا الجوامع والمدارس ودار السلطنة ودور الأمراء وأقاموا بها يوهين يكثرون الفساد والقتل بحيث لم يسلم منهم إلا من اختفى في المقابر ، ثم تركوها وخرجوا يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة ٦٧٩هـ / أكتوبر ١٢٨٠م وعادوا إلى بلادهم بما أخذوه من الأسلاب ، أما عن الأسباب التي أدت إلى رجوع التتار وعودتهم وانسحابهم من حلب فكان منها اتفاق الأمير سنقر الأشقر وعسكر الملك المنصور على قتالهم كما أن بعض من كان استتر بحلب يئس عن نفسه من الحياة فصعد مئذنة الجامع وكبر بأعلى صوته على التتار : « جاء النصر من عند الله » وأشار بمندبل إلى جيش المسلمين وأخذ يقول في خلال ذلك . اقبضوهم من البيوت مثل النساء . فتوهم التتار من ذلك وخافوا وخرجوا من حلب على وجوههم ، ولعل من أسباب ارتدادهم وعودتهم أيضاً علمهم بوصول الساطان بقواته من مصر لقتالهم^(٢) وكان السلطان المنصور تلالون قد جمع العساكر في مصر وأنفق في كل أمير ألف دينار وفي كل جندي خمسمائة درهم واستخاف على مصر ابنة الملك الصالح على وسار إلى غزة ، ثم قدم عليه من كان ببلاد الشام

(١) قلعة شمال حلب : مرصد الاطلاع ج ١ ص ٢٠٩ .

(٢) إذ أن سنقر الأشقر ندم على تشجيعه التتار واتفق أخيراً مع السلطان وتحصن في حصن صهيون

ومعه أسرته - الحوادث الجامعة ص ٤١٢ .

من عسكر مصر وجماعة من أمراء سنقر الأشقر الذين تخلوا عنه فأكرمهم ، الملك المنصور ، وبقي السلطان في غزة إلى العاشر من شعبان ٦٧٩هـ : ديسمبر ١٢٨٠م فلما علم بعودة التتار إلى بلادهم عاد إلى مصر بعد أن غاب عنها خمسين ، يوماً^(١) وأمر السلطان الأمير سيف الدين بابان الطباخي نائب حصن الأكراد ، بغزو الفرنج بحصن المرقب^(٢) لمساعدتهم التتار عند دخولهم حلب ولهاجمة الفرنج بلاد المسلمين فجمع الطباخي العسكر وحمل المجانيق والآلات ونازل حصن المرقب إلا أن الفرنج تغلبوا على المسلمين ومات من المساميين حوالي مائتي فارس وراجل فعاد الملك المنصور من مصر بقتواته في أول ذي الحجة ٦٧٩هـ / مارس ١٢٨١م فخرج الفرنج إليه وطلبوا تجديد الهدنة ، وكانت قد انقضت فعمدت الهدنة في يوم الأحد الثالث عشر المحرم ٦٨٠هـ / مايو ١٢٨١م وذلك بعد أن أطلقتوا أسرى المسلمين في موقعة المرقب السابقة واشترط عليهم عدم التعاون مع التتار في ظرف من الظروف^(٣) .

وفي سنة ٦٨٠هـ -- ١٢٨١م علم أبغا بن هولاکو بأن أهل الشام يهاجمون حدود بلاد الروم وديار بكر ويدمرون تلك البلاد وينهبون خلالها ويثيرون الفتن ، فتألم لذلك وصمم على المسير إلى تلك البلاد فسار متصيداً ولم يعبر نهر الفرات ، وحاصر الرحبة ويمكن أن نضيف إلى ذلك مراسلات الأمير سنقر الأشقر إلى التتار والتي كان يستحثهم فيها على غزو الشام ، وكذلك كان الخلاف بين ، المماليك عاملاً هاماً من العوامل التي دفعت التتار إلى الإسراع في الغزو فسارت القوات المغولية وبلغ عددها ثمانين ألفاً بقيادة منكوتمر أخى أبغا بن هولاکو ودخل بلاد الروم ونزل بين قيسارية والأباستين ، فلما علم الملك المنصور قلاوون بذلك أرسل الكشافة لاستطلاع أخبار العدو وتحركاته وأهدافه فقاابوا جماعة من العدو وأسروا واحداً منهم وأرسلوه إلى السلطان ، وكان السلطان قد وصل دمشق

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٨٣ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٠٠ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٩٢ .

Howarth, Part 3, P. 268.

(٢) قلعة من ناحية حمص . الأعشى ج ٤ ص ١٤٤ والمرقب قلعة بالقرب من ساحل البحر

الأبيض ، صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٠٠ ، المبرج ٥ ص ٣٩٧ .

فاستماله حتى أخبره بأن التتار في نحو ثمانين ألفاً سيهاجمون بلاد الشام في أول رجب ٦٨٠ أكتوبر ١٢٨١م فأخذ الملك المنصور يستعد واستدعى العساكر وحضر إليه الأمير أحمد بن حجي من العراق ومعه أربعة آلاف فارس بأساحتهم، وحضرت النجدات من الملك المسعود خضر صاحب الشوبك ، ونجدات سائر العربان والترکمان ثم انقسمت قوات التتار فرقاً . فرقة بقيادة أبغا ملك التتار وسارت إلى الرحبة ومعه صاحب ماردین وفرقة ثانية من جانب آخر بقيادة منكوتمر فخرج الأمير بجكا العلائى بالكشافة إلى جهة الرحبة في حين اضطربت بلاد الشام وجفل الناس إلى الجنوب حتى نزلت حلب من أهلها^(١) أما الملك المنصور فإنه سار بقواته التي بلغت نحو خمسين ألف مقاتل إلى المرج^(٢) ومنه إلى حمص ومعه الجيش ووصل إليها في الحادي عشر من رجب ٦٨٠ أكتوبر ١٢٨١م فلما علم به سنقر الأشقر صاحب صهيون حضر إليه على أن يعود إلى حصونه وأعماله بعد انتهاء القتال ومعه الأمير ايتمش السعدى وازدمر الحاج وسنجر الدوادارى ، وبيجق البغدادى وكراى . وشمس الدين الطنطاش ، وكل منهم بعساكره ، فسر الملك المنصور بذلك سروراً عظيماً، ثم تقدمت قوات المغول إلى عين تاب ، وهاجم أبغا بن هولاکو قلعة الرحبة في السادس والعشرين من جمادى الآخرة ٦٨٠ أكتوبر : ١٢٨١م بقوات بلغت ثلاثة آلاف فارس وسار منكوتمر بقواته حتى وصل إلى حماه وخرب المناطق المجاورة لها ، وعام الملك المنصور ودو في حمص بأن منكوتمر تقدم بخمسين ألفاً من التتار وثلاثين ألفاً من الكرج والروم والأرمن والفرنجة^(٣) ، وعلم المنصور أيضاً بأن الأمير ركن الدين بيبرس العجمى الخالق هرب إلى منكوتمر وأخبره بأحوال المسلمين « وداه على عورات المسلمين » ورتب السلطان قواته في الصباح يوم المعركة ، وترآى الجمعان واستعد كل جانب للقتال ، وكان جيش المغول ضعف عدد جيش المسلمين ولم يكن التتار

(١) المختصر ج ٤ ص ١٤ ، تنمة المختصر ج ٢ ص ٢٢٨ النجوم ج ٧ ص ٣٠٢ السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٩١ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٩٤ تاريخ الدول والملوك م ٧ ص ٢١٣ .

(٢) تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٥٧ .

(٣) كان قائد الأرمن ملكهم ليون والكرج بقيادة ديمترى الثانى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٩٢

حاشية ١ .

قد جمعوا منذ عشرين سنة مثل هذا العدد تقدمت جحافلهم نحو المسلمين وبدأ القتال والتحم الفريقان بوطاة حمص - الأرض السهلة - قريباً من مشهد خالد بن الوليد . وذلك يوم الخميس الرابع عشر من رجب ۶۸۰ هـ أكتوبر ۱۲۸۱م واضطر المسلمون إلى الانسحاب أمام شدة الهجوم التتري واستمر القتال طوال النهار ، واجتاز المغول حمص حتى بحيرة حمص وكانت حمص قد أغلقت أبوابها فوق التتار على العامة والسوقة والمجاهدين والغلمان بظاهر حمص ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وأشرف الناس على التلاف فاضطرب الناس في دمشق والشام وانزعجوا انزعاجاً شديداً وأما التتار الذين طاردوا المسيرة المنهزمة فإنهم أيقنوا أنهم انتصروا فنزلوا عن خيولهم وتركوها ترعى في مرج حمص ونهبوا البلاد والحزائن وما وجدوه وهم يحسبون أن بقية جيش التتار سيصل إليهم ، فلما أبطأوا عليهم في الوصول أرسلوا من يكشف لهم الأخبار فعادت كشافة هؤلاء التتار وأخبرتهم بأن منكوتمر قائدهم هرب فكروا راجعين فوراً . هذا ما حدث بالنسبة لمدينة التتار وميسرة المسلمين أما مدينة المسلمين فإنها ثبتت أمام العدو وهزمت ميسرته حتى انتهت إلى القلب . والكوسات تضرب ثم تقدم سنقر الأشقر وبيسرى وطبرس الوزيري وبكتاش الفخري أمير سلاح وإيتمش السعدى ولاجين نائب دمشق وطرنتاي نائب مصر والأدير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري وغير هؤلاء بعد أن ، تعاهدوا وتحالفوا على الجهاد ومعهم كثير من الأمراء والأجناد . وعيسى بن مهنا وفرسانه ، وهاجموا التتار فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وكان منكوتمر قائد الجيش التتار قائماً في جيشه فنزل عن فرسه ونظر من تحت أقدام الخيول فرأى الأنتقال والدواب تملأ وجه الأرض فاعتقد أنها عساكر المسلمين ولم يكن الأمر كذلك إذ تفرقت عساكر السلطان ما بين منهزم ومتقدم للقتال حتى بقي مع الملك المنصور نحو ثلثمائة فارس لا غير عندئذ ركب منكوتمر فرسه فوق على الأرض فنزل التتار عن خيولهم لرؤيته والأطمئنان عليه . فانشغلوا به فعندما رآهم المسلمون قد ترجأوا ، استغلوا فرصة وحملوا عليهم حماة واحدة « كان الله معهم فيها فانتصروا على التتار » (۱) .

(۱) السلوك ج ۱ ق ۳ ص ۶۹۵ النجوم ج ۷ ص ۳۰۴ . تاريخ الدول والملوك م ۷

Howorth, Part 3, P. 272.

أما ميمنة التتار التي كسرت ميسرة المسلمين فإنها لما عادت من ناحية حمص كان الملك المنصور «قد أمر أن تالف الصاجق (الرايات) ويبطل ضرب الكوسات وذلك بسبب تفرق من كان معه ولم يبق معه إلا نحو الألف فارس^(١) فمرت به عساكر التتار عائدة من جهة حمص وكوساته لا زالت تضرب ولم تتعرض له . فلما تقدموا عنه قليلا تبعهم بفرسانه فانهمزوا هزيمة قبيحة لا يلوون على شيء وكان ذلك تمام النصر» . وكان ذلك عند غروب الشمس من يوم الخميس الرابع عشر من رجب ولحق هؤلاء المنهزمون بمنكوتمر ولو حدث أنهم قاتلوا المسلمين لما وجدوا فيهم قوة في ذلك الحين « ولكن الله نصر دينه وهزم عدوه مع قوتهم وكثرتهم .

وأسفرت هذه الواقعة عن خسائر كثيرة في الأرواح إذ قتل كثير من التتار وعاد السلطان إلى مكانه من أرض المعركة وكتب البشائر بالنصر ، وبات الملك المنصور تلك الليلة وهي ليلة الجمعة وهو في منزله في وقت السحر ثار صياح لم يشك الناس أن العدو قد تجمع وعاد لهم من جديد فاستعد السلطان وركبت العساكر على الفور فتبين بعد قليل أن العساكر الإسلامية التي تتبعت فاول التتار المنهزمة قد عادت ظافرة منتصرة وقتل من التتار في الانهزام أكثر ممن قتل في ميدان القتال . واختفى كثير منهم بجانب الفرات ، فأمر السلطان المنصور بحرق المزروعات والأعشاب الموجودة بتلك الناحية فاحترق من العدو جماعة كثيرة وهلك منهم خاق كثير ممن سلكوا الطريق الصحراوية إلى سلمية وقتل من التتار صمغار أحد مقدميهم واستشهد من المسلمين نحو مائتي شهيد منهم الأمير عز الدين أزدمر الحاج الذي جرح منكوتمر مقدم التتار وألقاه عن فرسه ، فكان ذلك سبباً في هزيمتهم ثم رحل السلطان يوم الجمعة الخامس عشر من رجب من ظاهر حمص إلى البحيرة (بحيرة حمص) وذلك ابتعاداً عن جيف وزمم القتلى التي تزكم الأنوف ، وخرج الأمير بدر الدين بيلياك أيضاً لتتبع التتار .

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٩٥، النجوم ج ٧ ص ٣٠٤ تاريخ الدول والملوك م ٧ ص ٢٢٧ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٩٥ تاريخ الخميس ج ٢ ص ٤٢٤ دور الإسلام ج ٢ ص ١٤١ - السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٩٥ .
The Mamluk Sultans, P. 751.

أحوال دمشق ومصر أثناء موقعة حمص ٥٦٨٠ - ١٢٨١ م :

ونتيجة لهجوم التتار على بلاد الشام اضطربت أحوالها . ولما اشتد خوف الناس اجتمعوا بأسرهم في جامع دمشق وذلك في الثاني عشر من رجب ٥٦٨٠ أكتوبر ١٢٨١م وتضرعوا إلى الله وضجوا وبكوا وحملوا المصحف العثماني على رؤوسهم وخرجوا من الجامع إلى المصلى خارج دمشق وهم يسألون الله النصر على الأعداء وذكرنا أن ميسرة المسلمين المنهزمة أمام التتار قد وصل بعض من انهزم إلى صفد وغزة ودمشق ، فعظم خوف الناس واشتد اضطرابهم فلما كان يوم الجمعة التالي ليوم المعركة بعد صلاة الجمعة وصل الطائر بالبشائر بنصر الإسلام على التتار فدقت البشائر بقلعة دمشق وسر الناس سروراً عظيماً وزينت دمشق والقلعة ابتهاجاً بهذا النصر ، ولكن في منتصف ليلة السبت السادس عشر من رجب ٥٦٨٠ / أول نوفمبر ١٢٨١م وصلت جماعة كثيرة من المنهزمين وأخبروا الناس بالهزيمة ولم يكن هؤلاء بلغهم خبر انتصار ميمنة المسلمين على ميسرة التتار ، فاضطربت دمشق وشرع الناس في الاستعداد للرحيل ، وفتحت أبواب المدينة ولم يبق إلا خروج الناس منها على وجوههم هاربين . فوردت الأخبار بانتصار المسلمين وكان ذلك عند آذان الفجر وهدأت نفوسهم .

وأرسل نائب فاقون رسالة سريعة إلى مصر أخبر الأمراء فيها بأن جماعة المنهزمين في ميسرة الجيش الإسلامي قد وصلوا إلى فاقون ناجين بأنفسهم ، ووصل بعض الأمراء إلى قطيا في الطريق إلى مصر منهم ابن الإيدمرى ، فشق ذلك على أهل مصر ، فأخذ الناس يمتنون في صلواتهم وكثرت قراءة صحيح البخارى والقرآن الكريم . ثم اجتمعوا في المشهد الحسيني وفي الجوامع والمساجد وأخذوا يدعون الله بالنصر للإسلام ، ومما زادهم قلقاً ما جاء في رسالة صاحب فاقون من انهزام العسكر الإسلامي فنهض الملك الصالح على بن قلاوون وأرسل على الفور فرقة من الجيش بقيادة الأمير صارم الدين أزيك الفخرى ، ومعه كثير من العربان إلى قطيا وذلك لمنع دخول أحد من المنهزمين إلى مصر وإعادةتهم إلى السلطان وذلك حفظاً على شعور الناس وعدم إضعاف الروح المعنوية عند أهل مصر ، ولكن هذه الساعات

من القلق والخوف والاضطراب لم تستمر طويلاً إذ وصلت البشائر تحملها الطيور المخلقة^(١) بأن القوات الإسلامية حققت النصر على الأعداء بفضل الله وعونه ثم قدمت كتب البريد تحمل تبشير النصر فدقت بالبشائر في القاهرة وزينت المدينة وكذلك باقى البلاد ، فأرسل الملك الصالح إلى السلطان يشفع فى المنهزمين ويطلب منه العفو عنهم .

وقام السلطان بإعادة الأمير سنقر الأشقر إلى حصن صهيون على عادته ، ورد معه من كان معه من الأمراء وهم أيتمش السعدى وسنجر الدوادارى وكراوى الترى هذا بالرغم من عثور الأمير طرنطاي النائب على رسائل من سنقر الأشقر ويطمش السعدى يحرضون فيها التتار على غزو الشام ومساعدة سنقر الأشقر وأصحابه لهم ، ولكن السلطان لم يطلع عليها أحداً ثم عاد السلطان من منزلته بظاهر حمص إلى دمشق فدخلها يوم الجمعة الثانى والعشرين من رجب ٦٨٠هـ نوفمبر ١٢٨١م ، وعظم سرور الناس وفرحهم ثم سير السلطان المنصور الأمير بدر الدين بيليك الإيدمرى إلى الرحبة ليدفع عنها التتار ثم سار المنصور فى الثانى من شعبان ٦٨٠هـ نوفمبر ١٢٨١م متوجهاً إلى مصر فزينت القاهرة لاستقبال المنصور ، وخرج السلطان من غزة فى الثالث عشر من شعبان ، ولما اقترب السلطان من مصر خرج الملك الصالح والأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة إلى الاستقبال ثم دخل المنصور قلعة الجبل يوم السبت الثانى والعشرين من شعبان ٦٨٠هـ ديسمبر ١٢٨١م وأسرى التتار بين يديه وقد حمل بعضهم الصناجق الترية وهى مكسورة وكان يوم دخول السلطان يوماً مشهوداً يتناسب مع الانتصار العظيم الذى أحرزه المسلمون على التتار « وحصل للناس السرور الذى لا مزيد عليه وعملت القلاع وزينت المدن » .

وفى الوقت الذى كان فيه أبغا بن هولكو محاصراً للرحبة ، وصلت بشائر السلطان إلى نائبها تبشر بهزيمة التتار فى حمص ، فدقت البشائر فى القلعة ، فعلم العدو بذلك ومن ثم قرر كما قرر أبغا الرحيل فوراً إلى بغداد ووصل الأمير

(١) الطيور المخلقة هى المعطرة بالرائحة العطرية المسماة خلوق وكانت العادة فى نقل الأخبار الصادرة أن تسمح الطيور والبطائق التى تحملها بهذه المادة من العطور أما طيور الأخبار السيئة وبتائقها فكانت تطلق بالسواد . السلوك ج ١ ق ٣ .

بدر الدين الإيدمرى إلى حلب وسير العساكر لتتبع التتار إلى الفرات فهربوا وغرق منهم عدد كبير ، وعبرت طائفة منهم إلى قلعة البيرة فقاتلهم أهلها وقتلوا كثيراً ، وتقدمت البقية إلى بغراس ، وفيهم أكابر سبب وأمرائها فخرج عليهم الأمير شجاع الدين السينانى^(١) بمن معه وهاجمهم ، « فقتلهم وأسروهم عن آخرهم بحيث لم يفلت منهم إلا دون العشرين^(٢) وتقدم من التتار إلى سلمية حوالى أربعة آلاف . فكم نواب الرحبة لهم في المسالك والمعابر فاضطروا إلى المسير في الصحراء » فماتوا عطشاً وجوعاً ولم يسلم منهم إلا نحو ستمائة فارس « فلم ينجوا من الصحراء حتى خرج عليهم أهل الرحبة وقتلوا أكثرهم . وأحضروا بعض الأسرى إلى الرحبة حيث قطعت رؤوسهم بها^(٣) ولحق أبغا بقية التتار المنهزمين وفيهم أخوه منكوتمر وهو مجروح ، فلما دخل أبغا بغداد سار منها إلى همدان وسار منكوتمر إلى بلاد الجزيرة ونزل بجزيرة ابن عمر ، وكانت لأمه قد أعطها إياها والده هولاء كما أخذها^(٤) . ثم توفى أبغا غمّاً وكمداً إذ لم يكن أمر هذه الغزوة إلا تحقيقاً لرغبة منكوتمر بناء على تشجيع سنقر الأشقر ، والغالب أنه مات في أواخر ٥٦٨٠ م / مارس ١٢٨٣ م . وتوفى منكوتمر بعده في المحرم ٦٨١ هـ أبريل ١٢٨٣ م ، وتولى الحكم من بعد أبغا أخوه تكدار بن هولاءكو- أما سنقر الأشقر فإن السلطان أرسل إليه جيشاً حاصره في حصن صهيون فاستسلم وبقى في مصر إلى أن توفى السلطان وتولى الأشرف خليل فقبض عليه^(٥) .

علاقة السلطان المنصور مع أحمد تكدار :

تولى عرش السلطنة ببلاد مغول فارس بعد وفاة أبغا أخوه تكودار سنة ٦٨١ هـ ١٢٨٢ م^(٦) واتخذ له اسم أحمد واعتنق دين الإسلام قبل سلطنته واستهل عهده

(١) لعد نسبة إلى سينان وهي قرية من قرى مرو . السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٩٨ حاشية ٧ .

(٢) الدول والملوك م ٧ ص ٢٢١ إلى ٢٢٢ السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٩٨ ، البداية والنهاية ج ١٣

ص ٢٩٦ .

Howorth. Part 3, P. 273

(٣) الدول والملوك م ٧ ص ٢٢٢

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٩٨ - ٦٩٩ ، جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ٨٤ .

(٥) المختصر ج ٤ ص ٢٢ : ٢٧ .

Howorth, Part 3, P. 286.

(٦)

بإظهار إخلاصه وتمسكه بالدين الإسلامي ، فأرسل كتباً إلى فقهاء بغداد منها « وأنا جلسنا على كرسى الملك ونحن مسلمون ، فيلقون أهل بغداد هذه البشرى ويعتمدون في المدارس والوقوف وجميع وجوه البر ما كان يعتمد في أيام الخلفاء العباسيين ، ويرجع كل ذى حق إلى حقه في أوقاف المساجد والمدارس ولا يخرجون عن القواعد الإسلامية ، وأنتم يا أهل بغداد مسلمون وقد سمعنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا تزال هذه العصاة الإسلامية مستظهرة ظافرة إلى يوم القيامة) ، وقد عرفنا أن هذا الخبر صحيح ورسوله صحيح ورب واحد أحد فرد صمد فتطيبون قلوبكم وتكتبون إلى البلاد جميعاً » كما أرسل كتاباً آخر إلى الملك المنصور سيف الدين قلاوونى أعلن له فيه رغبته في حماية الإسلام والذود عنه والعمل على إعلاء شأنه وأظهر رغبته في السلام وعلاقات الود والصداقة مع الجيران المسلمين ، وكان السلطان تكودار أحمد أرسل كتابه إلى الملك المنصور قلاوون متضمناً إسلامه وطلبه للصلح مع رسل وهم الشيخ قطب الدين محمود الشيرازى قاضى سيواس وأتابك السلطان مسعود سلطان سلاجقة الروم الأمير بهاء الدين وشمس الدين محمد بن الصاحب شرق الدين بن التتبي فوصل هؤلاء الرسل إلى البيرة ، فسار إليهم الأمير حسام الدين لاجين الرومى ، والأمير سيف الدين كبك الحاجبان وقد أمر المنصور « أن يبالغا في الاحتراز على الرسل وإخفائهم عن كل أحد فسار بهم في الليل ولم يشاهدتهم أحد ووصلوا بهم قلعة الجبل ومعهم كتاب الملك أحمد أغا سلطان تكودار بن هولاكو ، وكان يتضمن أن أحمد تكودار قد تولى حكم التتار وأنه مسلم ، وأمر ببناء المساجد في بلاده والمدارس والأوقاف كما أمر بمسير الحجاج إلى بلاد الحجاز لأداء الفريضة ، وطلب أيضاً اجتماع كلمة المسلمين وإخماد الفتنة والشقاق وإقرار السلام والوفاق ، وذكر أيضاً أن أصحابه وجدوا جاسوساً فى زى الفقراء فقبضوا عليه ومع ذلك فإنه لم يقتل بل أعادوه إلى بلاد الإسلام مراعاة للسلطان وليكون ذلك دليلاً على حبهم فى السلام ورغبتهم فيه ، وقال إنه لا داعى لإرسال الجواسيس بعد أن يتم الاتفاق وينعقد الصلح ويجتمع الصف ، وعاد رسل أحمد أغا سلطان (تكودار) وقد أكرمهم الملك المنصور ولم يعلم الناس بقدمهم وذلك ليلة السبت الثانى من رمضان ٦٨١هـ ديسمبر ١٢٨٢م فوصلوا إلى حلب فى السادس من شهر شوال ٦٨١هـ ٨ يناير

١٢٨٣م^(١) وعبروا الفرات وعادوا إلى بلادهم ومعهم رد السلطان الملك المنصور قلاوون الذي كان يتضمن تهينة بالإسلام ، والموافقة على العمل من أجل الصلح والاتفاق ونبد الحرب والطعان . وقال قلاوون لرسل تكودار أحمد إنه أي قلاوون لا يثق إلا بكلام الشيخ عبد الرحمن لتدينه وصدق حديثه عن الملك أحمد أغا سلطان ووزيره صاحب ماردين^(٢) وجهز هؤلاء الرسل وسار معهم الأمير سيف الدين كبك المنصوري الحاجب وكان ذلك في الثاني من شهر رمضان ٦٨١هـ ديسمبر ١٢٨٢م . فوصلوا حلب في السادس من شوال ومنها إلى بلادهم . وفي شهر رمضان ٦٨١هـ ديسمبر ١٢٨٢م قدم الشيخ على الأويراني^(٣) وكان قد أسلم على يديه بعض أولاد التتار فسار بهم إلى الشام ومصر ووصل إلى السلطان في قلعة الجبل في الثامن عشر من ذي القعدة ومعه إخوته الأقوش وعمر وطوخي وجوبان وجماعة غيرهم ، فأحسن الملك المنصور وفادتهم واستخدم بعضهم في جملة مماليكه الخاصكية ، ثم نقل إلى الأميريات منهم الأقوش وتمر وعمر وهم إخوة إلا أن الشيخ على أظهر ما أوجب أن يسجن . فسجن هو والأقوش ومات تمر وعمر في خدمة الملك المنصور قلاوون وكان وصل من التتار إلى بلاد الإسلام تسعة عشر وافداً بأولادهم وسارت حملة عسكرية من قلعة كركر^(٤) الحصار قلعة قطيبا^(٥) وهي إحدى قلاع آهنا فاستولوا عليها من التتار . وأقيم فيها الرجال وعملت بها الأسلحة والغلال فعادت إلى حصون الإسلام المنيغة^(٦) ثم أخذوا قلعة كختا^(٧) من النصاري وذلك بطلب أهلها فتسلمها نواب السلطان بمدينة حاب

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٠٨ .

(٢) نص الخطاب بالملحق رقم ٢ .

(٣) نسبة إلى أويرات وهو اسم جنس يطلق على عدة قبائل مغولية سكنت أواسط آسيا وكانت خضعت لسيادة جنكيزخان وأزرتيه في حروبه وتزوجت بيوتها مع بيته وفي عهده غازان رجل معظم هؤلاء إلى الدولة المملوكية : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٠٨ حاشية ٣ .

(٤) كركر هي اسم لعدة بلاد والمقصود بها هنا حصن قرب ملطية بينها وبين آمد مراد الاطلاع

ج ٣ ص ١١٥٩ .

(٥) قلعة بالقرب من كركر وكانت في يد التتار وفيها نوابهم ومنها خطورة كبيرة على قلعة كركر

والشعور المجاورة لها : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧١٤ حاشية ٢ .

(٦) الشروق ج ١ ق ٣ ص ٧١٤ .

(٧) قلعة شرق ملطية تحت حكم الأرمن شمال حلب . الأعشى ج ٤ ص ١٢٠ .

وشحنوها بالأسلحة والغلال وأصبحت جبهة ضد الأرمن .

أرسل السلطان أحمد تكودار رسولا من قبله هو الشيخ عبد الرحمن وقد حضر هذا الرسول بالذات لأن السلطان قلاوون لا يثق إلا في كلامه ليقوم بإبرام الصلح بين الطرفين فوصل إلى البيرة وعلى رأسه الجتر فتلقاه الأمير جمال الدين أقش الفارسي أحد أمراء حلب وكان مع الشيخ عبد الرحمن جماعة في نحو مائة وخمسين نفرًا ، ومنهم صمد أغوا والأمير شمس الدين محمد بن التيني المعروف ابن الصاحب وزين الدين صاحب ماردين وسار به في طريق غير مطروق - حتى أدخله ومن معه إلى حلب ثم سار بهم إلى دمشق فدخلها ليلة الثلاثاء الثاني عشر من ذي الحجة ٦٨٢ هـ مارس ١٢٨٣م دون أن يراه أحد فأقام في قلعة دمشق حتى حضر السلطان إلى دمشق في سنة ٦٨٣ هـ ١٢٨٤م . وقد قدموا للسلطان هدية نفيسة وأدوا رسالة الملك أحمد تكدار - وبعد أن عرف أخبرهم بأن مرسلهم الملك أحمد أغا سلطان قد قتل على يد أرغون بن أبغا وملك البلاد بعده ثم أعادهم إلى قلعة دمشق وخفض ما كان يصرف لهم من الرواتب - وطلب إليهم تسليم ما معهم من مال السلطان أحمد أغا فأنكروا أن يكون معهم مال ففتشهم وأخذ منهم جملة كبيرة من الذهب واللؤلؤ من بينها سبحة للشيخ عبد الرحمن قدرت بمائة ألف درهم ثم اعتقلوا جميعًا ، ومات الشيخ عبد الرحمن في الثامن والعشرين من رمضان ٦٨٣ هـ ديسمبر ١٢٨٤م ثم أطلق سراح البقية ماعدا الأمير شمس الدين محمد بن الصاحب فنقل إلى قلعة الجبل بمصر واعتقل بها ، ثم تولى نيابة دار العدل بمصر ويبدو أن ما فعله الملك المنصور مع هؤلاء الرسل كان نتيجة لوفاء أحمد أغا ثم للتأكد من شخصيات هؤلاء الرسل وصدقهم فيما قالوه بالإضافة إلى أنه غضب لإنكارهم لما معهم من مال السلطان أحمد تكودار . ولهذا عاقبهم بالسجن وكذلك ساءت العلاقة بين المغول في فارس والمماليك وعادت إلى سيرتها الأولى من حروب وتناحر ، وبذلك يمكن أن نقول إن العلاقات بينهم كانت علاقات تشاحن وتناحر تخللتها فترة سلم قصيرة هي فترة حكم أحمد تكودار التي كان من المحتمل أنها لو طالت لحققت للإسلام فترة سلم وتقدم . إلا أن تكدار أحمد أغا ملك التاتارتوفي ٦٨٣ هـ - ١٢٨٤م .

ولقد كان هذا السلطان كما رأينا اعتنق الإسلام ورغب في عقد أواصر الصداقة

بينه وبين سلطان المماليك والذي كان يمثل بحق في تلك الفترة القوة الحامية للإسلام، ولقد أشهر أحمد تكدار إسلامه وإسلام أهله وكان إسلامه هذا أساساً لمفاوضات الصلح مع الملك المنصور قلاوون وإيجاد روابط الود بين الدولتين المغولية والمملوكية، إلا أن التتار لم تكن فكرة الصلح والتفاهم بالفكرة المقبولة لأذهانهم أو بالفكرة التي يرضوا عنها وكذلك كان تقبلهم للعقيدة الإسلامية إذ أنهم ما زالوا تشيع فيهم روح الهمجية والتخريب، كذلك كانت الوثنية متسلطة على أذهانهم، ومن ثم نقموا على تكدار لأنه أسلم وإلغامه لهم على دخول دين الإسلام، هذا بالإضافة إلى أنه فاض الملك المنصور الذي كان في نظرهم العدو اللدود إذ أن المغول لم ينسوا الهزيمة العظيمة التي لحقت بهم في موقعة حمص ٦٨٠هـ / ١٢٨١م التي أعقبها وفاة أبغا ثم منكوتر، لهذا كله ثار المغول على السلطان أحمد أغاتكدار وقتلوه وكذلك فعلوا بنائيه الناق قائد جيشه وذلك بعد أن دارت بينه وبين خصومه الذين بتزعمهم أرغون بن أبغا معارك رهيبة طاحنة انتهت بقتل تكدار وساطنوا عليهم أرغون بن أبغا الذي كان متزعماً لخصوم أحمد تكدار وكان ذلك في العاشر من شهر أغسطس سنة ٦٨٣/١٢٨٤هـ ثم بدأ في اضطهاد المسلمين وصرفهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية، وحرم عليهم الظهور في بلاطه وتحكم فيهم وزيره سعد الدولة اليهودي وراح يقضى على ما للإسلام من مكانة وينهج سياسة أسلافه أو بمعنى أصح السياسة التقليدية للمغول وهي محاولة الاتفاق مع الصليبيين في حاف لتحطيم قوة المماليك، تلك القوة التي كانت تقف دائماً أمامهم وتحول دون تنفيذ أطماعهم. وأمام هذا التقارب الذي بدأ يلوح في الأفق بين التتار والصليبيين قابله تقارب آخر بين المماليك ومغول القبيلة الذهبية والذين كانوا يكتنون العداوة للتتار، في فارس، وكذلك تحالف مع الإمبراطور البيزنطي وملوك فرنسا وجمهورية جنوة وإمبراطور الجرمان روداف هاسبورج ولقد كان للسياسة العدائية التي انتهجها المغول فارس ضد الإسلام والمسلمين تركت جرحاً عميقاً في قلوب المساحين في مصر والشام، ولم يكتف أرغون بذلك العداوة السافر والاضطهاد للمسلمين بل ذهب أبعد من هذا بأن راسل ملوك الغرب المسيحي والبابا. بل عرض على الأخير حق الاتجار والتنقل في دولته، ومن الواضح هنا أن القصد من هذا إضعاف تجارة المماليك والقضاء

على قوتهم في الشام ، بل زاد على ذلك بأن أعلن عزمه على التنصر إلا أن محاولته كلها باءت بالفشل وإن كانت العلاقات العدائية بين الدولتين ظلت كما هي ، أضف إلى هذا تطلع المماليك إلى فتح العراق وذلك أيام الملك الأشرف خليل .

كان استقر رأى السلطان قلاوون على حصار عكا وفتحها . ومن ثم أزمع السفر إلى بلاد الشام يريد حصار عكا وفتحها إلا أنه قبل أن يترك مسجد تبر بالقرب من المطرية . أصابه المرض واشتدت به العلة ووافته المنية بمعسكره تجاه مسجد تبر خارج القاهرة وكان ذلك ليلة السبت السادس من ذى القعدة ٦٨٩هـ نوفمبر ١٢٩٠م فنقل إلى قلعة الجبل ليلا وعاد الأمراء والعساكر إلى بيوتهم . وكانت مدة سلطنته إحدى عشرة سنة وشهرين وأربعة وعشرين يوماً وعمره نحو السبعين سنة وترك المنصور قلاوون ثلاثة أولاد وهم الملك الأشرف خليل والملك الناصر محمد . والأمير أحمد الذي مات في سلطنة أخيه الأشرف خليل واستقر رأى على أن يكون السلطان الأشرف خليل سلطاناً على البلاد فجاس على تخت الملك بتلعة الجبل يوم الأحد السابع من ذى القعدة ٦٨٩هـ نوفمبر ١٢٩٠م وجدد العسكر له القسم في الثامن من ذى القعدة ٦٨٩هـ / نوفمبر ١٢٩٠م ثم خلع على سائر أرباب الدواة وركب بشعار السلطنة يوم الجمعة الثاني عشر من ذى القعدة ٦٨٩هـ نوفمبر ١٢٩٠م^(١) وجعل الأمير بدر الدين بيدرا نائباً للسلطنة بمصر وجعل شمس الدين محمد بن السلعوس الدمشقي وزيراً ومدبراً للمملكة وعلى يد هذا السلطان تم استخلاص بلاد الشام نهائياً من يد الصليبيين وأتم انتصاراته تلك بالاستيلاء على عكا آخر معقل لهم بعد حصار ولم أربعة وأربعين يوماً وذلك في جمادى الأولى ٦٩٠هـ مايو ١٢٩١م واتبع ذلك بالاستيلاء على باقي معقلهم وهي صور وحيفا وعتليت وصيدا^(٢) .

أشرنا إلى عودة العلاقات الحربية بين المماليك عقب مقتل تكدر أحمد أغا فسارت جماعة من التتار وأغاروا على الرحبة وأخذوا منها كثيراً من الماشية والدواب ، فخرجت إليهم القوات الإسلامية من مشق وتمكنت من ردهم على أعقابهم

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٥٦ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٣ - ٤ المختصر ج ٤ ص ٢٤ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٦٤ - ٧٦٥ . The Mamluk Sultans, P. 753 754.

سنة ١٢٩١هـ / ١٢٩٢م وكان السلطان الأشرف خليل قد خرج من مصر بقواته إلى الشام ، فسار إلى حلب ثم غادرها في الرابع من جمادى الآخرة ٦٩١هـ مايو ١٢٩٢م لمحاصرة قلعة الروم، وكانت في طاعة التتار ولأن أهلها كانوا يوادعون التتار ويحالفونهم ضد المسلمين «وقد سكن أهلها على مخادعة الجار وموادعة التتار ومما ألتمهم على الإسلام بالنفس والمال»^(١) وقلعة الروم هذه ذات موضع حصين غربى الفرات مقابل البيرة ، فنصب الملك الأشرف عليها عشرين منجنيقاً^(٢) واستمر حصارها ثلاثة وثلاثين يوماً^(٣) وفتحها عنوة يوم السبت الحادى عشر من رجب ٦٩١هـ / يونيو ١٢٩٢م وسماها قلعة المسلمين وكان أهلها من النصارى تحت طاعة التتار^(٤) وعاد السلطان إلى دمشق ثم إلى القاهرة فدخلها يوم الأربعاء الثانى من ذى القعدة ٦٩١هـ / أكتوبر ١٢٩٢م^(٥) .

علاقة الأشرف خليل بالمغول فى فارس :

لم تكن حالة دولة مغول فارس فى هذه الفترة تسمح لها بمتابعة سياسة الغزو والإغارة على بلاد الشام وبلاد الإسلام، وذلك لأسباب منها الصراع الداخلى بين ملوك فارس حول الاستيلاء على العرش، وكان كيختو (كيخاتو) ملك التتار الذى خلف أخاه أرغون سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م قد أسرف فى إنفاق الأموال الكثيرة على ملذاته حتى نصبت خزائنه مما أدى إلى ضعف دولته ، وبرغم ذلك فإنه بعث رسولا إلى الملك الأشرف خليل بكتاب يتضمن المطالبة بحجاب لأن أباه هولاكو كان قد فتحها من قبل ويهدد بأنه إذا لم يسمح له بذلك غزا بلاد الشام، فأجابه السلطان الأشرف بأنه قد وافق القان ما كان فى نفسى فأبى - كنت على عزم من أخذ بغداد وقتل رجاله فأبى أرجو أن أردّها دار إسلام كما كانت وسينظر أينا

(١) مرآة الجنان ج ٤ ص ٢١٩ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٧٨ شذرات الذهب ج ٥ ص ٤١٨ .

(٣) دولة بنى قلاوون فى مصر ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٤) الدول والملوك ج م ٨ ص ١٣٦ .

(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٧٨ ، للدول والملوك م ٨ ص ١٣٧ ، دولة بنى قلاوون ص ١٧٣ .

يسبق إلى بلاد صاحبه^(١) وواضح من الرسالة مدى القوة التي كان يشعر بها الأشرف تجاه خصمه حيث تظهر فيها روح التحدي والمبادرة ، ومن ثم بادر بالكتابة إلى نوابه في بلاد الشام بالاستعداد وتجهيز الجيش لهذا الأمر وكان ذلك في عام ١٢٩٣م / ٥٦٩٢هـ إلا أن هذه الاستعدادات لم يكتب لها أن تتم بسبب وفاة كل من السلطان الأشرف خليل ووفاة ملك التتار كيخاتو ٥٦٩٣هـ / ١٢٩٤م إذ خرج بيدو على كيخاتو (كيختو) والتقى معه في قتال شديد انتهى بمقتل كيختو . واستقل بيدو بالملك فخرج عاياه نائب خراسان غازان بن أرغون وجمع الجيوش وقاتل بيدو حتى أخذ الملك منه^(٢) وقتل بيدو بعد معركة حامية قرب همدان . وكان بيدو محبباً للنصرانية وبذل كثيراً من الجهد لوضع العقبات في سبيل نشر الإسلام بين المغول^(٣) .

مقتل الأشرف خليل ٥٦٩٣ - ١٢٩٣م :

كان بيدرا نائب السلطنة في مصر وجماعة معه من الأمراء يدبرون مؤامرة للتخلص من الملك الأشرف خليل ، وانهزوا فرصة خروجه للصيد وحين كان الأشرف في صيده فاجأه المتآمرون بمفرده وقام بيدرا بضربه بسيفه ثم تقدم الأمير لاجين المنصوري وضربه ضربة كانت القاضية ، وكان الأمراء متآمرين للتمثيل بجثته وتمزيقها بسيوفهم وذلك في يوم الاثنين الثاني عشر من المحرم ٥٦٩٣هـ ديسمبر ١٢٩٣م^(٤) وكان ذلك الحادث في مكان يقال له ثروجة بالقرب من الإسكندرية ثم نقلت جثته إلى مقبرة بالقرب من المشهد النيفسي ودفن بها وكانت سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأيام . واتفق رأى الأمراء المتآمرين على جعل الأمير بيدرا ساطاناً على

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٧٦ ، دولة بني قلاوون ص ١٦٤ .

Howorth, Part 3, P. 387.

(٢)

(٣) تنمة المختصر ج ٢ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ . دولة بني قلاوون في مصر ص ١٧٤ .

Howorth, Part 3, P. 387 388.

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٩٠ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤١ ، العبر ج ٥ ص ٤٠٦ .
شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٢٣ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٥١ ، فوات الوفيات ج ١ ص ٣٠١ .
أخبار الأول ص ١٣٠ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٢٥ ، الدول والملوك م ٨ ص ١٦٨ المختصر

The Mamluk Sultans, P. 755.

ج ٤ ص ٢٩ مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٢٢ .

البلاد ولتتبعه بالملك التماهر أو الأوحده . إلا أن تدبيرهم باء بالفشل إذ أن الأمير زين الدين كتبغا وعالم الدين سنجر الشجاعى عارضوا ذلك وأجمعوا أمرهم على أن يولوا أخاه محمد الملك الناصر بن قلاوون .

رأينا كيف فشل تدبير الأمراء لتولية بيدرا ساطاناً واستقر الرأى على سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون ومن ثم اجتمعوا فى قاعة الجبل فى السادس عشر من المحرم ٥٦٩٣ / ديسمبر ١٢٩٣م وأجلسوه على سرير السلطنة وأصبح الأمير زين الدين كتبغا نائباً للسلطنة والأمير عالم الدين سنجر الشجاعى وزيراً ومدبراً للمملكة، ثم أقسمت العساكر للسلطان على الولاء ولكنه كان صغير السن ولم يكن له من السلطنة « إلا اسم الملك من غير زيادة على ذلك »^(١) وسكن كتبغا بدار النيابة بقاعة الجبل واستبد الشجاعى بالوزارة وأصبح المتصرف فى أمور السلطنة . وهابه الناس وقويت شوكته وأحب أن يستبد بالأمور كلها ومن ثم دبر المؤامرات الأمير كتبغا للقبض عليه . واستطاع استمالة الأمراء البرجية والمماليك السلطانية وفرق فيهم نحو الثمانين ألف دينار سرّاً^(٢) وأعلن أن من يأتيه برأس أمير من أمراء كتبغا فإنه سيمنحه إقطاعه . ولكن أحد الأمراء وهو سيف الدين فنغراترى الوافد إلى مصر فى أيام السلطان الظاهر كان من جنس كتبغا فأخبره بما يكيد به الشجاعى له . وبدأ الصراع يلوح فى الأفق بعد أن كان يدبر فى الخفاء وانفض أنصار الشجاعى من حوله وانضموا إلى خصمه . فكانت كفة كتبغا هى الراجحة ، وأمام هذا التحول لم يجد الشجاعى أمامه بداً من الاستسلام وطالب الأمان إلا أن الأمراء رفضوا الاستجابة لطلبه وانتهى الأمر بمقتله على يد أحد المماليك^(٣) ثم فتح باب القلعة وقعد كتبغا والأمراء فى القلعة ودقت البشائر بانتهاء الفتنة وذلك فى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر ٥٦٩٣ / يناير ١٢٩٤م^(٤) . ولم يمض طویل وقت حتى ثار المماليك الأشرفية فى القاهرة بسبب ظهور أحد المماليك الذين شاركوا

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٩٤ . النجوم ج ٨ ص ٤١ . فوات الوفيات ج ١ ص ٣٠٢ المختصر

ج ٥ ص ٣٠ . تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٢٥ - ٢٨ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٨٠١ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٠١ العبر ج ٥ ص ٥٠٧ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٠٢ .

في قتل أستاذهم الأشرف خليل وهو الأمير حسام الدين لاجين . وبعد أن قضى كتبغا على الثوار اجتمع مع الأمراء وحدثهم عن صغر سن السلطان وأن الأمور لا بد لها من سلطان رشيد تخافه الجند والرعاية وتحترم أوامره ونواهيها ، وما لاشك فيه أن هذا الأمر كان بتدبير الأمير حسام الدين لاجين ، لأنه كان يخشى من انتقام المماليك الأشرفية ثأراً لأستاذهم ولذلك حسن الأمير كتبغا عزل الناصر وخوفه من الأشرفية حتى وافق على رأيه واتخذ من ثورة المماليك الأشرفية سبباً مباشراً لتحقيق هدفه واتفق القضاة والخليفة والأمراء على خلع الناصر محمد من السلطنة ، وتسلم كتبغا وجلس على تخت الملك وكان ذلك في يوم الخميس الثاني عشر من المحرم ٥٦٩٤هـ / ديسمبر ١٢٩٤م^(١) وهو نفس اليوم الذي خلع فيه الملك الناصر محمد وكان عمره يوم أن خلع حوالي عشر سنين ثم أرساه لاجين إلى الكرك في شهر صفر ٥٦٩٧هـ / نوفمبر ١٢٩٧م^(٢) أما السلطان الجديد فهو الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري التركي المغلي وهو من سبي التتار في موقعة حدصر الأولى عام ٥٦٥٩هـ / ١٢٦١م وأصبح الأمير حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة بمصر .

الأحوال السياسية في فارس :

كانت تطورات الأحداث في مصر في تلك الفترة كما أشرنا فماذا عن بلاد فارس ؟ ذكرنا أن كيخاتو بن أبغا بن هولاءكو الذي تولى الحكم بعد أخيه أرغون سنة ٥٦٩٠هـ / ١٢٩١م قتل هو الآخر عام ٥٦٩٣هـ / ١٢٩٤م على يد ابن عمه بيدو بن طرغاي بن هولاءكو . وكان غازان بن أرغون بن أبغا نائباً على خراسان في ذلك الوقت ، فخرج وثار على بيدو وحاربه حتى قتله ٥٦٩٤هـ / ١٢٩٥م وأخذ السلطنة منه وكان ذلك عام ٥٦٩٤هـ / ١٢٩٥م وقد اعتنق هذا السلطان الدين الإسلامي وقيل إنه أسلم على يد الشيخ صدر الدين إبراهيم وقد قالوا أيضاً على يد الشيخ إبراهيم الجويني وذكر أن غازان أسلم على يد نائبه نيروز ، ولفظ بالشهادتين ونثر الذهب بيده

(١) ذكر في السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٠٦ أنه جلس على عرش السلطنة في الحادي عشر من المحرم عام ٦٩٤هـ وذكر أيضاً أنه تسلطن يوم الأربعاء التاسع من المحرم ٥٦٩٤هـ المختصر ج ٤ ص ٣١ . تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٣٣ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ . النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٨ ، ٥٠٠ .

المناسبة على الناس « وكان يوماً مشهوداً » ثم لقمته نيروز شيئاً من القرآن ودخل رمضان فصامه وانتشر الإسلام في التتر وكان غازان قد نذر بين يدي هذا الوزير أن يعتنق الإسلام إذا انتصر على بيدو . فلما تحقق له النصر نفذ وعده بمساعدة عالم كبير يدعى الشيخ صدر الدين إبراهيم . ثم شرع في هدم الكنائس والبيع ومعابد الأوثان في تبريز . وجعل غازان من الدين الإسلامي الدين الرسمي لدولته .

وصول التتار الأورانية إلى بلاد الإسلام :

كانت الأسباب التي أدت إلى رحيل هؤلاء الأورانية إلى بلاد الإسلام تكمن في الخلافات السياسية والصراع الداخلي الذي حدث في السنوات العشر الماضية بين المغول في فارس . وكما أشرنا أن بيدو بن طوغاي بن هولاء كو قتل في ذي الحجة ٥٦٩٤ / أكتوبر ١٢٩٥م على يد فازان الذي تملك البلاد من بعده ، وكان طرغاي اتفق مع بيدو على قتل كنمتو بن أبغا فلما ملك غازان البلاد أراد أن يقتل طرغاي ليثأر لعمه كنمتو مما دفع طرغاي للهرب منه . وفي الوقت نفسه تخوف الأورانية من غازان وخشوا أن يبطش بهم . وكان غازان أمر بعض جنوده بالقبض على طرغاي وأصحابه قبل أن يدخلوا بلاد الإسلام ووقع القتال بينهم وبين بولاي مقدم التتار فانتصر طرغاي عليه وقتل أكثر من كان معه^(١) وسار طرغاي وجماعته نحو بلاد الإسلام ثم عبروا الفرات فكتب كتبغا إلى نائب الشام أن يسير الأمير علم الدين سنجر الدواداري إلى الرحبة لاستقبالهم فخرج من دمشق لهذا الغرض وخرج بعده من دمشق الأمير سنقر الأعسر شاد الدواوين . وخرج من القاهرة الأمير قراسنقر المنصوري . فوصل دمشق ووجد أعيان الأورانية صحبة الأمير سنقر الأعسر وعدتهم مائة وثلاثة عشر رجلاً ومقدمهم طرغاي واحتفلوا بهم في دمشق وأحسنوا استقبالهم وهناك اتفق رأى الأمراء مع العادل كتبغا على إحضار أكابر الأورانية إلى مصر وتوزيع باقيهم على بلاد الساحل بالشام ، وكان مجموعهم نحو عشرة آلاف بيت من عسكر بيدو ملك التتار فاخترتوا من بينهم نحو ثلثمائة للقدوم إلى

(١) قيل إنه زوج بنت هولاءكو : السنوك ج ١ ق ٣ ص ٨١٢ وقيل أيضاً إنه زوج ابنة منكوتمر

بن هولاءكو الذي هزم جيشه في موقعة حمص المختصر ج ٤ ص ٣٣ .

مصر والبقية وزعت على بلاد الساحل وسار الأمير قراسنفر بهم إلى مصر . ولما اقتربوا من القاهرة خرج الأمراء بالعسكر إلى لقائهم . واجتمع الناس من كل صوب وحذب إشاهدتهم وساروا إلى قلعة الجبل فأنعم السلطان على مقدمهم طرغاي بإمرة طلخانة وعلى البقية أعطاهم الإقطاعات والرواتب وأنزلوا بالحسنية ولم يكونوا دخلوا في الإسلام بعد ، فشق ذلك على الناس وتضرروا منهم ، وصادف ذلك غلاء عظيم واشتد الأمر على الناس وقال في ذلك الأديب شمس الدين محمد بن دينار :

ربنا اكشف عنا العذاب فإننا قد تلفنا في الدولة المغلية
جاءنا المغل والغلاء فانسلقنا وانطبخنا في الدولة المغلية

وأهل شهر رمضان عام ٥٦٦٥هـ / يولية ١٢٩٦م فلم يصم أحد منهم فأخبر الأمراء السلطان بذلك « فأبى أن يكرههم على الإسلام ومنع من معارضتهم ونهى أن يشوش عليهم أحد وأظهر العناية بهم وقد كان مقدمهم طرغاي والسلطان كتبغا قد تزوجا من بنات هولاء في أيامهم الأولى^(١) وكان السلطان يريد الاستعانة بهم وأن يكونوا عوناً له على خصومه فبالغ في احترامهم وإكرامهم وأعطاهم الكثير من الحرية مما أثار الحقد في نفوس بعض رجال الدولة لأن الأبرانية كانوا من جنس كتبغا وتزوج الأمراء من بناتهم لجمال خلقتهم . وتكاثر نسلهم في القاهرة ، وحضر بعضهم من بلاد الشام وتنافس الأمراء في اقتنائهم مما أدى فيما بعد إلى خلع الملك العادل كتبغا بسببهم إلى جانب عوامل أخرى . وذلك في عام ٥٦٩٦هـ / ١٢٩٦م^(٢) وتسلطن بعده الملك المنصور حسام الدين لاجين فقبض على طرغاي مقدم الأوبرانية وعلى جماعة من أكابره وأرسلهم إلى الإسكندرية وسجنهم بها . ثم فرق جميع الأبرانية على الأمراء . واستخدموهم وجعلوهم من جندهم وكانوا يوصفون بالجمال وحسن الصورة والهيئة . ثم دخلوا في الإسلام واختلطوا بأهل البلاد وتفرقوا في الممالك^(٣) .

(١) الدول والملوك ج ٨ ص ٢٠٤ السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨١٢ حاشية ٢ .

(٢) الدول والملوك م ٨ ص ٢٠٥ .

(٣) السلوك ج ١ ص ٨١٢ - ٨١٣ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦٠ ، الخطط ج ٢ ص ٤٣٧ =

سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين :

كان السلطان العادل كتبغا في بلاد الشام وسار منها راجعاً إلى مصر في المحرم ٥٦٩٦هـ / نوفمبر ١٢٩٦م . وكان الأمير حسام الدين لاجين المنصوري نائباً لسلطنة وقد اتفق مع جماعة من الأمراء على الفتك بالملك العادل كتبغا عند عودته فبدأ ذلك بالقبض على أنصار كتبغا فلما علم الأخير عند عودته بما دبر لاجين ضده وأدرك أن ليس في وسعه مقاومته لاتفاق الأمراء معه ولذلك فضل العودة إلى بلاد الشام ومعه أربعة أو خمسة من خواصه^(١) ، ودخل دمشق آخر المحرم أما الأمير حسام الدين لاجين فإنه اجتمع بالأمراء وأقسموا له على الطاعة وتسلموا وكتب بالملك المنصور حسام الدين لاجين ، ثم خطب له في مصر ثم بالشام ، بعد ذلك . فلما تحقق الملك العادل من سلطنة لاجين واجتماع الأمور في يده ، اجتمع بأمراء دمشق وقال لهم «الملك المنصور لاجين نخشداشي وأنا في خدمته وطاعته»^(٢) ثم كاتب كتبغا الملك المنصور وانتهى ذلك الحال بأن خاع كتبغا نفسه من الملك واشترط على نفسه الامتناع عن الثورة أو التآمر ضد السلطان . ومنحه لاجين قلعة صرخند فسار إليها بأسرته ومماليكه في يوم الثلاثاء التاسع عشر من ربيع الأول ٥٦٩٦هـ / يناير ١٢٩٧م^(٣) وكتب له المنصور لاجين تقليداً بناية صرخند أما الملك المنصور . حسام الدين لاجين المنصوري المعروف بالصغير فإنه اجتمع معه الأمراء وشرطوا عليه شروطاً قبل مبايعته بالسلطنة منها أن يكون معهم كأحدهم ولا ينفرد برأى دولتهم ولا يبسط أيدي مماليكه ولا يقدمهم عليهم وحلفوه على ذلك مرتين . وأقسم له الأمراء وأرباب الدواة بعد ذلك وركب بشعار السلطنة في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من المحرم ٥٦٩٦هـ / نوفمبر ١٢٩٦م حدث ذلك في أيزور بفلسطين

١ - البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٤٣ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٣٨-٣٩ ، الدول والملوك م ٨

ص ٢٠٤ - ٢٠٥ تنمة المختصر ج ٢ ص ٢٤١ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٢٩ .

(١) تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٤٠ - ٤١ ، المختصر ج ٤ ص ٣٤ ، النجوم ج ٨

ص ٦٤ ، السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨١٨ - ٨٢٠ .

(٢) النجوم ج ٨ ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) السلوك ج ١ ص ٣ ق ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، النجوم ج ٨ ص ٦٧ ، ٦٨ ، العبر ج ٥ ص ٤٠٩ .

ومنها خرج إلى مصر فخرج إليه أمراء مصر لاستقباله حيث حلف لهم بيمين الولاء وحلفوا له وركب شعار السلطنة على عادة الملوك والسلاطين^(١) وذلك في الخامس عشر من صفر ٥٦٩٦ / ديسمبر ١٢٩٦م وجعل نيابة السلطنة بمصر للأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري ، وجعل الأمير سيف الدين قبجق المنصوري نائباً على الشام^(٢) إلا أن السلطان لاجين أراد إقامة مملوكه الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامي في نيابة السلطنة مما أغضب الأمراء وأثار معارضتهم مما أثار حنق السلطان عليهم . وقرر تفريق الأمراء المعارضين في البلاد وقبض على البعض الآخر وولى منكوتمر النيابة في العشرين من ذي القعدة ٥٦٩٦ / سبتمبر ١٢٩٧م^(٣) ولكن منكوتمر استبد بالأمر وأخذ يقبض على الأمراء وأساء السيرة مما أثار غضب الأمراء على السلطان إذ كان منكوتمر مسيطراً على السلطان^(٤) ولم يكتف منكوتمر بذلك بل أشار على السلطان بتسيير الجيش والأمراء إلى بلاد سيس لغزوها مستغلاً انشغال المغول بخلافاتهم الداخلية بسبب اعتناق غازان للإسلام وجعله دين الدولة الرسمي ، وهدمه معابد الديانات الأخرى مما أدى إلى قيام ثورات وقتل ومؤامرات في بلاده واضطر السلطان إلى الموافقة على إرسال الحملة إلى بلاد سيس أمام إلحاح منكوتمر ومن الواضح أن غرض منكوتمر من إيفاد هذه الحملة كانت رغبته في التخلص من الأمراء الذين يشكلون جانب المعارضة له والذين كان يخشى من وجودهم وكان قد أشيع في مصر أن المغول يعدون العدة لغزو بلاد الشام^(٥) .

غزو بلاد سيس :

رأينا مما سبق أن بلاد التتار في تلك الفترة كانت تعاني من الاضطرابات والمنازعات الداخلية ، فقد كان مغول القفجاق في نزاع بين طفقطوخان ملك

(١) السلوك ج ١ ص ٨٢٢ ، ٨٢٣ . النجوم ج ٨ ص ٩٩ . المختصر ج ٤ ص ٢٤ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٢٣ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٢٩ .

(٤) شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٤٠ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٥٦ .

(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٢٣ حاشية ٣ ، ٤ .

التفجاق وبين قريبه نوغاي ذلك الصراع الذي انتهى بهزيمة نوغاي وسيطرة طقظو على البلاد . واستمر في الحكم حتى عام ٥٧١٢ / ١٣١٣م وكذلك كان الحال بين مغول فارس فإن غازان قتل وزيره نيروز وذلك لأنه كان مستوحشاً من سلطانه غازان وقام بمكاتبة السلطان لاجين يطلب منه العون والمساعدة ضد غازان إلا أن الأخير اكتشف هذه المراسلات فأرسل إلى قطلو شاه نائب حران يطلب منه التنبض عليه وقتله . وبعد ذلك قتل غازان أخويه وجماعة ممن يابوذون بهم في بغداد^(١) حتى يقضى على كل معارضة . ونتيجة لما تقدم قرر السلطان المنصور لاجين إرسال حملة عسكرية إلى بلاد سبب لأخذها لأنها كانت تخضع للنفوذ المغولي الفارسي ويضاف إلى ذلك رغبة السلطان لاجين ونائبه منكوتمر في التخلص من الأمراء المعارضين لهم بإرسالهم إلى خارج مصر ليأمن شرمهم ومن ثم قرر السلطان أن يسير الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح ومعه ثلاثة أمراء وعشرة آلاف فارس وكذلك كتب السلطان إلى نائب الشام يأمره بتدريب الأمير بيبرس الجالحق وبعض أمراء دمشق وصفد وحماة وطرابلس لغزو سبب وعرضت القوات العسكرية في شهر جمادى الأولى ٥٦٩٧ / فبراير ١٢٩٨م ولما تم الاستعداد وتكاملت القوات تقدم من مصر الأمير بدر الدين بكتاش الفخري ومعه من الأمراء مسلم الدين لاجين الروخي الاستادار وششمس الدين آق سنقر كرتاي وعساكرهم وسار معهم من دمشق الأمير الجالحق العجمي والأمير سيف الدين كجكن . والأمير بهاء الدين قرا أرسلان وعساكرهم ، وسار الجميع في الثامن من جمادى الآخرة ٥٦٩٧ / مارس ١٢٩٨م ومعهم عسكر صفد وحمص وبلاد الساحل وطرابلس والمليس المظفر تقي الدين محمود صاحب حماه فلما علم ملك سبب بتسير الجيش الإسلامي إليه طلب من السلطان لاجين العفو ولكن السلطان لم يجبه : وما إن وصلت القوات الإسلامية إلى حلب لحق بها من مصر الأمير علم الدين سنجر الدواداري بعسكره . ثم سارت القوات إلى جهة سبب فتوجه الأمير بدر الدين بكتاش بفرقة من الجيش من عقبة بغراس إلى الإسكندرونة حتى هاجموا تل حمدون^(٢)

(١) العبره ص ٤١١ .

(٢) وهي قلعة ببلاد الأرمين : صبيح الأعشى ج ٤ : ص ١٣٦ .

هذا في الوقت الذي سار فيه الملك المظفر صاحب حماة والأمير علم الدين سنجر الدواداري وشمس الدين آق سنقر كرتاي في بقية الجيش إلى نهر جيحان وساروا جميعاً إلى سيس ، وكان ذلك في الرابع من رجب ٥٦٩٧هـ / أبريل ١٢٩٨م وهناك وقع الاختلاف بين الأمراء في خطة الهجوم إذ أن الأمير سنجر الدواداري أراد أن يكون الهجوم مجرد غارة بقصد بث روح الخوف في نفوس أهل سيس وأراد أن يكون قائداً عاماً للجيش في حين رأى الأمير بكتاش بحصار ومنازلة القلاع ، وتم الاتفاق أخيراً على القيام بالغارة فقط . فأغار صاحب حماة المعظم على سيس وأغار الأمير بكتاش على أذنه^(١) فأخذوا منها الدواب وقتلوا من ظفروا به من الأرمن ثم ساروا إلى المصيصة وأقاموا عليها ثلاثة أيام . ثم ساروا إلى بغراس ونزلوا بمرج أنطاكية ثلاثة أيام . ثم ساروا إلى جسر الحديد يريدون العودة إلى مصر ، وكان الأمير بكتاش قد أرسل إلى صاحب حلب يخبره باكتفاء الدواداري بالإغارة دون المنازلة والمقاتلة فأرسل نائب حلب بذلك إلى السلطان فغضب علم الدين سنجر الدواداري وأرسل لهم أن مقدم الجيش هو الأمير بكتاش^(٢) وأمرهم بعدم العودة إلا بعد فتح تل حمدون وهددهم بأنهم إن عادوا من غير فتحها حرهوا من إقطاعاتهم بمصر . وأمام هذا الأمر الذي أصدره السلطان اضطرت القوات إلى العودة إلى سيس وساروا إلى سيس من عقبة بغراس وسارت فرقة من الجيش بقيادة كجكن وفرا أرسلان إلى إيباس إلا أنها هزمت بسبب كمين أعده الأرمن في البساتين المجاورة . ثم سار بكتاش بجميع القوات إلى تل حمدون . وقد نرح من بها من الأرمن إلى قلعة نجيمة^(٣) فتسلمها في السابع من رمضان ٥٦٩٧هـ / يونيو ١٢٩٨م^(٤) ثم استولوا على قلعة مرعش ثم تقدمت القوات مع بكتاش إلى نجيمة وجاء البريد من السلطان بمنازلة قلعة نجيمة حتى تفتح يخاصروها من جديد ونازلها الأمراء كل أمير على حدة وأمام نقص الماء والمؤن بسبب الحصار حتى

(١) أذنه هنا بلد من الثغور قرب المصيصة : مرصد الاطلاع ج ١ ص ٤٨ .

(٢) Howorth, Part 3. P. 431 432.

(٣) وهي قلعة على الفرات من الناحية الغربية بينها وبين جسر منبج خمسة عشر ميلاً صبح الأعشى

ج ٤ ص ١٣٧ .

(٤) Howorth, Part 3. P. 431.

(٤)

إنهم تقاتلوا فيما بينهم من أجل الماء وأخيراً اضطروا إلى طلب الأمان فاستسلمت بعد حصار دام ٤٠ يوماً وذلك في ذي القعدة ٥٦٩٧ / أغسطس ١٢٩٨م^(١) فخرج من بقي بها من الأرمن إلى حيث شاءوا . ثم استولى المسلمون على أحد عشر حصناً من حصون الأرمن^(٢) ثم سلم هذه الحصون الأمير بكتاش إلى الأمير سيف الدين اسنادر كرجي من أمراء دمشق وعينه نائباً عليها . ولم يزل بها كرجي حتى قدم التتار فباع ما فيها من الغلال والحواصل ونزح عنها فأخذها الأرمن ثانياً^(٣) وعادت القوات إلى الشام وساروا من دمشق إلى حلب وأقاموا هناك مع الجيش وبعث صاحب سيس يطاب العفو من السلطان^(٤) ويبدو أن السلطان لاجين لم يكن يرغب في عودة الجيش والأمراء إلى مصر فنراه يحاول إشغالهم بغزو سيس لأطول فترة ويطلب معاودة الغزو وإلا قطع أرزاقهم وإقطاعاتهم وكل ذلك تنفيذاً لرغبة نائب السلطنة منكوتمر . . .

ومن الواضح أن الأمير منكوتمر نائب السلطنة كما سبق أن ذكرنا كان يرغب في التخلص من الأمراء المعارضين في مصر والشام وإقامة غيرهم من مماليك السلطان وأصحابه^(٥) وكان يطمع في أن يكون ولي عهد السلطان لاجين ولقد تدمر الأمراء من تفكير نائب السلطان في هذا الأمر . وموافقة السلطان عليه وكان لاجين قد قصد التخلي والراحة^(٦) والدعة ، ولذلك فإن منكوتمر اضطره إلى القبض على أمراء مصر ثم أراد الإيقاع بأمراء الشام ولذلك أرسل الأمير إيدغدي شقير ثم الأمير حمدان بن صلغاي معه أوامر إلى نائب حلب للقبض على بعض الأمراء ومن عجز نائب حلب عن القبض عليه احتال عليه وسقاه سمًا . وصل حمدان ابن صلغاي إلى دمشق ثم سار إلى حمص وصادف بها الأمير قبجق نائب الشام

- (١) السنوك ج ١ ق ٣ ص ٨٤١، ٨٤٠ العبرج ٥ ص ٤١٠. تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٦٨ .
- (٢) السنوك ج ١ ق ٣ ص ٨٤١ ، المختصر ج ٤ ص ٣٥ - ٣٧ ، العبرج ٥ ص ٤١٠ .
- (٣) السنوك ج ١ ق ٣ ص ٨٤١ .
- (٤) السنوك ج ١ ق ٣ ص ٨٤١ .
- (٥) السنوك ج ١ ق ٣ ص ٨٥٢ .
- (٦) السنوك ج ١ ق ٣ ص ٨٥٢ حاشية ٢ .

وكان قد خرج بالجيش لفتح بلاد سبيس واجتمع به فتخيل قبجق من قدومه^(١) وخصوصاً بعد وصول جماعة من جهة التتار وأخبروا قبجق بأن التتار رحلوا إلى بلادهم فزاد ارتياب قبجق في السلطان ومنكوتمر^(٢) فبعث قبجق إلى الأمير بكتمر السلاح دار وغيره من الأمراء يوصيهم ويحذرهم . ومن ثم أرسل رسولا إلى أصحابه الأمراء في مصر لاستطلاع حقيقة الأمر . ولما قدم حمدان بن صلغاي إلى حلب وأخبر الأمير بلبان الطباخي نائبها بالأمر . «توقف» فيه فأخذ الأمير حمدان والأمير إيدغدي شقير بحرضانه ويستحثانه على إلقاء القبض على الأمراء . وحدث أن مات الأمير طقطاي واتهم الأمير حمدان بن صلغاي بقتله بالسم . وأرسل حمدان إلى منكوتمر في مصر يخبره برفض صاحب حلب القبض على الأمراء . فكتب منكوتمر إلى نائب حلب يأمره بتنفيذ الأمر . إلا أنه برغم ذلك أخفقت مؤامرة القبض على الأمراء بسبب تخاذل نائب حلب وأدرك هؤلاء الأمراء سوء نية السلطان ونائبه واجتمع سيف الدين بكتمر السلاح دار والأمير فارس الدين الألبكي والأمير سيف الدين عزاز وغادروا حلب وصاروا إلى حمص للاجتماع بالأمير قبجق فلما وصلوا إليه استقبلهم واستقر رأي الجماعة على الخروج من بلاد الشام والدخول في بلاد التتار ولكن الأخير طالب إليهم الانتظار حتى يصل إليه الخبر من مصر بحقيقة ما دبر السلطان ومنكوتمر لهم فورد الخبر من أصدقائه الأمراء في مصر وهم كرجي وطغجي بالانتظار في الشام فلم يوافق بقية الأمراء خشية وصول الجيش إليهم فلا يستطيعون الحرب إلى بلاد المغول . فسارت . في ليلة الثلاثاء الثامن من شهر ربيع الآخر ٥٦٩٨ / يناير ١٢٩٩ م وساروا إلى سلمية وكان قد تبين للأمير قبجق تفرق عساكره عنه عندما علموا بمخالفته للسلطان وتركوه وساروا إلى دمشق ولذلك عزم على المسير مع الجماعة إلى بلاد التتار^(٣) . فلما علم إيدغدي شقير وحمدان بن صلغاي بمسير الخصوم المطلوبين للسلطان إلى بلاد التتار كتبوا

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٥٣ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢ . Howarth, Part 3, P. 432 .

(٢) تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٤٧ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٩٦ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢ العبرج ٥ ص ٤١١ السلوك

ج ١ ق ٣ ص ٨٥٤-٨٥٥ بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ المختصر ج ٤ ص ٣٧ تاريخ سلاطين

المماليك بمصر ص ٤٨ تاريخ دولة المماليك بمصر ص ٦٨ . Howarth, Part 3, P. 432 .

رسائل إلى الجهات الواقعة على الفرات يطلبون من نوابها القبض على الأمراء
 الهاربين . وسار الأمير إيدغدى بجيش إلى الفرات وتقدم جيش آخر ناحية حماة
 وصودرت ممتلكات الأمراء المنشقين ووصل الأمير إيدغدى والأمير سيف الدين
 كجكن إلى نهر الفرات في طاب انفارين فوجد الأمراء قد قطعوا الفرات إلى رأس
 عين وفي هذه الآونة وصلت الأخبار إلى حاب بقتل السلطان لاجين ونائبه منكوتمر
 اللذين تسببا في دروب الأمراء إلى بلاد التتار فركب سيف الدين بلبان خيل البرباد
 ولحق بالأمير قبيجق برأس عين وأخبره بقتل السلطان ونائبه وطاب إليه وأصحابه
 الرجوع إلى الشام ولكن قبيجق ظن أن ذلك حيلة فلم يرجع .

أما قتل السلطان ونائبه فأسبابه أن الأمير طغجي عاد من الحجاز في أول
 شهر صفر عام ٦٩٨هـ نوفمبر ١٢٩٨م فطلب إليه منكوتمر المسير إلى نيابة
 طرابلس باعتبار أنه لا يصلح للنيابة فأخبر طغجي الأمير سيف الدين كرجي الأشرفي
 بذلك وحدث السلطان أن يثني عزمه على تسيير طغجي إلى طرابلس . فأعفاه
 السلطان فغضب منكوتمر من ذلك وحدث منكوتمر على كرجي وطغجي . وحدث
 أن وصل رسول الأمير قبيجق إلى كرجي وطغجي من بلاد الشام للاستعلام
 مادبر السلطان ونائبه للأمراء في الشام . فاتفق رأيهم على قتل السلطان ونائبه
 لفساد الأحوال والقبض على الأمراء ونحشي الأمراء على أنفسهم أمام تسلط
 منكوتمر الذي مازال يطالب طغجي بالمسير إلى نيابة طرابلس وبعث يأمره « أن
 يتجهز للسفر » وتأزم الموقف حتى كان يوم الخميس العاشر من ربيع الآخر ٦٩٨هـ
 يناير ١٢٩٩م فدخل الأمير كرجي على السلطان في تلك الليلة وهو في مجلسه
 بعد أن اتفق مع أمراء الحراسة فقتله ثم ألقى القبض على منكوتمر نائب السلطنة
 وقتله كرجي ويتضح لنا مما تقدم أن السلطان لكي يضمن وجوده لا بد أن يكون
 على وفاق مع هؤلاء الأمراء الكبار الذين كانوا يشكلون قوة ينحشي منها إلا أن
 سياسة السلطان لاجين ونائبه كانت سياسة تسم بالعنف والحديعة مما
 حدى بالأمراء إلى الصدق في التخلص منهم . وكذلك استنجد الأمراء انفارين
 من الشام بالمغول ونحريضهم على غزو بلاد الشام . وبعد هذا الصراع الطويل الذي
 انتهى بقتل السلطان لاجين ونائبه استقر رأى الأمراء على استدعاء الملك الناصر

محمد من الفرخ وتوليته السلطنة وأن يكون الأمير طغجى نائبه في السلطنة وألا يحكما إلا بموافقة الأمراء عليه وأقسموا على تنفيذ ذلك الاتفاق ، ثم خرجت القاهرة والأمراء لاستقبال الملك الناصر محمد الذي وصل القاهرة وجلس على سرير الملك يوم الإثنين السادس من جمادى الأولى ٦٩٨ هـ فبراير ١٢٩٩ م وجددت له البيعة واستقر سيف الدين سلار نائباً للسلطنة لأن طغجى قتل وعين بيبرس الجاشنكير استادار .

مقدمات غزوات الشام :

لما وصل خبر اغتيال السلطان لاجين إلى نائب حلب الأمير بلبان الطباخي قبض على الأمير حمدان بن صالحى الذى كان أرسله نائب السلطنة يطلب إلى نائب حلب القبض على الأمراء فسجنه بالقلعة ثم أرسل على الفور في طلب الأمير قبجق ومن معه من الأمراء يطلب إليهم العودة لأن منكوتمر والسلطان قد قتلوا . ولكن الجماعة كانوا عبروا الفرات وساروا إلى بلاد التتار يريدون غازان . ولحق بريد نائب حلب بالأمير قبجق في ماردين فلما رأى الكتب وما تضمنته من تغير الأحوال في بلاد مصر والشام بكى الأمير قبجق والأمراء ندماً على سرعة مفارقتهم بلاد الشام . ولكنهم لم يعودوا وكتبوا ردّاً بالاعتذار عن العودة والتقوا مع مقدم التتار فخدمهم وأخذهم وتوجه إلى غازان . فلما اقتربوا من موضع غازان وكان نازلاً في بلاد واسط^(١) فسير أميراً لاستقبالهم ثم ركب غازان نفسه في موكبه واستقبلهم وأكرمهم « وضرب لهم الحركاوات وأمر لهم بما يصلح لهم ثم استدعاهم وجلس معهم فلما انصرفوا من مجلسه خلع عليهم وأمر غازان أمراءه بأن يستضيفوا الوافدين فأقاموا الأفراح في البلاد بسبب ذلك عدة أيام » وصار قبجق في غاية المسرة فإنه أتاه طائفة من أهله وأقاربه ، وأما بكتسر فإنه لم تطب نفسه بالإقامة^(٢) ثم زوج كل أمير منهم من نساء التتار . أما الأمير سيف الدين قبجق فقد زوجته

(١) وكان نازلاً بأرض السيب وهو هنا كورة من سواد واسط وواسط سميت بهذا الاسم لأن منها إلى البصرة خمسين فرسخاً وإلى الكوفة فرسخاً وإلى الأهواز خمسين وإلى بغداد خمسين أنشأها الحجاج مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٧١ .

غازان من أخت زوجته^(١) ثم أقطع الأمير قبجق مدينة همدان . ولكن الأمير قبجق لم يقبل ذلك واعتذار أن ليس له قصد إلا أن يكون في صحبة السلطان الملك غازان فاستجاب غازان لرغبته^(٢) المهتم كان لجوء الأمراء المذكورين إلى غازان كان سبباً في غزو بلاد الشام إذا شجع هؤلاء الأمراء غازان على فتح بلاد الشام وذلك نتيجة لسوء العلاقات بين الأمراء والسلطان ونائبه واضطراب البلاد نتيجة لتغير السلاطين . ونتيجة لما تقدم رأى غازان في ذلك فرصته لغزو بلاد الشام وبعث في جمع العساكر من بلاد التتار وأرسل الأمير سلامش بن آفال بن بيجو التتري إلى بلاد الروم ومعه خمسة وعشرين ألف فارس تقريباً . ويضم إليه جيش الروم ويسير بهم إلى بلاد الشام عن طريق بلاد سيس ويقابله غازان في جيش يبلغ سبعين ألفاً من ناحية ديار بكر ثم يعبرون نهر الفرات إلى الشام بعد مهاجمة البيرة وقلعة الروم والرحبة . ويكون اجتماع جيوش المغول على حلب^(٣) فعلم بذلك الأمراء في مصر فاتفق الرأي على الاستعداد وخروج القوات والأمراء إلى بلاد الشام فسارت العساكر من مصر ثم وصاوا دمشق في السابع من رجب عام ٥٦٩٨هـ / أبريل ١٢٩٩م^(٤) .

خروج سلامش بن آفال عن طاعة غازان ؟

في يوم الخميس الثامن عشر من شعبان ٥٦٩٨هـ / مايو ١٢٨٨م وصل إلى بلاد الشام سلامش بن آفال نائب الروم وبصحبه الأمير عز الدين الزردكاش نائب بهسنا ومع سلامش بعض أصحابه . فلما اقترب من دمشق استقبله عسكرها وأهلها ونائبها وبالغ نائب دمشق في إكرامه . ثم سار من دمشق ومعه أخوه طقطوا في السادس عشر من شعبان إلى مصر فاستقبلهم الأمراء أحسن استقبال . وكان السبب في خروج سلامش على طاعة غازان أن الأخير أرسل سلامش نائباً

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٧١ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٩٨ تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٤٩ .

(٣) الدر المنثور في سيرة المنك الناصر ص ٨ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٧٥ .

عنه في بلاد سلاجقة الروم ثم أمره بالمسيرة إلى بلاد الشام من جهة سيبس بعد ذلك ومعه خمسة وعشرين ألفاً من الفرسان^(١) على أن يسير غازان من ديار بكر^(٢) ثم ينزل على الفرات ويهاجمون البيرة والرحبة وقلعة الروم وأن يكون اجتماع غازان على سلامش على مدينة حاب^(٣) إلا أن سلامش طمع في الاستقلال ببلاد الروم (آسيا الصغرى) وطلب الملك لنفسه حيث إنه أقرب في النسب إلى جنكيزخان من غازان وعلى هذا كون جيشاً بلغ عدد جنده عشرة آلاف وكتاب ابن قرمان أمير التركمان فسار إليه بعشرة آلاف فارس^(٤) ثم كتب إلى الملك المنصور لاجين قبل وفاته يطلب نجاته ومساعدته على قتال غازان وسار رسله إلى السلطان لاجين فوصلوا دمشق في العشر الأوسط من شهر رجب سنة ٥٦٩٨ / أبريل ١٢٩٩ م . ثم ساروا منها إلى مصر . فلما وصل غازان إلى بغداد علم بخروج سلامش ومسيره إلى بلاد الشام . مما اضطر غازان إلى تغيير خطته وعدوله عن غزو الشام مؤقتاً ليخضع التائر سلامش في بلاد الروم . فسار بقواته في أول جمادى الآخرة ٥٦٩٨ / مارس ١٢٩٩ م بلغ عددها خمسة وثلاثين ألف فارس^(٥) وعاد غازان إلى تبريز وسار الجيش المغولي بقيادة بولاي وأصحابه ونزل على رأس عين ثم سار إلى آمد فجمع سلامش نحو الستين ألف جندي^(٦) ولكن أهل سيواس امتنعوا عليه فحاصروهم ، فلما التقى الجيشان في يوم السبت الخامس والعشرين من شهر جمادى الآخرة ٥٢٩٨ / مارس ١٢٩٩ م^(٧) خذله أصحابه من جند

- (١) النجوم ج ٨ ص ١١٧ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١١٦ .
(٢) ديار بكر بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل بن قسطن بن هنب وهي بلاد من قرى ومدن بين الشام والعراق . قصبها الموصل وحران وبها دجلة والفرات . مراد الاطلاع ج ٢ ص ٥٤٧ .
(٣) النجوم ج ٨ ص ١١٧ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١١٦ ، الدر الفاضل ص ١٠٠ .
(٤) الدر الفاضل ص ٨ النجوم ج ٨ ص ١١٨ تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٥ .
(٥) الدر الفاضل ص ٨ ، النجوم ج ٨ ص ١١٨ السلوك ج ١ ق ٢ ص ٨٧٦ إلى ٨٧٧ .
العبر ج ٥ ص ٥١٢ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٥ .
(٦) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٧٧ ، العبر ج ٥ ص ٥١٢ الدر الفاضل ص ١٠ النجوم ج ٨ ص ١٩ تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٦ .
(٧) الدر الفاضل ص ١٠ .

التتار وانضموا إلى بولاي ثم إلى عسكر الروم . وفر التركمان إلى الجبال ولم يبق مع سلامش إلا نحو الخمسمائة جندي^(١) فانسحب سلامش عن سيواس إلى جهة سيس ووصل بهسنا في آخر شهر رجب ٥٦٩٨هـ / مايو ١٢٩٩م ووصلت أخباره إلى دمشق في الخامس من شعبان وتقرر أن تخرج قوة في خمسة عشر ألف جندي من الشام لنجدة سلامش^(٢) وكان الأمراء قد عزموا على المسير لنجدة . إلا أنهم لما علموا بضعفه وانهبوا قوته توقفوا عن نجدة ثم وصل سلامش إلى دمشق في الخامس من شعبان ٥٦٩٨هـ / مايو ١٢٩٩م^(٣) ثم سافر إلى مصر ومعه أخوه طمطوا كما ذكرنا فاستقبل أحسن استقبان ثم خير سلامش بين الإقامة في مصر أو في الشام أو العودة إلى بلاده . فطلب أن يرافقه جيش من مصر ليعود إلى بلاده ويحضر أسرته ليعودوا إلى خدمة السلطان فوافق السلطان على طلبه ووصل سلامش دمشق في الحادي عشر من رمضان ٥٦٩٨هـ / يونيو ١٢٩٩م ثم سار منها إلى جهة سيس فعلم به التتار وقاتلوه ودرب سلامش إلى بعض القلاع إلا أن التتار قبضوا عليه وحمل إلى غازان حيث قتل . وإن كان هناك رأى يقول إنه قتل في الموقعة وانقطع خبره^(٤) وكان سلامش من أكبر الأسباب في حركة غازان إلى بلاد الشام إذ أن سلامش نهب بعسكر حلب مارددين في شهر رمضان ٥٦٩٨هـ / يونيو ١٢٩٩م فحرك فعلاه ما عند غازان وجعله حجة لمسيره^(٥) ثم وردت الأنباء بزحف غازان بقواته إلى الشام فتقدم جيش إلى بلاد الشام فوصلها في الرابع والعشرين من ذي الحجة ٥٦٩٨هـ / سبتمبر ١٢٩٩م ثم استقر الرأي على مسيرة السلطان الناصر نفسه بالرغم من صغر سنة فاستعد الأمراء لذلك وجمعت القوات من مختلف

(١) الدر الناضر ص ١٠ والنجوم ج ٨ ص ١١٩ . السوك ج ١ ص ٨٧٧ . العبر

ج ٥ ص ١٢ . تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٦ .

Howorth. Part 3, P. 428.

(٢) الدر الناضر ص ١٠ . تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٦ .

(٣) الدر الناضر ص ١٠ .

Howorth. Part 3, P. 437.

(٤) الدر الناضر ص ١١ .

(٥) السوك ج ١ ق ٣ ص ٨٧٨ . العبر ج ٥ ص ١٢ : المختصر ج ٤ ص ٣٧ . ٢٨ تاريخ

سنة البحرية ص ١١٦ . النجوم الزاهرة ص ١٢٨ .

جهات البلاد وارتفعت الأسعار نتيجة لخروج الجيش والسلطان . وكانت الدولة في حاجة إلى المال فلم تصرف للجنود الأموال اللازمة للإنفاق عليه وصار الملك الناصر بالجيش في اليوم الرابع والعشرين من ذي الحجة ٦٩٨ هـ / سبتمبر ١٢٩٩ م بعد أن استناب في غيبته بمصر الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدواداري^(١) .

خروج الملك الناصر إلى الشام ٦٩٩ هـ - ١٢٩٩ م :

أشرنا إلى أن الملك غازان قرر عبور الفرات وغزو بلاد الشام لأسباب منها نهج السياسة التقليدية العدائية بين الدولة المملوكية في مصر والشام بالإضافة إلى تشجيع الأمير سيف الدين قبجق نائب دمشق السابق وأصحابه الذين دخلوا في طاعة غازان شجعوه على غزو الشام نكايته في منكوتمر والسلطان لاجين الذي قهرهم واستبد بهم . يضاف إلى ذلك ما أتهم به نيروز وزير غازان بمكاتبة السلطان لاجين . مما أثار غضب غازان . وكذلك غضب غازان من الأمير بلبان الطباخي نائب حلب الذي أرسل جيشاً إلى ماردين عاث فيها فساداً ، فاتخذ غازان من ذلك ذريعة في غزو الشام^(٢) . يضاف إلى ما تقدم ظروف دولة المماليك الداخلية التي أدت إلى اضطراب البلاد مما شجع غازان على غزو الشام مستغلاً انشغال أمراء المماليك بأمر الحكم فشد عزمه على فتح مصر وضمها إلى أملاكه^(٣) يضاف إلى ما تقدم استقبال المماليك الوافدين من التتار والمهاريين من وجه غازان وطائفة التتار الأوبرانية على وجه الخصوص التي دخلت مصر أيام الملك العادل كتبغا . وكانوا قد هربوا من غازان بعد دزيمه خصمه بيدو فيهاجروا إلى مصر . أضف إلى ذلك سبباً رئيسياً وهو خروج سلامش بن آفال ونبذه من بلاد الروم ونبذه لطاعة غازان ودخوله مصر واستنجاهه

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٧٩ .

(٢) تاريخ المماليك البحرية ص ١١٥ بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٩ - ١٤٠ ، المختصر

ج : ص ٤٢ .

(٣) تاريخ المماليك البحرية ص ١١٤ .

بالمماليك مما آثار الحقد في نفس غازان فصمم على غزو الشام ومصر ،
 وفي مطلع سنة ٦٩٩ هـ / سبتمبر ١٢٩٩ م تقدم السلطان الناصر محمد من مصر
 إلى بلاد الشام . فلما وصلوا إلى غزة أقبل الأمراء على الصيد والراحة
 فسارت طائفة الأوبرانية الذين قدموا مصر في أيام الملك العادل كتبغا بسبب
 من قتل من أمراءهم في أيام الملك المنصور لاجين وبسبب خلع كتبغا
 وإخراجه إلى قلعة صرخد وهو من جنسهم . كذلك يمكن أن نضيف إلى
 ذلك استبداد المماليك البرجية بالأمور وبذلك قرروا قتل الأمير سلار نائب
 السلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير ثم إعادة دولة العادل كتبغا . وعندما حاول
 الأوبرانية تنفيذ هذه المؤامرة وهاجموا معسكر السلطان الناصر قامت عليهم
 العساكر السلطانية وكانوا قد ظنوا أن الخدع من الثورة الأوبرانية هو قتل السلطان^(١)
 ثم انتهت هذه الفتن التي كادت أن تعرقل سير الجيش إلى الشام ، وألقي
 القبض على معظم الأوبرانية وشنق نحو الخمسين منهم^(٢) وبعد هدوء
 الأحوال تحرك الملك الناصر بقواته وحدث أن دطلت الأمطار وسالت الأودية
 فأثقلت أثقال الجيش « وافتقر عادة منهم لذهاب جمالهم وأثقالهم وتشاءموا به
 وتطبروا منه فكان الأمر كذلك » ثم أعقب ذلك ظهور الجراد فزاد تطير
 العساكر الإسلامية « وخشوا أن يكون مندرأً بقدوم العدو وكسرة العسكر وتحدث
 بذلك كل أحد حتى السوقة » .

إلا أنه على الرغم من ذلك تقدم الملك الناصر بالعسكر إلى دمشق فوصلها في
 ثامن ربيع الأول ٦٩٩ هـ / ديسمبر ١٢٩٩ م . وفي اليوم التاسع من ربيع الأول
 وصل إلى دمشق الناس من جهة حاب جافلين أمام جحافل التار هاربين من
 بطشهم ووصلت الأخبار بأن غازان عبر بقواته نهر الفرات وأنه في جمع كبير
 من العسكر فارتفعت الأسعار ووزع الناصر الأموال على الجند لكل فارس مائين

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٢ - ٨٨٣ . تاريخ المماليك البحرية ص ١١٦ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٤ . تاريخ المماليك البحرية ص ١١٦ ، الدر الفاخر

ص ١٥ تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٨ . تاريخ دولة المماليك بمصر ص ٦٨٩ دولة
 بني قلاوون ص ١٧٧ .

ثلاثين ديناراً أو أربعين ، ولكن النفوس كانت وجلة ومضطربة والكل يتوقع الهزيمة أمام العدو (١) .

ووصلت الأخبار إلى علم الملك الناصر محمد بأن مقدمة جيش غازان عبرت نهر الفرات . في طريقها إلى الشام ، فاضطرب الناس في تلك الجهات وانهمزوا عن آخرهم ، وقدم في هذا الوقت الأمير اسندمر كرجي متولى فتوحات سيس . بعد أن أخذ حاصلات تل حمدون وأحضر معه صاحب سيس . وذلك لأنه أدرك أن التتار لا بد وأن يستولوا على بلاد الأرمن فتركها . فخرج جيش دمشق والملك الناصر بجيش مصر في يوم الأحد السابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ / ديسمبر ١٢٩٩م وسار إلى حمص وعسكر عندها ، ولم يكن المسلمين في تلك النوبة اكتراث بالتتار ولا كأنهم عندهم عدو (٢) ، وسارت الكشافة من العربان لاستطلاع أخبار العدو وكشف تحركاته ، هذا في الوقت الذي كان فيه التتار قد وصلوا بالقرب من سلمية واستمر الحال على ذلك حتى سحر يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ربيع الأول ٦٩٩هـ / ديسمبر ١٢٩٩م ، فركب الملك الناصر وسار بجيشه وجد في المسير حتى ظهرت أمامه طلائع العدو فنودي عند ذلك في العسكر الإسلامي أن يرموا الرماح ويعتمدوا في القتال على ضرب السيوف والدبوس (٣) . فألقى الجند رماحهم على الأرض وساروا مدة ساعة ورتبوا العسكر بمجمع المروج (٤) المعروف بوادي الحازندار ، وكان عدد المسلمين لا يزيد عن عشرين ألف فارس . أما التتار فكانوا نحو مائة ألف (٥) . وقبل بدء القتال سار الأمير سلار نائب السلطنة ومعه الحجاب والأمراء والفقهاء والشيخ ابن دقيق العيد ومر على العسكر كلها

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٥ والبداية والنهاية ج ١٤ ص ٦ ، تاريخ سلاطين المماليك

Howorth, Part 3, P. 437.

بمصر ص ٥٨ .

(٢) الدر الفناخر ص ١٥ .

(٣) الدبوس هراوة مدملكة الرأس وكالإبرة من النحاس في طرفها كتلة صغيرة : السلوك ج ١

ق ٣ ص ٨٨٦ حاشية ٢ .

(٤) يقع هذا الموقع في وادي الحازندار وهو بين حماة وحمص : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٦

حاشية ٣ .

(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٦ ، المماليك البحرية ص ١١٦ ، ١١٧ .

Howorth, Part 3, P. 438.

والفقهاء يوجهون إرشادهم ووعظهم لتقوى عزائم الجند على الثبات « حتى كثرت البكاء (١) ، أما غازان فقد أمر جيشه وقادته جميعاً بعدم التحرك حتى يبدأ دو الهجوم . ولكن المسلمين بادروا بالقتال وأشعل الزرافون النفط وحماوا على غازان حملة صادقة إلا أن غازان لم يتحرك لحظة في نفسه « فمرت خيول العساكر بقوة شوطها في العدو . ثم لما طال المدى قصرت في عدوها ونحمت نار النفط (٢) . فلما أدرك ذلك غازان هاجم بقواته المسلمين ورمى بالنشاب فأصابت سهامهم خيولا كثيرة للمسلمين « وألقى الفرسان عنها » . فاضطربت صفوف المسلمين ثم تقدمت ميسرة المسلمين وهاجست ميمنة التتار فصدمتها صدمة شديدة مزقت جمعها وهزمتها عن آخرها وقتل من التتار فيها حوالي خمسة آلاف (٣) . وأخبر الملك الناصر بذلك فسر بذلك وارتفعت الروح المعنوية للمسلمين . وكاد غازان أن يولى الأدبار دو الآخر ولكنه استدعى إليه الأمير قبجق نائب دمشق السابق . فشجع غازان وقيل إن هدف قبجق من ذلك دو أن يدفع غازان إلى الهزيمة (٤) . ومع ذلك تجمعت فلول المغول حول غازان من جديد « وعاد له أمره » وهاجم قلب الجيش الإسلامي فتقهقر (٥) . وحاول الملك الناصر الحرب ولكن الأمير حسام الدين لاجين الاستادار كان يمنعه ويقول له : « ما هي كسرة ، ولكن المسلمين قد تأخروا » ولم يبق مع السلطان من المماليك غير اثني عشر مملوكاً (٦) . ثم عادت ميسرة الجيش الإسلامي المنتصرة على ميمنة التتار إلى حمص ومعهم الغنائم ولكنهم لم يلبثوا طويلاً حتى علموا بأنهمزام قلب الجيش الإسلامي أمام غازان وتبعهم التتار . ولكن غازان خشي أن يكون

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٧ ، دولة بني قلاوون في مصر ص ١٧٨

Howorth, Part 3, P. 438.

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٧ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٧ . وذكر أن عدد قتلى التتار نحو عشرة آلاف : «رآة الجنان

ج ٤ ص ٢٣٠ .

Howorth, Part 3, P. 439.

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٧ وحاشية ٣

Howorth, Part 3, P. 439.

(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٧ ودولة بني قلاوون ص ١٧٨ .

(٦) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٦ . دولة بني قلاوون ص ١٧٨ .

أعد كميناً للإيقاع به فكف عن نهب عسكر مبره . وبعث كرسياً نحو
الأمير فبجق . يكن يتجمع غرب بن يزيد هزيمة به . ثم وصل المهزومون
إلى حصص وقت غروب شمس وقد غلب العدو كل ما كان معهم . وثقرو
أسحتهم ضيقاً شديداً بأرواحهم فاضطربت حصص وشنت سبع المدينة وصرحو
بالعسكر الله في المسلمين وسروا حتى وصلوا بعصبت وقد أغلقت
أبوابهم فأخذوا منهم ميرتهم وعرجوا إلى دمشق فدخلوها يوم السبت أول ربيع
الآخر سنة ٥٦٩٩ هـ / ديسمبر ١٢٩٩ م وسار معظم هؤلاء المهزومين بجوار الساحل إلى
مصر . ولما دخلوا دمشق أشاع الناس خبر وصول غازان وجيش التتار . فخرج
المهزومون فوراً وتركوا أثقالهم وما معهم وجعل أهل دمشق « فتشتتوا في سائر
الجهات » (٣) .

احتلال التتار دمشق ٥٦٩٩ / ١٢٩٩ م :

بعد هزيمة المسلمين في موقعة وادي الخازندار سار غازان بقواته إلى حصص
فدخلها واستولى على ما بها من الأموال والأمتعة الخاصة بالمسلمين والجيش .
ثم سار إلى دمشق « بعد ما امتلأت أيدي أصحابه بأموال جليظة القدر » وكانت
دمشق في الآونة مضطربة بسبب الهزيمة التي أصابت جيش الإسلام وخوفاً
من التتار وفظائعهم . وحدث في أول ربيع الآخر ٥٦٩٩ هـ / ديسمبر ١٢٩٩ م
أن انتشر الرعب في دمشق . وانتشر الناس على قمم الجبال وفي القرى وتوجه كثير
منهم إلى جهة مصر واتبع ذلك خروج من كانوا في السجن وعاثوا فساداً في
البلدة (٤) . أما من بقي في المدينة فقد اجتمعوا بمشهد على الجامع الأموي

(١) تاريخ المماليك البحرية ص ١١٧ . دولة بني قلاوون ص ١٧٨ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٨ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٨٨ . تاريخ المماليك البحرية ص ١١٦ - ١١٧ ، البداية

والنهاية ج ١٤ ص ٧ ، الدر الفاضل ص ١٧ . تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٨ - ٥٩
وتاريخ دولة المماليك في مصر ص ٧٠ .

(٤) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧ ، الدر الفاضل ص ١٨ . تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٥٩

وتشاورا في الأمر وأرسلوا إلى غازان ملك التتار يطلبون منه الأمان لأهل دمشق ،
وسار إليه قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة وشيخ الإسلام تقي الدين
أحمد بن تيسية وجمع كبير من الأعيان والفقهاء والقراء وذلك يوم الاثنين
ثالث ربيع الآخر ٦٩٩هـ / ديسمبر ١٢٩٩م^(١) فقابلوه في النباك وهو في طريقه
للاستيلاء على دمشق ، فلما قابله نزلوا عن دوابهم وقبل بعضهم له الأرض ،
وظلبوا الأمان لأهل دمشق . ثم قدموا لغازان بعض الطعام والمأكولات التي
كانت معهم . ولكنه لم يلتفت إليها ثم قال لهم : قد بعثت إليكم الأمان « فعادوا
إلى دمشق يوم الجمعة سابع ربيع الآخر ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م^(٢) ووصل دمشق
في يوم الجمعة السابع من ربيع الآخر بعد الظهر الأمير إسماعيل التتري ومعه
جماعة من التتار ودخل المدينة يوم السبت ثامن ربيع الآخر ٦٩٩هـ / يناير ١٣٠٠م
ليقرأ فرمان (المرسوم السلطاني) بالجامع ، فاجتمع أهل دمشق في الجامع الأموي
وقرأ بعض العجم الواصلين مع الأمير إسماعيل فرمان بتأمين الكافة حتى اليهود
والنصارى ويعد بحكومة عادلة في كل أنحاء مصر حينما تنضم إلى سوريا^(٣) فوصل
غازان إلى دمشق في عاشر ربيع الآخر ٦٩٩هـ / يناير ١٣٠٠م وعاشت
عساكره في غوطة دمشق فساداً - ووصلت بعض وحدات التتار إلى القدس والكرك
وهم ينهبون ويأسرون من صادفهم . ثم خطب لغازان في مساجد دمشق يوم
الجمعة رابع عشر من ربيع الآخر ٦٩٩هـ / يناير ١٣٠٠م بألقابه وهي : « السلطان
الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان وقرأ على
الناس في المسجد تقليد قبجق بلاد الشام كلها وسائر الأعمال وله أيضاً
ولاية القضاة والخطباء ثم نثرت الدراهم والدنانير على الناس وفرحوا بذلك فرحاً
شديداً .

كان نائب قلعة دمشق الأمير علم الدين سنجر المنصوري المعروف باسم

(١) الدر الفاخر ص ١٩ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٦٠ .

Howorth, P. 3, P. 439.

(٢)

(٣) (نص فرمان إيلخان غازان لتأمين أهل دمشق قبل دخوله بعساكره إليها سنة ٦٩٩هـ)

في ملحق رقم ٣ (انظر ملحق رقم ٣) .

أرجواش قد امتنع عن تسليم القلعة وتقدم إليه كل من قبجق وبكتمر السلاح دار وطلبا إليه تسليم القلعة وقالوا له : دم المسلمين في عنقك إن لم تسلمها ، فأجابهما : دم المسلمين في أعناقكما أنما اللذان خرجتا من دمشق وتوجهتا إلى غازان وحسبما له الحجيء إلى دمشق وغيرها^(١) وفي الحادى عشر من ربيع الآخر ٥٦٩٩ / يناير ١٣٠٠م طلب الأمير إسماعيل التترى إلى التضادة والأعيان في دمشق أن يطلبوا من أرجواش تسليم القلعة وإلا نهب التتار المدينة وقتلوا أهلها كافة ، فاجتمع عالم غنير وأرسلوا إلى الأمير أرجواش في ذلك الأمر ولكنه لم يجبههم وتكررت الرسل بينهم وبينه إلى أن سبهم وعنفهم وقال : « قد وقعت إلى بطاقة بأن السلطان قد جمع الجيوش بغزة وهو واصل عن قريب » فانصرفوا عنه وفي اليوم الثانى عشر من ربيع الآخر دخل الأمير قبجق دمشق وأرسل إلى أرجواش يطلب إليه التسليم ولكن أرجواش رفض ولم يجبه ، وأرسل إليه الشيخ تقي الدين ابن تيمية يتول له لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت^(٢) فلم يجب أرجواش مطالبهم واعتصم بالقلعة واشتد خوف الناس وحصنوا الدروب والمسالك^(٣) . وشرع التتار في نصب المجانيق على سطح الجامع الأهوى القريب من قلعة دمشق فعلم بذلك أرجواش فأرسل جماعة الشجعان هاجموا الجامع فجأة وأفسدت المنجنيق ، ثم أعد التتار منجنيقاً آخر بالجامع واتخذوا الجامع حانة يزنون ويلوطون ويشربون الخمر فيه وعطلت فيه الصلاة في بعض الأوقات ونهب التتار ماحول الجامع من السوق فأرسل أرجواش رجلاً من عنده وقتل المنجنيق المغول ومن حوله التتار وعاد إلى القلعة سالماً ولجأ أرجواش إلى تحصين موقعه فأمر بهدم ماحول القلعة من العسائر والبيوت فهدمت حتى لا يستتر العدو بها وقت القتال^(٤) .

(١) النجوم ج ٨ ص ١٢٥ . دولة بنى قلاوون في مصر ص ١٨١ . الدر الفاخر ص ٢٤

Howorth, Part 3, P. 441.

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧ - ٨ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٨ - ٩٩ . مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٣٠ ، النجوم ج ٨

ص ١٢٥ العبر ج ٥ ص ٤١٤

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٣ . العبر ج ٥ ص ٤١٤ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٩ .

وفي ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م قام التتار بمهاجمة قرية الصالحية^(١) وأخذوا ما في جامعها ومدارسها ونبشوا على الحبايا فظهر لهم منها شيء كثير حتى كأنهم يعلمون أماكنها^(٢) ولما خرج التتار هاربين أمام شيخ الشيوخ نظام الدين محمود ساروا إلى المزة^(٣) وساروا إلى داريا^(٤) فنهبوا وقتلوا عدداً من أهلها فخرج الشيخ ابن تيمية في العشرين من ربيع الآخر إلى غازان وكان بتل واهط^(٥) ليشتكوا مما فعل جيش التتار في الصالحية وداريا والمزة من نهب وتدمير وقتل بما يخالف الأمان الذي منحه غازان للبلاد . ولكن حاشية غازان لم يتسكن ابن تيمية من الاجتماع به لانشغاله بالسكر فاجتمع ابن تيمية بالوزير بن سعد الدين ورشيد الدين وشكوا لهما الحال فتألا له : « لا بد من المال » فعادا بدون شيء وبدأ الأمرء في جمع المال ، فارتفعت الأسعار ووزعت الأموال على الأسواق فجمعوا المال من الناس وقتل نتيجة ذلك في ضواحي دمشق من النلاحين والجند والعمامة على ما قيل نحو مائة ألف . وبلغ ما نقل إلى غازان وحده من المال حوالي ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف درهم سوى السلاح والثياب والدواب والغلال ، ويضاف إلى ذلك ما نهبته العساكر المغولية . وقرر غازان مصادرة الخيول والجمال لأنها من عدة القتال والحرب فأخرج من دمشق أكثر من عشرين ألف حيوان ، هذا بالإضافة إلى ما أخذه الأمرء والجبابة والأمير قبجق من الناس فأضعفوا الناس بما أخذوا منهم وساءت حالة البلاد .

عودة غازان من الشام إلى الشرق :

عاد غازان إلى الشرق لأسباب منها غزو مغول الشرق لبلاد غازان^(٦) وذلك بعد أن جمعت الأموال من الناس بالرغم عنهم وذلك من جراء ذلك مئآت

(١) قرية مطلد على دمشق بالقرب من جبل قاسيون - السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩١ حاشية ٦ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٢ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٨ ، تاريخ المماليك البحرية

ص ١١٨ .

(٣) المزة وهي قرية كبيرة وسط بساتين دمشق بينها وبين دمشق مسافة نصف فرسخ ويقال

لها أيضاً مزة كلب - السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٢ حاشية ٣ .

(٤) وهي قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة : مرصد الاطلاع ج ٢ ص ٥٠٩ .

(٥) يقصد بها مرج راهط في نواحي دمشق مرصد الاطلاع ج ٣ ص ١٢٥ .

Hoxorth, Part 3, P. 443.

(٦)

من الناس أقر غازان في نيابة دمشق الأمير قبجق وفي نيابة حلب وحماة وحمص الأمير بكتمر السلاح دار وجعل في نيابة صفد وطرابلس والساحل الأمير الألبكي ، وجعل مع كل نائب من هؤلاء جماعة من التتار ، وأقام عندهم مقدماً من التتار لحماية الشام وهو قطلوشاه ومعه ستين ألفاً من التتار حامية للشام^(١) . ووجد عشرين ألفاً من عسكره ومعهم أربعة من قادة المغول منهم بولاي وساروا إلى الأغوار في الشام فنهبوا تلك الجهات ووصلوا القدس وغزة وقتلوا بجامع غزة خمسة عشر رجلاً وعادوا إلى دمشق وقد أسروا عدداً كبيراً فخرج إليهم الشيخ ابن تيمية وتوسط في شأن الأسرى فأفرجوا عنهم ورحلوا عن دمشق يريدون بلادهم في الثاني من رجب ٦٩٩هـ / مارس ١٣٠٠م^(٢) بعد أن رحل غازان عن دمشق يوم الجمعة الثاني عشر من جمادى الأولى ٦٩٩هـ / فبراير ١٣٠٠م^(٣) بعد أن ترك على دمشق نائبه قطلوشاه ورافق غازان وزيره بدر الدين محمد بن فضل الله وعلاء الدين علي بن شرف الدين محمد بن القلانسي وشرف الدين محمد ابن شمس الدين سعيد بن محمد بن سعيد بن الأثبي وعبر غازان الفرات عائداً إلى الشرق^(٤) . ولكن لم يمض يوم على رحيل غازان ناحية الشرق حتى انطلق التتار في دمشق ينهبون ويسلبون الناس متاعهم . وأحرقوا كثيراً من الدور والمنازل والمدارس . مثل « دار الحديث الأشرفية » وما حولها ودار الحديث النورية والعادلية الصغرى . وما جاورها وأخلوا ما حول القلعة وركبوا فوق سطح المنازل ليرموا بالنشاب على القلعة . وصدر كتاب من غازان بتولية الأمير ناصر الدين يحيى بن جلال الدين الحتني الوزارة جاء فيه : « إنا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف قماتل وفي عزمنا العودة إليها في زمن الحريف والدخول إلى الديار المصرية وفتحها »^(٥) . فلما عبر غازان نهر الفرات إلى دمشق أشار

(١) العبرج ٥ ص ٤١٤ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٩ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١١٩ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٦ ، العبرج ٥ ص ٤١٤ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٠ .

(٣) الدر الفاخر ص ٣١ وبدائع الزهور ج ١ ص ١٤١ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٤) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٩ ، السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٥ حاشية ٣ ، دولة بني

قلاوون في مصر ص ١٨٥ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١١٩ .

Howorth, Part 3, P. 446.

(٥)

قبجق وبكتسر السلاح دار على قطلو شاه مقدم التتار بالشام أن يتحول عن دمشق إلى حلب بمن معه من التتار وجمع قبجق له مالا من الناس وأعطاه له ثم سار قطلو شاه في الثاني والعشرين من جمادى الأولى ٦٩٩هـ / فبراير ١٣٠٠م بعد أن ترك فرقة من عسكر التتار بدمشق وخرج الأمير قبجق لودائه وعاد في الخامس والعشرين من نفس الشهر وبعد أن اطمأن الناس نودي في دمشق بعودة أهل الضياع إلى ضياعهم ومزارعهم وقراهم . ثم خرج أهل الصالحية وغيرها وعادوا إلى أماكنهم . وفتحت الأسواق وأبواب المدينة^(١) .

عودة السلطان الناصر إلى مصر واستعداده لقتال التتار :

ذكرنا أن السلطان الناصر قد تفرق عنه العسكر عقب الهزيمة بوادي الخازندار ولم يبق معه إلا نفر يسير من خواصه والأمير ابن زين الدين قراجا وسيف الدين بكتسر الحسامي . ومن ثم لم يجدوا أمامهم بدًّا من العودة إلى مصر فدخلوها ووصلوا في الثاني عشر من ربيع الآخر ٦٩٩هـ / يناير ١٣٠٠م، ثم تتابع وصول العساكر إلى مصر وهم في أسوأ حال^(٢) ، ولم ينتظر السلطان الناصر طويلاً حتى شرع في الاستعداد للعودة إلى الشام من جديد، ونشط الأمراء في جمع الأموال اللازمة للإنفاق على الجيش وطلب من عمال الأقاليم بمصر أن يجمعوا الخيول والرماح والسيوف من سائر الوجهين القبلي والبحري . فارتفعت الأسعار حتى بلغ ثمن الفرس الذي كان يساوي ثلثمائة درهم ألف درهم « حتى أخذت خيول الطواحين وبغالها بالأثمان الغالية »^(٣) . وطلبت أيضاً الإبل والأسلحة وكل ما يلزم للقتال « فأبيع ما كان بمائة بسبعمائة وبألف » وطلبت قوات الاحتياط ممن تركوا الخدمة العسكرية فاجتمع منهم ومن غيرهم عدد كبير

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٦ ، النجوم ج ٨ ص ١٢٧ والعبر ج ٥ ص ٤١٤ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٥٨ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٩ ، الدر الفاخر ص ٣١ - ٣٢ ودولة بني قلاوون في مصر ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٦ ، النجوم ج ٨ ص ١٢٨ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٥٨ ، تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٧٠ - ٧١ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٨ ، النجوم ج ٨ ص ١٢٨ .

حتى إن أناساً تقدموا ولم يكونوا من الجند المسرحين بل رغبة في الجهاد ، وتولى
 الأمراء أمر هؤلاء الجند « البطالين » ^(١) هذا بالإضافة إلى من استخدمهم بعض
 الأمراء تطوعاً واحتساباً للأجر ، ثم استدعى مجد الدين عيسى بن الحشاش نائب
 الحسبة ليأخذ فتوى الفقهاء ويأخذ المال من الرعية للإنفاق على الجيش ، ومن الواضح
 أن هذا كاه كان يقع على عاتق الشعب ، واستخرجت فتوى الشيخ عز الدين بن
 عبد السلام للسلك المظفر قطز والتي فيها أن يأخذ من كل إنسان ديناراً ضريبة دفاع
 وجهاد فقرر الأمير سلار نائب السلطنة أن يأخذ رأى الشيخ تقي الدين بن دقيق
 العيد ، ولكن الأمير أبى الموافقة على ذلك فشق هذا على الأمير سلار واستدعى
 الشيخ ابن دقيق العيد إليه وشهد الأمراء الاجتماع وشكا إليه احتياج الدولة للمال
 للقيام بواجب الجهاد ودفع العدو عن البلاد . وإن الضرورة دعت إلى طلب المساعدة
 من الرعية لأجل الجهاد والدفاع عن الإسلام وأرضه وطلب من الشيخ الموافقة
 على هذه الفتوى ، ولكنه رفض واحتج عليه ابن الحشاش بفتوى ابن عبد السلام
 أيام الملك المظفر فقال : « لم يكتب ابن عبد السلام للملك المظفر قطز حتى أحضر
 الأمراء ما في ملكهم من ذهب وفضة وحلى نسائهم وأولادهم ورآه وحلف كلا منهم
 أنه لا يملك سوى هذا . وكان ذلك غير كاف فعند ذلك كتب بأخذ الدينار من كل
 واحد . وأما الآن فبلغنى أن كلا من الأمراء له مال جزيل وفيهم من يجهز بناته
 بالجواهر واللاآء ويعمل الإناء الذى يستنجى منه فى الخلاء من فضة ويرصع
 مدارس زوجته بأصناف الجواهر » ^(٢) ثم انصرف القاضى ابن دقيق العيد
 ثم طلب ناصر الدين محمد بن الشيخى متولى القاهرة ورسم له بالنظر فى أموال
 التجارة والأغنياء وأخذ مايمكن أخذه كل على حسب حالته المالية والسبب فى ذلك
 واضح تجهيز الجيش والجهاد فى سبيل الله ونصرة الإسلام فاجتمع فى جمادى الأولى
 ٥٦٩٩ / فبراير ١٣٠٠م جيش كبير وازدحمت القاهرة بالجيش وضاق بهم
 المساكن ونزلوا بالقرافة ، وحول جامع أحمد بن طولون . وكان قد وصل
 من الشام عسكرها بعد المزيمة واحتلال العدو للشام . بالرغم من الرخاء وتوفر

Howorth, Part 3, P. 448.

(١)

Howorth, Part 3, P. 448.

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٨ .

الغلال إلا أن ابن الشيخى متولى القاهرة أراد أن تكون جباية المال من جميع الناس من القاهرة وخارجها والولاية في الأقاليم يقومون بجباية الأموال أيضاً ويسمى ما حصل من المال مقرر الخيالة فاستشنع الأمراء ذلك «^(١) ثم فرض الضريبة على جميع الغلال وجبى هذه الأموال وأعد بها حوالى مائتى فارس ثم حول نظره إلى التجار وأرباب الأموال وفرض على كل منهم من مائة دينار إلى عشرة دنانير فلم يدع تاجراً ولا متسبباً ولا من يعرف بغنى إلا وأخذ منه «^(٢) ثم اقترض أموالاً من التجار الأغنياء فاجتمع لديه من ذلك مال عظيم . ووزعت رواتب الجند جميعاً وكذلك النواب ومقدمى العساكر وتجهزت العساكر وبينما الملك الناصر محمد على هذه الحال من الاستعداد وصل الخبر من الشام بعودة غازان إلى الشرق وإقامة الأمير قبجق نائباً عنه في دمشق فسر الناس بذلك . وكان الملك الناصر قبل ذلك عندما قدم إلى مصر أرسل إلى أصحاب القلاع رسائله ويأمرهم فيها بحفظ قلاعهم ويخبرهم بأنه قادم لهم «فلم يتمكن التتار من الاستيلاء عليها ثم كتب الناصر إلى الأمير قبجق وبكتسر السلاح دار يدعوهم إلى الطاعة فعادت أجوبة قبجق وأصحابه بالامتثال «^(٣) وعلم من تأخر في بلاد الشام من التتار بحركة السلطان الناصر فاشتد خوفهم وخرج الأمير قبجق بمن معه يريد مصر وذلك في منتصف رجب ٦٩٩ هـ / أبريل ١٣٠٠ م وبصحبه الأمير سيف الدين بكتسر السلاح دار ، فخرج التتار من دمشق واستولى أرجواش على المدينة مع القلعة وأعاد الخطبة باسم السلطان الناصر في يوم الجمعة السابع عشر من رجب بعد أن انقطعت مائة يوم «^(٤) وأصلح أرجواش أحوال دمشق وأوقف المنكرات وأغلق الحمامات مستعيناً بالشيخ ابن تيمية «^(٥) .

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٨ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٩ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٩٩ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠ . البداية والنهاية ج ١٤ ص ١١ ، النجوم الزاهرة ج ٨

Howorth, Part 3, P. 448 449.

ص ١٢٨ مرآة الجنان ج ص ٢٣١ .

(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٠ ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١١ .

Howorth, Part 3, P. 449.

مسير الجيش من مصر إلى الشام :

وبعد أن تم إعداد الجيش واستعداده وجمع المال وإنفاقه على العسكر نودي بالقاهرة ومصر بالجهاد ومن يتخلف يشنق ويخرج الملك الناصر في التاسع من رجب ٦٩٩ هـ / آخر مارس ١٣٠٠ م ووصل إلى الصالحية ووصلت إليه كتب الأمير قبجق نائب الشام وبكتمر السلاح دار والألبكي بقدومهم ومعهم الأمير عز الدين حمزة بن القلانسي والشريف ابن عدنان فأقام الناصر بالصالحية^(١) وتقدم الجيش بقيادة الأمير سلار والأخير بيبرس الجاشنكير الاستادار إلى دمشق . والتقوا بقبجق وأصحابه بين غزة وعسقلان وترجل كل منهم الآخر وتباكوا من فرط التأثير وساروا إلى السلطان الناصر . أما سلار وبيبرس . فتقدموا بالجيش لإقرار الأمن في البلاد وإشعار الناس بعودة البلاد إلى حكم الدولة الإسلامية . ثم وصل قبجق وأصحابه إلى الصالحية في العاشر من شعبان ٦٩٩ هـ / أول مايو ١٣٠٠ م واستقبلهم الناصر وبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم ثم سار بهم إلى قلعة الجبل^(٢) أما الجيش المتوجه إلى الشام فكان جمال الدين أفشى الأفرم نائب دمشق أول من دخلها وذلك يوم السبت عاشر شعبان ٦٩٩ هـ / أول مايو ١٣٠٠ م وفي اليوم التالي وصل الأمير فراسنقر المنصوري نائب حلب بعساكرها ثم دخل دمشق الأمير اسندر كرجي . نائب الفتوحات الطرابلسية . وعاد الحكم الإسلامي مرة ثانية إلى دمشق بعد خروج قوات غازان ثم أرسل الأمير سلار جيشاً إلى حلب فدخلها وقتل من كان بها من جنود غازان . ولم يفلت منهم إلا القليل ولحقوا غازان وأخبروه بغدر الأمير قبجق ودخوله في طاعة الملك الناصر وبعد ذلك سار النواب إلى ولاياتهم « واستتر كل نائب في مملكته »^(٣) ثم تتبع الأمير جمال الدين الأفرم نائب السلطنة بالشام من كان بدمشق من المفسدين الذين تولوا جمع المال من الرعية أيام غازان . وكذلك الذين كشفوا أسرار الناس . وقعت عليهم العقوبات^(٤)

(١) المختصر ج ٤ ص ٤٣ . السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠١ ، النجوم ج ٨ ص ١٢٩ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠١ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٢٩ ، العبر ج ٥ ص ٤١٥ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠١ .

(٤) العبر ج ٥ ص ٤١٥ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٢ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر

ص ٨٠ ، المختصر ج ٤ ص ٤٣ - ٤٤ .

ثم خلع سلار على الأمير أرجواش نائب قلعة دمشق وأنعم عليه بعشرة آلاف درهم وبعد أن استقرت الأحوال في بلاد الشام وعادت إلى حظيرة الدولة المملوكية . سار الأميران بيبرس وسلار بالعسكر في شهر رمضان ٦٩٩ هـ - مايو ١٣٠٠م وعادوا إلى مصر فاستقباهم السلطان والناس استقبالا رائعاً^(١) . أما الأمير فبجق فطلب من السلطان أن يعطيه نيابة الشوبك فأجابته إلى ذلك . وأعطى الأمير بكتسر السلاح دار إمرة مائة بمصر . والأمير فارس الدين الأبيكى إمرة مائة بدمشق^(٢) .

وعلم المماليك بتقدم غازان نحو الشام وأنه جمع جيشاً ضخماً . وكان غازان عندما غادر الشام إلى بلاد الشرق في العام السابق قد أشار في خطاب له أنه سيعود في الخريف القادم ، ولذلك لم يترك الملك الناصر . الاهتمام بالجيش والاستعداد للقتال ومواجهة العدو إذا ما حاول غزو البلاد من جديد ، فلما علم تحركات غازان استدعى الملك الناصر الوزير شمس الدين سنقر الأيسر والأمير ناصر الدين محمد بن الشيخى والى القاهرة وأمرهما بجمع الأموال من الناس للاستعانة بها في إعداد الجيش والإنفاق عليه . وكتب أيضاً بذلك إلى بلاد الشام ، وفي مصر بدأ جمع المال ومن أرباب العقارات والأغنياء ، وجاس الأمير شمس الدين سنقر الأيسر والأمير ناصر الدين محمد الشيخى والى القاهرة بدار العدل والناس تحمل المال إليهما حتى جمعوا مائة ألف دينار من القاهرة والوجهين القبلي والبحري^(٣) ، وفرضت الأموال على الناس وأصحاب الدكاكين فتضرر الناس وانطلقت الألسنة في الشام ومصر بالنقد ، واستخف العامة بالأجناد وأكثروا من قولهم للجند « بالأمس كنتم هاربين واليوم تريدون أخذ أموالنا » فإن أجابهم الجندى قالوا له « لم لا كانت هذه الحرمة في المغل الذين فعلوا بكم كيت وكيت وهربتم منهم ؟ » فلما اشتد تجرؤ العامة على

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٢ .

(٢) النجوم ج ٨ ص ١٣٠ . السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٢ ، العبر ج ٥ ص ٤١٥ ، الدر

الفاخر ص ٣٧ - ٣٩ تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٧٩ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٢ ، العبر ج ٥ ص ٤١٥ ، دولة الإسلام ج ٢ ص ١٥٨ .

الجند نودى فى القاهرة « أى عامى تكلم مع جندى كانت روحه وماله للسلطان »^(١) .
 وفى مستهل صفر ٥٧٠٠ هـ / أكتوبر ١٣٠٠م وردت الأخبار بأن التتار يريدون الشام وأنهم عازمون على دخول مصر « فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفاً على ضعفهم وطاشت عقولهم وشرعوا فى الحرب إلى مصر - والكرك والشوبك - والحصون المنيعه^(٢) ونتيجة لذلك ارتفعت الأسعار وخاصة دواب الانتقال التى ارتفعت أثمانها بطريقة خيالية . فى الوقت ذاته انخفضت أثمان الأمتعة والغلال بأرخص الأثمان . وقام الشيخ ابن تيمية فى ثمانى أيام صفر ٥٧٠٠ / أكتوبر ١٣٠٠م فى الجامع بدمشق وحنس الناس على التتار وأورد لهم الآيات والأحاديث الواردة فى ذلك المعنى . ونهى الناس عن التراجع والفرار وحثهم على تقديم المال والرجال من أجل الجهاد فى سبيل الذود عن الإسلام ودياره ونادى بوجوب الجهاد ضد التتار المعتدين . وأوجب جهاد التتار وتابع الحديث فى هذا المعنى لتتوية الروح المعنوية عند الناس . ونودى فى البلاد بمنع السفر إلا بمرسوم والحصول على جواز سفر . فتوقف الناس عن الفرار وسكن جاشهم^(٣) . وفى أول ربيع الآخر جاءت الأخبار بأن العدو قد وصل إلى البيرة ووردت إشاعات بأن العدو وصل إلى حلب وأن نائبها تنهقر إلى حساة^(٤) أما فى دمشق فقد جمعت الأموال من الفلاحين والأغنياء فنزلت بالناس شدائد وفتعوا الأشجار المشجرة وباعوها حطباً حتى يدفعون ما تقرر عليهم دفعه فى حين درب غالبيتهم إلى مصر^(٥) . ولما جمعت الأموال بدمشق استخدم السلطان ثمانمائة من التركمان والأكراد ودفع لكل واحد منهم ستمائة درهم . ولكنهم لما علموا بعبور غازان نهر الفرات هربوا فضاعت الأموال دون جدوى^(٦) وفى مصر جسع الملك الناصر الجيش واستعرض قواته فى القاهرة على دفعات استغرقت مدته عشرين يوماً^(٧) .

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٧ . دولة بنى قلاوون فى مصر ص ١٨٧ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٤ . الدرر الفاخر ص ٤٥ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٤ .

(٤) النجوم ج ٨ ص ١٣٢ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٥ .

(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٧ .

(٦) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٨ .

(٧) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٨ .

وعرض كل يوم عشرة مقدمين من الحلقة بعساكرهم حدث ذلك في نفس الوقت الذي وصل فيه من أهالي الشام أعداد كبيرة خوفاً من التتار^(١) .

خروج الناصر محمد إلى الشام :

واقدم كان الملك الناصر خلال هذه الفترة يتم استعداداته العسكرية لمواجهة التتار فإمامهم له ذلك خرج من مصر قاصداً الشام وكان ذلك يوم السبت الثالث عشر من صفر ٥٧٠٠ / أواخر أكتوبر ١٣٠٠م ووصل إلى الريدانية حيث تكاملت العساكر والأمراء . فساروا جميعاً إلى غزة وهناك أقام الناصر يومين فعلم بمسير غازان بعد عبوره نهر الفرات إلى ناحية أنطاكية . وقد هرب أهل الشام أمامه ونحلت بلاد حلب من أهلها وحرب نائبها قراسنقر إلى حماة وبرز كتبغا المنصوري نائب حماة ظاهر المدينة مستعداً لمواجهة العدو فوصلت إليه القوات التي جاءت من مصر واجتمعوا خارج حماة في انتظار التتار . وأمر السلطان القوات بالتقدم من غزة حتى قارب دمشق ، ولكنه تعرض أثناء مسيره لمتاعب شديدة بسبب الأمطار والثلوج التي توالى أربعين يوماً^(٢) فهلك بسببها كثير من الدواب وأفسدت بعض المهيات العسكرية وارتفعت الأسعار . ثم استمر الزحف وسط الأحوال . أما السلطان الناصر فإنه عاد إلى مصر في نهاية ربيع الآخر ٥٧٠٠ / يناير ١٣٠١م ووصل إليها في الحادي عشر من جمادى الأولى ٥٧٠٠ / يناير ١٣٠١م وذلك نتيجة للإرهاق الذي أصاب الجيش بسبب الأحوال والأمطار والثلوج . فخشى من قتال غازان . ولم يعلم بعودة غازان إلى بلاده إلا بعد وصوله إلى القاهرة في الحادي عشر من جمادى الأولى ٥٧٠٠ / يناير ١٣٠١م نفس اليوم الذي خاض فيه غازان نهر الفرات عائداً إلى الشرق . ثم وصلت أخبار عودة غازان إلى الشرق في جمادى الآخرة سنة ٥٧٠٠ / فبراير ١٣٠١م^(٣)

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٨ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٨ ، الدر الفاجر ص ٥٥ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر

Howorth, Part 3, P. 455.

ص ٨٤ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٥٠ . ١٦٠ . تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٨٤ .

ولما علم أهل دمشق والشام بعودة الملك الناصر إلى مصر استاءوا واشتد خوفهم وخرج معظمهم يريدون القاهرة ونودي في دمشق في تاسع جمادى الأولى سنة ٧٠٠ هـ / يناير ١٣٠١ م « من أقام بدمشق بعد هذا النداء قدمه في عنقه ومن عجز عن السفر فليتحصن بقلعة دمشق » فخرج باقي أهل دمشق على وجودهم خوفاً ورهباً وارتفعت الأسعار واشتد الوجل والخوف خشية عودة التتار إلى بلاد الشام « وقد نزلت البلاد الشامية من أهلها ونزحوا إلى مصر »^(١) وذلك بسبب ما عرف عن التتار من فظائع ، وكانت الشام جربت الاحتلال المغولي أكثر من مرة ، ولهذا فإن القلوب كانت وجلة باستمرار والخوف شديد من تحركات العدو ، وكان الشيخ ابن تيمية قد عاد من مصر إلى الشام في السابع والعشرين من جمادى الأولى ٧٠٠ هـ / فبراير ١٣٠١ م وكان ذهب إلى الناصر في مصر وأخذ يشجعه على الخروج للجهاد ويحثه على القتال لما رآه من خوف أهل الشام واضطرابهم بسبب عودة الناصر محمد إلى مصر ، وتوقع أهل الشام وصول غازان بتواته ، وأقام الشيخ ابن تيمية بالقاهرة ثمانية أيام يحث المماليك والناس على الجهاد والخروج إلى قتال العدو . وقال الشيخ ابن تيمية للملك الناصر والأمراء في مصر ، « وإن كنتم أعرضتم عن الشام وحمائته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويشغله في زمن الأمن » ولم يزل بهم حتى تحركت العساكر نحو الشام ، وقال أيضاً « لو قدر أكرم لستم حكام الشام ولا مملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر »^(٢) وقوى عزمهم على الجهاد وأكد لهم بأن النصر للإسلام هذه الكرة^(٣) ، وكان أهل دمشق في رعب عظيم وأغلقت الأسواق وتيقنوا أن لاناصر لهم إلا الله ثم خرج من عامة دمشق حوالي خمسة آلاف مقاتل بأسلحتهم - وساروا إلى نائب دمشق الذي كان مرابطاً في المرج وسار الشيخ زين الدين الفارقي والشيخ إبراهيم الرقي وابن قوام وشرف الدين بن تيمية وابن خباره إلى نائب السلطنة الأفرم وقوا وعزمه على القتال والثبات واجتمعوا بمهنا أمير العرب وحرصوه على قتال العدو فأجابهم بالسمع والطاعة وقويت نياتهم على القتال ، وخرج سائر نائب السلطنة المصرية بعسكره . من دمشق إلى ناحية المرج حيث يوجد نائب دمشق بعسكره ومن خرج تطوعاً من العامة

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٩ ، دول الإسلام ج ٥ ص ١٥٩ ، العبر ج ٥ ص ٤١٥ ، النجوم ج ٨ ص ١٣٢ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٥ . (٣) شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٥٥ .

واستعدوا للحرب والقتال بنيات صادقة^(١) . أما التتار فإن غازان ما إن وصل إلى حلب وأخذها حتى سار إلى قرون حماة وشيزر وسرمين والمعرة وأرسل جيشاً إلى أنطاكية وأخذ أموالاً كثيرة ، وكان غازان يريد التوجه إلى دمشق إلا أن تساقط الثلوج والأمطار والتي استمرت أربعين يوماً عاقت تقدم قواته^(٢) ، أضف إلى ذلك أن معظم خيوله وإبله نفقت وأمام هذا لم يجد غازان بداً من العودة إلى بلاده بعساكره وخذلهم الله وردهم خائبين (ورد الله الذين كفروا بغيرهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال^(٣)) إذ كان مع جيش غازان اثنا عشر ألفاً من الخيل فلم يبق منها إلا نحو ألفي فرس^(٤) وبقي عسكره بدون خيول فرجعوا « وأكثرتهم مرتدّون بعضهم بعضاً » خاض غازان نهر الفرات في حادي عشر جمادى الأولى ٥٧٠٠ / ١٣٠١م عائداً إلى بلاده فعادت الطمأنينة والسكون إلى أهل الشام بعد التدمير الذي حل بحلب نحواً من ثلاثة أشهر . وعاد أهل الشام إلى منازلهم منشرحين آمنين مستبشرين وذلك في جمادى الآخرة ٥٧٠٠ / فبراير ١٣٠١م فعاد نائب السلطنة بدمشق بعد أن كان مخيماً بعسكره في المرج منذ أربعة أشهر^(٥) .

طلب غازان للصلح ٥٧٠٠ / ١٣٠١م :

حاول غازان ملك التتار التحالف مع ملوك أوروبا والحصول على مساعدات تلك الدول الأوروبية الصليبية . فأرسل سفارات إلى ملكي إنجلترا وفرنسا لمؤازرته ولكن هذه السفارات عادت دون أن تحقق أي نجاح مما اضطر غازان إلى أن يطلب الهدنة من سلاطين المماليك حتى يستطيع خلال هذه الهدنة من إعداد قواته ومن ثم إرسال رسله إلى الأمير سيف^(٦) فعلم السلطان الناصر بوصول رسل غازان

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٣٢ ، الدر الفاجر ص ٤٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٣٢ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٣١ .

Howorth, Part 3, P. 455.

(٤) السنوك ج ١ ق ٣ ص ٩٠٩ .

(٥) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٦ ، دول الإسلام ج ٤ ص ١٥٩ ، شذرات الذهب ج ٥

ص ٤٥٥ المختصر ج ٤ ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٦) مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٤٧ .

إلى الفرات فأرسل إليهم الأمير سيف الدين كراى لإحضارهم فجاء بهم إلى دمشق في الثالث والعشرين من ذى القعدة ٧٠٠هـ / أواخر يوليو ١٣٠١م وكانوا نحو عشرين رجلاً^(١) وأرزلهم في قلعة دمشق واختار من بينهم ثلاثة نفر وسار بهم إلى مصر وهم كمال الدين موسى بن يونس قاضى الموصل وناصر الدين على خوجا ورجل آخر من المغول فوصلوا القاهرة في منتصف ذى الحجة ٧٠٠هـ / أغسطس ١٣٠١م وقيل أن يقابلوا السلطان اجتمعت الأمراء والعساكر بقلعة الجبل بكامل لباسها وأفخر ثيابها ثم جلس السلطان وبين يديه ألف شمعة واصطف المماليك صنفين في الطريق الذى مر به الرسل إلى حضرة الملك الناصر محمد فلما حضر الرسل قام قاضى الموصل وخطب خطبة بليغة موجزة في معنى الصلح دعا فيها للسلطان الناصر ولغازان والأمراء ثم أخرج كتاباً من غازان محتوماً لم يفتح^(٢) ثم فتح الكتاب بعد يومين وكان مكتوباً باللغة المغولية فترجم إلى اللغة العربية وقرئ على أهل الدولة وكان يتضمن أن عساكر مصر دخلت في العام الماضى أطراف بلاد غازان وأفسدت فيها فأنف غازان من ذلك وقدم إلى الشام وهزم العساكر الإسلامية ثم عاد فلم يخرج إليه بعد فرجع حتى لا تخرب البلاد وأنه مستعد للحرب والقتال ، ودعا الناصر بعد ذلك إلى عقد الصلح بين المغول في فارس والمماليك إلا أنه كان يهدد ويتوعد إن لم يتم الصلح^(٣) . ويتضح من رسالة غازان هذه أنه يحاول أن يبرر غزوه لبلاد الشام كما أنه يحمل صيغة التهديد في حالة عدم تجاوب المماليك لطلب الصلح والمهادنة . وبعد قراءة خطاب غازان اجتمع الناصر برجال دولته وأخذ رأيهم فيما يفعل فاستدعوا كمال الدين قاضى الموصل وخطيبها وهو أحد سفراء غازان وقالوا له « أنت من أكابر العلماء وخيار المسلمين وتعلم ما يجب عليك من حقوق الإسلام والنصيحة للدين ما نتقاتل إلا لقيام الدين ، فإن كان هذا الأمر قد فعلاه حيلة ودهاء فنحن نحاف لك بالله أن ما يطلع على هذا القول أحد من خلق الله تعالى فأقسم القاضى لهم « أنه لا يعلم عن

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩١٥، الدر الفاخر ص ٥٢ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر

ص ٩٢ .

Howorth, Part 3, P. 457.

(٢)

Howorth, Part 3, P. 458.

(٣) انظر الملحق رقم ٥ .

غازان غير الرغبة في الصلح وتأمين التجار والمسافرين» ثم زاد على ذلك بقوله والمصلحة أذكم تتفقون وتبقون على ما أنتم عليه من الاهتمام بعودكم ، فإن كان هذا الأمر خديعة فيظهر لكم ، وإن كان الأمر صحيحاً ، فتكونون قريباً منهم فينتظم الصلح وتحتم الدماء فيما بينكم « وكان لهذا الحديث أحسن الأثر في نفوس المسالينك وأيقنوا أن هذا القاضي لم يحد عن طريق الحق وأنه بذل النصيح لهم^(١) ومن ثم استقر رأيهم على كتابة رسالة إلى غازان ردّاً على رسالته حماتها إليه حسام الدين المجيرى والقاضي عماد الدين بن السكري وشمس الدين محمد بن التتبي^(٢) وقد فند الملك الناصر في خطابه إلى غازان أقواله وأثبت له أن المغول هم البادون بالعدوان وقال أيضاً في رسالته إنه لن يرسل هدية إلى غازان حتى يبدأ غازان بذلك وعاب على غازان فعله للمسلمين في دمشق وبلاد الشام وتخريبه للمساجد وختم الناصر كتابه بأنه مستعد للصلح والمصادقة إذا جنح غازان للسلم وأبعد الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم بطانة له وقبل أن يسافر الرسل إلى غازان قرر الملك الناصر محمد في يوم الأحد تاسع عشر محرم سنة ٥٧٠١ / سبتمبر ١٣٠١م على جميع الأمراء والمقدمين في مصر الخروج إلى الصيد نحو العباسة^(٣) وخرج السلطان ومعظم الجيش بكامل ملبسهم وعدتهم في يوم الاثنين العشرين من المحرم ٥٧٠١ / سبتمبر ١٣٠١م ثم طلب القضاة من القاهرة فحضروا إليه واجتمعوا بالسلطان في بركة الحجاج ثم عاد القضاة الأربعة إلى القاهرة وشرعوا في تجهيز الرسل إلى غازان ووصل الناصر وأصحابه والجيش إلى الصالحية وكانوا في أحسن منظر وخلع الناصر على الأمراء والمقدمين أربعمئة وعشرين خلعة^(٤) وأذهل رسل التتار بما رأوا من نظام وحسن هيئة الجيش الإسلامي ما لم يكن

(١) الدر الفخر ص ٥٦ .

(٢) الدر النفاخر ص ٦٦ .

(٣) وهي أول قرية يلتقها القادم من الشام إلى مصر بمركز الزقازيق بالشرقية وسميت بهذا الاسم نسبة إلى العباسة بنت أحمد بن طولون كانت خرجت على قطر الندى بنت أخيها لما تزوجت من الخليفة المعتقد بالله العباسي وهناك في ذلك المكان ضربت الخيام قبل مسير قطر الندى إلى بغداد فسميت القرية باسم العباسة. وأنها قامت في خيمة في نفس المكان - النجوم ج ٨ ص ١٤١ حاشية ١ .

(٤) النجوم ج ٨ ص ١٤١ - ١٤٢ .

عند التتار ومن الواضح أن غرض الناصر من ذلك العرض الذي قرر الخروج فيه للصيد أن ترى رسل التتار مدى قوة جيش مصر واستعداده حتى يخبروا غازان بما رأوا ثم حضر الرسل بين يدي الناصر في الليل في معسكره والشموع مشتعلة وتحدثوا معهم ساعة ثم أعطوهم جواب الناصر إلى غازان ونخلعوا عليهم وأعطوا لكل منهم عشرة آلاف درهم وقماشاً وغير ذلك وسار معهم بالرسالة الأمير حسام الدين ازدمر الحجيري . وشمس الدين محمد بن التتبي وعماد الدين علي بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العلي بن السكري في طريقهم إلى غازان ، وذلك في المحرم سنة ٥٧٠٠ / سبتمبر ١٣٠١م^(١) .

مسير التتار إلى الشام :

ومن الواضح أن غازان لم يكن راغباً في الصلح كما ادعى ، وإنما كان في حاجة إلى هدنة يستعيد فيها قوته لعدوان جديد فقد فشلت مساعي ومحاولات الصلح وتبين كذب غازان في طلب الصلح ووصل إلى علم المماليك في مصر بتحركات جيش التتار ، وعزم غازان على دخول الشام فاتفق رجال الدولة على الخروج بالجيش إلى الشام وعين من الأمراء بيبرس الجاشنكير وطغريل الإيفاني ، وكراي المنصوري ، وبيبرس الدوادار ، وسنقرشاه المنصوري وحسام الدين لاجين الرومي استادار وجماعة من الأمراء وثلاثة آلاف جندي . وساروا من القاهرة في الثامن عشر من رجب سنة ٥٧٠٢ / مارس ١٣٠٣ م وكثرت الأخبار بتزول غازان على الفرات ووصل بقواته إلى الرحبة وأراد ، منازلها بنفسه وكان نائبها الأمير علم الدين سنجر الغتمى فلم يجد بدءاً من اتباع أسلوب السياسة والمهادنة حتى تصل قوات المماليك فيخرج إلى غازان ومعه الهدايا وقال له « هذا المكان قريب المأخذ والملك يقصد المدن الكبرى فإذا ملكت البلاد التي هي أمامك فنحن لا نمتنع عليك »^(٢) فافتتح غازان بقوله بعد أن أخذ الرهائن وهم ولد نائب الرحبة ومملوكه ، وعاد غازان إلى الشرق ولكنه سير

(١) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٢ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٩٨ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٠ ، العبر ج ٥ ص ١٧ .

إلى الشام قائده قتلوا شاه على رأس ثمانين ألف مقاتل وكتب معه إلى الأمير عز الدين أيبك الأفرم نائب دمشق كتاباً يرغبه في طاعته والدخول في خدمته .

موقعة عرض ٥٧٠٢ / ١٣٠٣ م :

وصل الجيش الإسلامي مع الأمير بيبرس الجاشنكير إلى دمشق في منتصف شهر شعبان ٥٧٠٢ / أبريل ١٣٠٣ م وكتب إلى الناصر في مصر يستحثه على المسير إلى الشام وذلك لسماحه بوصول التتار ، وأقبل الناس من حاب وحماة إلى دمشق خائفين هارين من سطوة التتار ، فاضطربت دمشق واستعد أهلها للفرار . وكان هؤلاء الفارين ينشرون الرعب بين الأهالي وهم أهل دمشق بالخروج . ولكن صدر النداء بمنع ذلك ، ومن خرج حل دمه^(١) . وماله . وتقدمت بعض القوات الإسلامية إلى حماة ولحق بهم جيش طرابلس وحمص . فاجتمعوا على حماة عند العادل كتبغا ، فلما علم التتار بتجمعات القوات الإسلامية عند حماة أرسلوا فرقة من التتار من عشرة آلاف فارس^(٢) ، إلى القريتين . فأوقعوا بالتركان بها فسارت إليهم القوات الإسلامية في ألف وخمسمائة فارس^(٣) . فوصوا إلى العدو وهو في عرض^(٤) وذلك في الحادي عشر من شعبان عام ٥٧٠٢ / أول إبريل ١٣٠٣ م فهاجموهم على غفلة وافترقوا عليهم أربع فرق وقتلواهم قتالا شديداً من نصف النهار إلى العصر حتى أفنوهم « وكانوا نحو أربعة آلاف فارس^(٥) وأنقذ التركان وحرمتهم وأولادهم

(١) المختصر ج ٤ ص ٤٨ .

(٢) المختصر ج ٤ ص ٤٨ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣١ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٦٩ ، البداية والنهاية ج ١٤

ص ٢٣ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ١١ .

(٤) وهي بلدة في برية الشام بين تدمر والرصافة الهاشمية - السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣١ حاشية ٤

النجوم ج ٨ ص ١٥٧ حاشية .

(٥) النجوم ج ٨ ص ١٥٨ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٦١ ، السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣١ ،

مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٣٥ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ١١٠ وذكر في البداية والنهاية ج ١٤

ص ٢٣ أنهم نحو سبعة آلاف .

وهم نحو ستة آلاف أسير^(١) ، وكانت خسائر المسلمين في هذه المعركة قليلة بالنسبة لخسائر العدو واستشهد من المسلمين الأمير أنص الجمدار المنصوري ومحمد باشقرد الناصري وستة وخمسين من الأجناد^(٢) فلما وصل الخبر بذلك النصر إلى دمشق زفت البشائر وكان السلطان قد خرج من مصر بقمواته ومعه الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان بعد أن استتاب بمصر الأمير عز الدين أيبك البغدادى وذلك في شعبان ٥٧٠٢ / أبريل ١٣٠٣ م .

وكان للانتصار الإسلامى فى موقعة عرض على التتار أثره فى رفع الروح المعنوية عند جيش المسلمين ، فتشجعوا على قتال العدو بعد أن كانوا يئسوا من النصر بعد الهزيمة التى لحقت بهم من قبل فى وادى الخازندار وكان الانتصار كما قال أبو الفدا « عنوان النصر الثانى »^(٣) .

موقعة شقحب - مرج الصفر ٥٧٠٢ / ١٣٠٣ م :

إلا أن التتار لم يكونوا يرضون بالهزيمة ومن ثم قرروا إعادة الكرة مرة أخرى خاصة بعد أن عاد التتار المنهزمون فى موقعة عرض إلى قائدهم قطلوشاه وأخبروه أن السلطان لم يخرج من الديار المصرية وأن ليس بالشام غير جيش الشام فأراد قطلوشاه الاستنادة من تلك الفرصة قبل وصول جيش مصر والسلطان فجد قطلوشاه فى المسير بقمواته البالغة مائة ألف من التتار والكرج والأرمن^(٤) واندفعت العساكر الإسلامية إلى دمشق وكان العادل كتبغا مريضاً وضعيفاً فنقل فى محنة إلى دمشق واجتمع الكل بالمرج وتشاوروا فى الأمر واختلف رأيهم حول الخروج ولقاء العدو أو انتظار بدوم السلطان الذى كان فى طريقه إليهم ولكنهم خشوا من مفاجأة العدو لهم فنادوا بالرحيل عن دمشق فاضطربت دمشق وأهلها وارتفعت أسعار دواب النقل حتى بيع الجدار بستمائة درهم والرحيل

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣١ ، النجوم ج ٨ ص ١٥٨ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣١ ، النجوم ج ٨ ص ١٥٨ .

(٣) دولة بن قلاوون فى مصر ص ١٩٧ ، المختصر فى اختبار البشر ج ٤ ص ٤٨ .

(٤) دولة بن قلاوون ص ٧ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٣ ، تاريخ المماليك بمصر ص ٧٢ .

بألف درهم^(١) ، وترك معظم الناس أموالهم وحاصلاتهم « وترك كثير منهم حرمه وأولاده ونجا بنفسه إلى القلعة » ولم يأت الليل إلا والتتار حول دمشق ، وخرج الجيش للقاء العدو . وبات الناس ليلتهم بدمشق في الجامع يضجون بالدعاء إلى الله فلما أصبحوا وجدوا العدو قد ارتحل عن دمشق بعد أن وصلوا غوطة دمشق ، وعلم الأمراء في ذلك الوقت بوصول السلطان بعساكره من مصر فساروا إليه من مرج راهط^(٢) وقابلوه على عقبة شجورا^(٣) وكان ذلك يوم السبت ثاني أيام رمضان ٥٧٠٢ / أبريل ١٣٠٣م فقبلوا له الأرض ومالبثوا حتى وصلت إليهم الأنباء بوصول خمسين ألفاً من التتار^(٤) بقيادة قطلو شاه نائب غازان فاستعد الجيش ، وحملوا أسلحتهم واتفقوا على قتال العدو في شقحب (مرج الصفر) تحت جبل غباغب^(٥) بعد أن تم توزيع القوات في مواقعها سار السلطان ومعه الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون ، الجيش على الجهاد ويشوقون إن الجنة والخليفة يقول « يا مجاهدون لا تنظروا ، لسلطانكم . قاتلوا عن حريتمكم وعلى دين نبيكم صلى الله عليه وسلم^(٦) فتأثر الناس وضمجوا في بكاء شديد ومنهم من سقط عن فرسه إلى الأرض وتواصى بيبرس وسار على الثبات في الجهاد ، وعاد السلطان إلى موقعه ثم وقف الغلمان والحمال وراء العسكر صفناً واحداً وقيل لهم « من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه^(٧) زحفت كتائب التتار كقطع الليل المظلم بعد الظهر

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٢ ، النجوم ج ٨ ص ١٥٨ ، المختصر ج ٤ ص ٤٨ .

Howorth, Part 3, P. 469.

(٢) المرج الأرض الواسعة الكثيرة النباتات، وراهط موضع في غوطة دمشق ، النجوم ج ٨ ص

١٥٩ حاشية ١ .

(٣) وهي ممر في الطريق بين دمشق والكسوة - السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٢ حاشية ١ .

Howorth, Part 3, P. 469.

(٤)

(٥) شقحب قرية في أول عمل حوران من نواحي دمشق بينهما ستة فراسخ وهي في الشمال الغربي

من غباغب - السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٢ حاشية ٤ .

(٦) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٣ ، النجوم ج ٨ ص ١٦٠ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٣ .

(٧) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٣ ، النجوم ج ٨ ص ١٦٠ ، تاريخ المماليك البحرية ص

Howorth, Part 3, P. 469.

١٢٣ .

من يوم السبت الثاني من رمضان ٥٧٠٢ هـ / أبريل ١٣٠٣ م وتقدم قطلوشاه بمن معه من قادة التتار وهاجموا ميمنة الجيش الإسلامي وقتلوها فثبتت لهم الميمنة واشتد القتال بين الطرفين ، فلما رأى المسلمون ضعف الميمنة جاءتها النجدة من القلب ومن الميسرة وصاح سلار « هلك والله الإسلام » وصرخ سلار في بيبرس الجاشنكير الاستادار والمماليك البرجية فأتوه بسرعة وهاجم بهم مقدم العدو قطلوشاه فتمكنوا من كشف التتار عن المسلمين فخرج إليهم أمراء السلطان ، لنجدة بيبرس وسلار وقتلوا العدو فتمكنوا منه وهزموه^(١) .

أما السلطان الناصر فأمضى تلك الليلة وسائر قواته على ظهور الخيل ، والطبول تضرب وجاء من انهزم شيئاً بعد شيء وهم يتصدون صوت الطبول ، والكوسات الخربية ، واشتد ساعد المسلمين وحاصروا الجبل الذي بات عليه التتار وكان بيبرس وسلار وقبجق والأمراء الأكابر أمضوا طول الليل وهم يرتبون الصنوف وينظمون الجند يؤكدون عليهم في الحذر والتهيؤ والاستعداد^(٢) ، فما إن طلع نهار الأحد إلا وقد اجتمع شمل عسكر السلطان الناصر ووقف كل في مصافه مع أصحابه ، ووقف الناس والأحمال والجفناك خلف الجيش على بعد واستمروا على ذلك حتى ارتفعت الشمس وعندئذ شرع العدو في ترتيب قواته ، وقتلوا العسكر الإسلامي فتقدمت المماليك السلطانية بقادتها إلى قطلوشاه وجوبان « وعملوا فيهم عملاً عظيماً تارة يرمونهم بالسهم وتارة يهاجمونهم » وأخذ الأمراء يقاتلون من صادفهم ويتناوبون أميراً بعد أمير واشتد القتال بين المماليك ، السلطانية وقطلوشاه واستبسل المماليك في القتال حتى إن فيهم من قتل تحته الثلاثة رؤوس من الخيل^(٣) واستمر الحال كذلك حتى انتصف النهار . (يوم الأحد) وصعد قطلوشاه الجبل مرة ثانية بعد أن قتل من رجاله نحو الثمانين^(٤) وجرح الكثير واشتد عطشهم وتسلل أحد أسرى المسلمين من الجبل

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٣ - ٩٣٤ - النجوم ج ٨ ص ٦٠ - ١٦١

Howorth, Part 3, P. 471.

(٢)

Howorth, Part 3, P. 470.

(٣)

Howorth, Part 3, P. 471.

(٤)

وحدث السلطان أن التتار قد أجمعوا على النزول لقتال المسلمين فجأة وقت السحر وأنهم يعانون من العطش فاتفق الرأي على أن يتاح لهم فرصة النزول والهروب فإذا ما نزلوا تولاهم الجيوش الإسلامية من خلفهم ، وبات التتار على تلك الحال وأصبح النهار وهو يوم الاثنين الرابع من رمضان سنة ٧٠٢ هـ / أبريل ، ١٣٠٣ م وزل التتار من الجبل فلم يتعرض لهم أحد وساروا إلى نهر الفرات فاقتحموه^(١) ، وعند ذلك هاجدهم المسلمون وأيدهم الله بنصره حتى حصدها رؤوس التتار عن أبدانهم « وتتبع المسلمون العدو حتى العصر ثم عادوا إلى السلطان » فسرحت الطيور بالنصر إلى غزة « ومنع المنهزمون من المسير إلى مصر ثم تتبع من سرق الأموال والخزائن السلطانية وقت هزيمة الميمنة الإسلامية في بداية القتال يوم السبت وعين الأمير بدر الدين بكتوت الفتاح للمسير بالبشارة إلى مصر وسار من وقتها وكتب إلى دمشق وسائر التتار بالبشارة أيضاً^(٢) . وتتبع الأمراء فلون المغول إلى القريتين وقد كلت خيول التتار عن العدو وضعفت نفوسهم وألقوا أسلحتهم واستسلموا للقتل والمسلمون يقتلونهم بدون مدافعة . حتى إن أراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا عدة غنائم وقتل الواحد من العسكر العشرين من التتر فما فوقها » ثم قام الأعراب بدور كبير في الكيد للتتار فكان العرب يأتي اثنين أو ثلاثة منهم إلى جماعة كبيرة من التتار كأنهم يسرون بهم في البر عن طريق قريبه حتى يأتي الليل ويعم الظلام فيتركونهم وينصرفون فيهربون في الصحراء ويموتون عطشاً وفر بعض التتار إلى غوطة دمشق فتبعهم الناس وقتلوا منهم عدداً كبيراً أما نائب غزة فإنه تتبع المنهزمون وقبض عليهم^(٣) وقد اشترك النويري صاحب كتاب نهاية الأرب في هذه الواقعة وكان

Howorth, Part 3, P. 472.

(١)

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٦ ، النجوم ص ١٦٢ ، العبر ج ٥ ص ٤١٨ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٦ ، دولة بني قلاوون ص ١٩٧ ، تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٧٢ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ١١٠ - ١١٤ ، المختصر ج ٤ ص ٤٩ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٣٥ -

Howorth, Part 3, P. 473.

٢٣٦

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٦ - ٩٣٧ ، النجوم ج ٨ ص ٦٢ - ١٦٣ ، دول الإسلام ج ٤

ص ١٦٢

في مسيرة الجيش الإسلامي فوصف ما شهدته في العبارة الآتية « وكنت يوم
 ذاك بدمشق فخرجت منها بعد أن أعددت لأمة الحرب ، والتحقت بالعسكر
 ووجدت الحفال قد ازدحموا بالأبواب زحاماً شديداً ، وقد ذهلوا عن أموالهم
 وأولادهم ، ووصلت بعد المغرب إلى منزلة العسكر بميدان الحصى فوجدتهم ،
 منذ توجهوا ، إلى مرج الصفر فلحقت بالجيوش في يومى الخميس والجمعة ،
 فلما كان في ليلة السبت المسفرة عن ثانی شهر رمضان دارت النقباء على
 العساكر وأخبروهم أن العدو قد قرب منهم ، وأن يكونوا على أهبة واستعداد
 في تلك الليلة وأنه متى دهمهم العدو ويركبوا خيولهم ، ويكون الاجتماع
 عند قرية الهجة قرب خربة اللصوص ، فبتنا في تلك الليلة وليس منا إلا من
 ليس لأمة حربيه وأمسك عنان فرسه في يده وتساوى في ذلك الأمير والمأمور
 وكنت قد أوقفت الأمير علاء الدين مغلظای البيسرى أحد أمراء الطبليخاناه
 بدمشق لصحبة كانت بيني وبينه فلم نزل على ذلك وأعنة خيلنا بأيدينا حتى
 طلع الفجر فصلينا وركبنا واصططفت العساكر إلى أن طلعت الشمس وارتفع
 النهار في يوم السبت المذكور . ثم أرسل الله مطراً شديداً نحو ساعتين ثم
 ظهرت الشمس ، ولم نزل على خيولنا إلى وقت الزوال ، وأقبل التتار كتطع الليل
 المظلم وكان وصولهم ووصول السلطان بالعساكر المصرية في ساعة واحدة^(١) وذكر
 أن المسلمين أسروا عشرة آلاف من المغول وغنموا^(٢) عشرين ألف رأس من
 الماشية ولم تقم لغازان بعد تلك الموقعة قائمة^(٣) . »

نتائج موقعة شقحب :

ولقد كان لموقعة شقحب نتائج بالغة إذ أن التتار قضى على أغلب جيشهم
 في هذه الموقعة ولم يعبر قطلوشاه متقدم التتار نهر الفرات إلا في القليل من أصحابه
 وعلم غازان بهزيمة جيشه . فانتشر الحزن في بلادهم وخرج أهل تبريز وغيرها

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٣٤ حاشية ٤ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٤ .

(٢) مصر في العصور الوسطى ص ٢٧٠ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٣ ، الدر الفاخر

ص ٨٢ - ٨٨ .

Howorth, Part 3, P. 472 475.

(٣)

من المدائن إلى لقاء من عاد من جيش التتار سالماً لاستجلاء الخبر اليقين إذ للهزيمة أثر سيء على أنفسهم وهم الذين كانوا يتأهبون بأنهم قوم لا يعرفون الهزيمة ، واستمر الحزن في تبريز شهرين على من فقد في شقحب واغم غازان غمًا عظيمًا لما علم بهزيمة جيشه حتى اقترب من الموت ، ثم جلس غازان لمحاكمة قطلوشاه وجوبان وسوناي وسن كان معهم من الأمراء والقادة ، فأنكر غازان على قطلوشاه الهزيمة وأمر بقتله فتوسط له بعض الأمراء حتى عفا عنه ثم أبعدته عنه إلى جيلان وضرب غازان بولاي وأهانته (١) .

عودة السلطان الناصر إلى مصر بعد شقحب :

سار السلطان الناصر يوم الاثنين الرابع من رمضان ٧٠٢ هـ / أبريل ١٣٠٣ م من مكان الموقعة وبات بالكسوة . ووصل يوم الثلاثاء الخامس من رمضان ٧٠٢ هـ / ٢ أبريل ١٣٠٣ م إلى دمشق وخرج أهلها لاستقباله ومعه الخليفة المستنفي بالله وابتهاوا إلى الله بالدعاء والثناء والثناء ، ثم دقت البشائر . ونزل السلطان بالقصر الأبلق وزينت له المدينة ثم خلع على الأمراء والمقدمين . واستدر الناس طوق شهر رمضان في مسرات ثم صلى السلطان عيد النضر وخرج من دمشق في الثالث من شوال ٧٠٢ هـ / مايو ١٣٠٣ م قاصداً الديار المصرية (٢) . وتقدم الأمير بكتوت الفتح إلى مصر في ثامن شهر رمضان بالبشارة ولعمل الزينات والترتيبات الخاصة باستقبال السلطان وجيشه ، وحمل الأمير بكتوت الفتح معه كتاب البشارة بالانتصار على التتار ، فاستمرت الترتيبات والزينات حتى وصل السلطان الناصر محمد . فخرج أهل القاهرة إلى لقائه وكان يوماً عظيماً وتفاخر الناس في الزينة ونصبوا أقواس النصر ، فقدم السلطان يوم الثلاثاء - ثالث والعشرين شوال عام ٧٠٢ هـ / يونية ١٣٠٣ م . وخرجت المدينة وأهل الريف لاستقباله وكان يوماً مشهوداً . ودان

Howarth, Part 3, P. 475.

(١)

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٢٦ . ٩٢٧ ، العبر ج ٥ ص ٤١٨ ، النجوم ج ٨ ص ١٦٤ ،

النداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٦ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ١١٤ .

الأسرى من التتار يسرون بين يدي السلطان مقيدتين ورؤوس القتلى معلقة في رقاب الأسرى وكان عدد الأسرى ألف وستمائة في أعناقها ألف وستمائة رأس^(١) وأرسل الملك الناصر محمد إلى غازان بعد هزيمة جيشه في موقعة شقحب ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣ م رسالة أخبره فيها بما جرى على جيوشه التي امتلأ من قتلاهم فسيح الأرض والفضاء حتى عفت لحومهم الوحوش^(٢).

وفاة غازان ملك مغول فارس :

وفي الثالث عشر من شوال سنة ٧٠٣ هـ / مايو ١٣٠٣ م توفى غازان بن أرغون ابن أبغا بن هولأكو ملك مغول فارس في مدينة الري^(٣) وكانت مدة حكم غازان تسع سنوات وعشرة أشهر وقيل في سبب وفاته إزاء أصيب بحصى بعد أن علم بهزيمة جيشه في مرج الصفر بشقحب . وقيل إنه مات مسموماً^(٤) فتولى الملك بعده أخوه خدابندا في الثالث عشر من ذي الحجة ولقب نفسه غياث الدين محمد وكتب يخبر الملك الناصر بجلوسه وتوليته الحكم ويطلب المصالحة وإخماد الفتنة^(٥) وكان غازان قد أسلم سنة أربع وتسعين وستمائة . ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤوس الناس ونشر الإسلام بين التتار وأظهر العدل في رعيته وملك بلاد العراقين وخراسان وفارس والجزيرة وبلاد سلاجقة الروم وتسمى

- (١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٢٩ ، النجوم ج ٨ ص ١٦٦، ١٦٧ ، مصر في العصور الوسطى ص ٢٧٠ ، دولة بني قلاوون في مصر ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٤ ، الدرر الفاخر ص ٨٨ ، بدائع الزهور ج ١ ص ١١٤، ١١٥ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ١١٤ (٢) نص الخطاب الملحق رقم ٨ .
- (٣) الري مدينة ببلاد الجبال فيها ولد الخليفة هارون الرشيد وهي الآن تقع على مسافة خمسة كيلومترات من شرق طهران عاصمة إيران تعرف باسم مشهد عبد العظيم ، النجوم ج ٨ ص ١٦٨ حاشية ١ .
- (٤) ذكر أنه جلس على سرير الملك في الثالث والعشرين من ذي الحجة ٧٠٣ هـ - السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٥٤ ، المختصر ج ٤ ص ٥٠ .
- (٥) النجوم ج ٨ ص ١٦٨ - السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٥٤ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٩ ، المختصر ج ٤ ص ٥٠ ، دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة م ٤ ص ٤٥٤ .

بالتقمان وضرب السكة باسمه وكان أجل ملوك بيت هولاكو^(١) ، وبالرغم من إسلامه فإن علاقته مع المماليك كانت عدائية سادها القتال والتوتر ، وفشلت مساعي الصلح ولعل ذلك راجع إلى رغبة غازان في أن يكون هو صاحب الكلمة في المسلمين حيث كان يعتبر نفسه القوة التي تستطيع الدفاع عن بلاد الإسلام ، ومن ثم يجب أن تكون له المكانة الأولى ، وبعد موته خفت حدة التوتر بين الجانيين^(٢) .

وقد ترك موت غازان حزناً عميقاً عليه في بلاده إذ حزن عليه المسلمون من المغول حزناً عميقاً « لأنه أعاد الإسلام إلى المكانة التي كان يتبوها في بلادهم قبل غزوات جنكيزخان^(٣) وكان قد كبح جماح الوثنية وقضى على الفوضى في البلاد ، وأقام العدل . وخشى المسلمون في بلاده أن يخلفه ملك يضطهد الإسلام ، والمسلمين ويسفك دماءهم » .

أما ألوجايتو خليفة غازان المعروف بخدا بندا^(٤) بن أرغون بن أبغا والذي لقب نفسه بالملك غياث الدين فسار على سياسة ودية مع سلاطين المماليك ، ولهذا أوفد في بداية عهده إلى الملك الناصر محمد السفراء ومعهم الأمير حسام الدين أزدمر الحجيري . وعماد الدين علي بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العلي بن السكري وثمان سفراء الناصر الذين ذهبوا إلى غازان في أواخر أيامه وذلك في شعبان عام ٧٠٤ هـ / مارس ١٣٠٤ م ووصلوا إلى القاهرة أول رمضان ومعهما كتاب خدا بندا وهديته وتضمن كتابه خبر جلوسه على العرش بعد وفاة غازان^(٥) ، وأكد خدا بندا للناصر في خطابه حرصه على توثيق روابط الصداقة وخطابه في كتابه بالأخوة وسأله إخماد الفتنة وإحلال الصلح ، وقال إن غازان قد خرب البلاد بدون عقل وكان مسلم الظاهر كافر الباطن وما دخوله الشام برضاي ولا برضاء أمراء المغل ، فلذلك قتله

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٥٦ ، النجوم ج ٨ ص ٢١٣ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٥ .

(٢) تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٥ .

(٣) أصل اسمه فربندا ثم تغير خدا بندا ومعناه عبدا لله وهو محمد بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن

تولي بن جنكيزخان ، النجوم ج ٨ ص ١٦٩ حاشية ٢ ، السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦ ، الدر الفاخر ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٥) الدر الفاخر ص ١٢٧ ، السلوك ج ٢ ق ١ ص ٦ .

الله تعالى ، وقال في آخر كلمة « عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه »^(١) ، فاستجاب الناصر لطلبه وجهاز له هدية مع بعض الرسل وأكرم رسله وسير معهم علاء الدين على بن الأمير سيف الدين بلبان القلنجقى أحد مقدمى الحلقة والصدر سليمان المالكى المرتقى وساروا فى أول ذى القعدة عام ٧٠٤ هـ / مايو ١٣٠٥ م وعاد علاء الدين وسليمان المالكى من بلاد خدابندا فى رمضان عام ٧٠٥ هـ / مارس ١٣٠٦ م^(٢) ، وكان ملك مغول الشمال ابن أخى بركة أرسل رسله عام ٧٠٤ هـ / ١٣٠٥ م إلى الملك الناصر ومعهم هدية وجوار كثيرة ومماليك بلغ عددهم أربعمائة مملوك ومائتى جارية ، فأخذ السلطان منهم مائة وعشرين مملوكاً والباقى اشتراه الأمراء ، وتضمنت رسالة هؤلاء الرسل طلب ملك الشمال التعاون والتحالف ضد خدابندا ، وأن يسير لمحاربتة فى وقت واحد وقال للناصر : وحيث ما وصلت خيلنا من البلاد فهو لنا وحيث ما وصلت خيلكم من البلاد فهو لكم ، ولذلك كان خدابندا يحاول عقد الصلح مع الناصر حتى لا ينضم إلى ملك الشمال من ناحية ويقف على الحياد من ناحية أخرى^(٣) . إلا أن العلاقات بين خدابندا والمماليك ساءت وكان ذلك بسبب اعتناق خدابندا - ألوجايتو - المذهب الشيعى وعمل على نشره فى الجهات الغربية من دولته وأمر الخطباء ألا يذكرها فى خطبهم إلا على بن أبى طالب وولديه وأهل البيت ، هذا فى الوقت الذى كان فيه المماليك يعتقدون مذهب السنة ويعتبرون أنفسهم حماة له ، ومن ثم توترت العلاقات بين الطرفين فأرسل إلى البابا كلمنت الخامس ، وإدوارد الثانى ملك إنجلترا وفيليب الجميل ملك فرنسا يطلب إليهم مساعدته فى احتلال الشام ومصر ، إلا أن ملوك أوروبا والبابا لم يكثرثوا لطلبه ولا بتحقيق رغبته لأن أحوالهم الداخلىة لم تكن تسمح لهم بخوض غمار حرب المسلمين خاصة بعد القضاء على باقى الإمارات الصليبية فى فلسطين والتي كانت تعتبر ثغوراً لهم وكان ذلك فى عام

(١) الدر الفاخر ص ١٢٧ ، السلوك ج ٢ ق ١ ص ٦ ، تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٢) الدر الفاخر ص ١٢٨ .

(٣) النجوم ج ٨ ص ٢٧٨ .

١٢٩١م عندما استولى الأشرف خليل بن قلاوون على عكا وغيرها من إمارات الاستعمار الصليبي^(١) .

وفود بعض التتار إلى بلاد الإسلام :

علم السلطان الناصر بقدوم الأمير بدر الدين جنغلي بن شمس الدين البابا وهو أحد مقدمى التتار ومعه نحو عشرة من أهله وأتباعه ، وكان أحد عيون الملك الناصر على التتار^(٢) . فكتب الملك الناصر إلى نائب حلب باستقباله فتلقاه وبالغ في إكرامه . ثم تلقاه نائب دمشق واستمرت الاستقبالات له في كل منزل حتى وصل القاهرة . فخرج الأمير بيبرس الجاشنكير لاستقباله . ومعه الأمراء ، ثم مثل بين يدي السلطان في الثالث من ذى الحجة ٧٠٣ هـ / يولية ١٣٠٤ م وأنزل في دار بقلعة الجبل^(٣) حيث منحه الناصر إمرة ألف ، ثم وصل جماعة من التتار مستأمنين عام ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م وكانوا نحو مائتى فارس بنسائهم وأولادهم وفيهم جماعة من أقارب السلطان غازان وبعض أولاد سنقر الأشقر الذى كان ببلاد التتار قبل ذلك ، فكتب الناصر إلى نوابه بالشام باستقبال الوافدين حتى وصلوا إلى القاهرة في جمادى الأولى عام ٧٠٤ هـ / ديسمبر ١٣٠٤ م معهم أخوا الأمير سلار نائب السلطنة وهما فخر الدين داود وسيف الدين حبا^(٤) . فرتبت للوافدين الرواتب وأعطوا الإقطاعات ووزع جماعة منهم على الأمراء^(٥) .

محاولة غزو سويس عام ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥ م :

كان ملك سويس يقدم ضريبة سنوية للمماليك دليلا على الولاء وحسن الجوار ، ولكنه في عام ٧٠٤ هـ / ١٣٠٥ م امتنع عن دفع تلك الضريبة التى جرت بها العادة ،

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٦ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٧٨ ، دولة بني قلاوون فى مصر ص

٢٠٤ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٥ ، مصر فى العصور الوسطى ص ٢٧٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٩ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٥٠ .

(٤) وكان سلار من أسرى رقعة الأبلستين أيام الملك الظاهر بيبرس عام ٥٦٧٥هـ ، السلوك ج ٢ ق ١

ص ٥ حاشية ٤ .

(٥) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٩ .

وكان معنى هذا خروجه عن ولاء المماليك ومن ثم أرسل إليه نائب حلب استاداره قشتمر الشمسي أحد مقدمي حلب ، ومعه نحو ألفى جندي في ذى الحجة عام ٧٠٤ هـ / ١٣٠٥ م فأغارت القوات الإسلامية على بلاد سيس ونهبوا واحرقوا كثيراً من الضياع وسبوا النساء والأطفال وكان ذلك في المحرم من عام ٧٠٥ هـ / يولية ١٣٠٥ م وكان ابن قطلوشاه مقدم التتار بأطراف بلاد الروم ومعه ثلاثة آلاف جندي كانوا ساروا خلف والده وأخيه سلار نائب السلطنة الذين دخلوا بلاد الإسلام ولكنهم لم يتمكنوا منهم ، فعلموا بأخبار غزو جيش حلب لبلاد سيس فساروا نجدة لصاحبها ، فأنفق فيهم الأموال وأعطى كل فارس منهم سبعمائة درهم فاجتمع لديه حوالي ستة آلاف جندي^(١) وقيل غير ذلك وهو أن جماعة من التتار وصلوا يطلبون المال من صاحب سيس فلما بلغهم خبر الغارة الإسلامية على بلاد سيس ساروا مع صاحب سيس وملكوا طريق الدرد بند (الطريق) وكان المسلمون في عشرة آلاف فارس تقريباً إلا أنهم لم يعدوا أنفسهم إعداداً كاملاً لقتال العدو . فتقدمت قوات العدو وقاتلوا مع المسلمين الذين انحصروا في هذا الممر الضيق (الدردبند) فرمى التتار المسلمين بالنشاب ورمى الأرمن الحجارة فقتلت جماعة من المسلمين ، ثم سار التتار بالأسرى إلى خربندا بالأردو ، ثم علم نائب حلب بالهزيمة التي لحقت بالحملة فكتب بذلك إلى السلطان الناصر والأمراء فتقرر خروج الأمير بكتاش أمير سلاح وبيبرس الدوادار وأتوش الموصلى قتال السبع والدكر السلاح دار فساروا من القاهرة في منتصف شعبان عام ٧٠٥ هـ / مارس ١٣٠٦ م ومعهم أربعة آلاف فارس فلما علم صاحب سيس بهم خشي على نفسه فأرسل ما تأخر عليه مما كان يحمله السلطان من الهدايا والأموال واعتذر بأن القتال والهزيمة السابقة التي لحقت بالمسلمين لم تكن بإرادته ، وإنما بسبب التتار . وواعد أيضاً بالتحايل في إحضار الأمراء المأسورين « ثم عاد الأمير بكتاش بالجيش من غزة ، وفي عام ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م وصلت رسل صاحب سيس ومعهم الهدية بعد أن أطلق مائتين وسبعين أسيراً من المسلمين وجاءوا إلى حلب^(٢) وذلك في عام ٧٠٧ هـ

(١) الدرالفاخر ص ١٣١ .

(٢) السلوك ج ١ ق ١ ص ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، المختصر ج ٤ ص ٥١ - ٥٢ .

١٣٠٧ م أما الأمير فتح الدين بن صبرة فقد هرب من بلاد التتار ومعه جماعة ممن أسروا في غزوة سيس المذكورة^(١) .

اضطراب السلطنة المملوكية في مصر :

ضجر السلطان الناصر من تحكم الأمير بن سلار نائب السلطنة وبيبرس ، الجاشنكير في شئون دولته ومملكه ووقعت الفرقة والحصام بين السلطان والأميرين سلار وبيبرس واستطاع سلار وبيبرس إبعاد كثير من أمراء السلطان وخاصته وذلك تمهيداً للاستيلاء على السلطنة . واستمر ذلك الحال حتى شهر جمادى الآخرة عام ٧٠٨ هـ / نوفمبر ١٣٠٨ م فقرر الناصر الرحيل عن مصر والذهاب إلى الكرك . فتظاهر بأنه يريد الحج فوافق سلار وبيبرس على ذلك ما يتيح لهم والمماليك البرجية تحقيق أغراضهم في غيبته . فسار من القاهرة في الخامس والعشرين من رمضان ٧٠٨ هـ / مارس ١٣٠٩ م^(٢) ومعه جماعة من الأمراء ثم وصل إلى الكرك في اليوم العاشر من شوال ٧٠٨ هـ / مارس ١٣٠٩ م^(٣) بمن معه من الأمراء ومماليكه ، ثم اجتمع الناصر بالأمراء الذين رافقوه ، وأخبرهم بأنه قرر الإقامة في الكرك واعتزال الحكم وترك السلطنة وكتب إلى الأمراء في مصر بذلك وطالب منهم الإنعام عليه بالكرك والشوبك ، ثم أمر الأمراء الذين قدموا معه بالعودة إلى مصر فعادوا ، وفي مصر تقرر إقامة سلطان جديد بعد أن علموا بتنازل الناصر ، فأشاروا بسلطنة الأمير سلار ولكنه خشي عاقبة ذلك فامتنع ، فاختر الأمراء ركن الدين بيبرس الجاشنكير وبويج له ولقب المظفر وذلك في الثالث والعشرين من شوال عام ٧٠٨ هـ / أبريل ١٣٠٩ م وعين سلار نائباً للسلطنة^(٤) ، ثم كتب تقليداً إلى

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٣٦ .

(٢) ذكر أنهم ساروا في يوم السبت الرابع والعشرين من شهر رمضان ٧٠٨ هـ ، الدر الفاخر

ص ١٥٦ .

(٣) وذكر أن ذلك يوم الأحد الثامن من شوال ٧٠٨ هـ الدر الفاخر ص ١٥٦ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٣٣ - ٣٦ ، ٤٤ - ٤٥ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٥ - ١٧٩ ،

دول الإسلام ج ٢ ص ١٦٥ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٤٧ ، العبرج ٥ ص ٤٢٢ ، أخبار الدول

فيمن تصرف في مصر والدول ص ١٣١ .

الملك الناصر محمد بالإنعام عليه بالكرك والشوبك^(١) وفي هذه الآونة أغارت طائفة من المغول على قلعة كركر ونهبوا من فيها من التركمان ، فسارت إليهم القوات وهاجموا التتار في الليل وقتلوهم واستردوا ما أخذوه من قلعة كركر وأسروا منهم ستين رجلاً وغنموا عدة خيول^(٢) .

اضطراب أحوال السلطان المظفر الجاشنكير :

اشتد السلطان الجديد بيبرس الجاشنكير في مطالبة الملك الناصر محمد بدفع الأموال التي أخذها من الكرك والحيل التي أخذها معه من مصر والمماليك الذين استمروا عنده وتبودلت الرسائل بين الطرفين في هذا الشأن^(٣) ولكن دولة الجاشنكير بدأت تنهار شيئاً فشيئاً وذلك بسبب اختلاف الأمراء في مصر والشام مع السلطان المظفر وتركهم لطاعته وتحولهم إلى مناصرة الملك الناصر محمد ، مما أثار خوف المظفر وشجعه أنصهاره على القبض على الناصر ولكنه لم يفعل ذلك خوفاً منه ، وأرسل يطالبه بالأموال والحيل والمماليك . فأجابه الناصر إن استمر في طاب ذلك فإن الناصر سيسير إلى بلاد التتار يخبرهم بما أحدث الملك المظفر ، وكتب الناصر إلى نواب الشام بحلب وحماة وطرابلس وصفد وأمراء مصر ممن يثق به موضحاً لهم سوء حالته أثناء سلطنته الثانية ، وحجر الأمير سلار وبيبرس عليه مما أدى إلى اعتقاله للحكم ومسيره إلى الكرك ، وأوضح أيضاً للأمراء مطالبة المظفر له بالمال والمماليك وقال لهم « فإما أن تردوه عني وإلا أسير إلى بلاد التتار »^(٤) فاستجاب كل هؤلاء النواب ما عدا نائب صفد فقد طرد مندوب الملك الناصر ولم يجتمع به ووال نائب دمشق ومعظم أمراء الشام للملك الناصر وحضر إليه كثير من مماليك مصر ثم سار الناصر إلى دمشق في شعبان ٧٠٩ هـ / يناير ١٣١٠ م ودخل المدينة في الثاني عشر

(١) النجوم ج ٨ ص ١٨١ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٦٥ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٤٨ ، السلوك ج ٢ ق ١ ص ٤٥ ، ٤٦ ، العبر ج ٥ ص ٤٢٢ ، الدر الفاخر ص ١٥٦ أخبار الأول ص ١٣١ .
 (٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٤٧ .
 (٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٤٣ ، بدائع الزهور ج ١ ص ١٤٧ ، ١٤٨ .
 (٤) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٥٦ ، العبر ج ٥ ص ٤٢٢ .

من شعبان^(١) وقدم إلى الناصر محمد نائب حلب الأمير قراسنقر والأمير قبجق نائب حماة والأمير اسندمر كرجي نائب طرابلس وتمر الساقى نائب حمص ، فاستقبلهم وشكرهم وأثنى عليهم^(٢) فلما علم الملك المظفر في مصر باستيلاء الملك الناصر على الشام بغير قتال واجتماع الأمراء معه وتأييدهم له ، قلق المظفر واضطربت الدولة وخرجت عساكر مصر فرقة بعد أخرى إلى الناصر ، ولم يبق مع المظفر إلا خواصه فاضطربت القاهرة لرحيل الأمراء إلى الملك الناصر . فلما كان يوم الثلاثاء السادس عشر من رمضان ٧٠٩ هـ / فبراير ١٣١٠ م استدعى الملك المظفر الأمراء كلهم واستشارهم فيما يفعل بعد أن أوشك حكمه على الانهيار ، فأشار بعضهم عليه بالتنازل عن العرض والإشهاد على ذلك . وأن يرسل إلى الملك الناصر محمد يستعطفه فأرسل إلى الملك الناصر يطلب منه أن يوليه ، إما الكرك ، وأعمالها أو حماة وبلادها أو صهيون وملحقاتها^(٣) . ويتضح من الكتاب الذي كتبه المظفر إلى الناصر أنه كان مضطراً إلى الاستسلام وكتب إلى الناصر يقول : والذي أعرفك به أنني قد رجعت أقلدك بغيرك فإن حبستني عددت ذلك خلوقة وإن نفيتني عددت ذلك سياحة وإن قتلتني كان ذلك لي شهادة . فلما سمع الملك الناصر ذلك ولاه على صهيون^(٤) ثم جمع المظفر ما أراده من مال وخيل واصطحب مماليكه وعدتهم سبعمائة فارس وخرج من القاهرة إلى أظفيح . ثم انتهى به الحال إلى أن قتله الناصر في ذي القعدة عام ٧٠٩ هـ / أبريل ١٣١٠ م^(٥) .

وأقام الأمير سالار بالقلعة وخطب للملك الناصر محمد في مساجد القاهرة يوم الجمعة التاسع عشر من رمضان ٧٠٩ هـ / فبراير ١٣١٠ م وزالت دولة الملك المظفر^(٦) وسار الملك الناصر من دمشق إلى مصر فوصلها واستقبل استقبالاً رائعاً ودخل قلعة الجبل في أول شوال ٧٠٩ هـ / مارس ١٣١٠ م ثم جلس في ثاني أيام

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٦٨ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٧٠ ، النجوم ج ٨ ص ٢٧١ ، العبر ج ٥ ص ٥٢٣ .

(٤) النجوم ج ٨ ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٥) المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٥٩ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٧٥ .

(٦) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٧١ ، النجوم ج ٨ ص ٢٧١ .

شوال على سرير الملك واستقر حكمه^(١) وجعل نائبه في السلطنة بمصر الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار وولى قراسنقر المنصوري نائباً بدمشق والأقزم نائباً على صرخد وسيف الدين قبجق نائباً لحلب وسيف الدين بهادر نائباً بطرابلس وساروا جميعاً إلى نياباتهم^(٢).

هرب نواب الشام إلى بلاد التتار :

أشرنا أن الملك الناصر أقر الأمير قراسنقر نائباً بدمشق والأمير قبجق نائباً بحلب ولكنه نقل قراسنقر إلى نيابة حلب بدلا من دمشق وجعل في دمشق الأمير سيف الدين كواي المنصوري ثم اعتقله وولى مكانه على دمشق جمال الدين أقوش ، ثم قبض الناصر على بكتمر الجوكندار نائب مصر وحبسه بالكرك وجعل بدلا منه في نيابة مصر الأمير بيبرس الدوادار ، ولما كثر القبض على الأمراء خشى قراسنقر على نفسه وارتاب في نيات السلطان نحوه وانضم إلى بعض الأمراء فساروا إلى بلاد التتار وعبروا الفرات وساروا إلى ماردين حيث استقبلهم نائبها وأكرمهم وقدم لهم تسعين ألف درهم^(٣) ، ثم كتبوا إلى خدابندا ملك التتار يخبرونه بقدمهم ويطلبون منه السماح لهم بالدخول إلى بلاده فأذن لهم وأمر نواب الأقاليم بالإحسان إليهم واستقبلهم ، فلما اقتربوا من الأردن « المعسكر » ركب لاستقبالهم وترجل لهم لما ترجلوا له وبالغ في إكرامهم وسار بهم إلى مخيمه وأجلسهم معه على التخت وضرب لكل منهم خيمة ورتب لهم الرواتب السنية ، ثم استدعاهم بعد يومين واجتمع مع قراسنقر على انفراد وسأله فحسن له غزو الشام وضمن له تسليم البلاد بغير قتال ، ثم خلا بالأمير أقوش الأقزم وحسن له أيضاً أخذ الشام إلا أنه خوفه من قوة الملك الناصر

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٧٣ ، النجوم ج ٩ ص ٣ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٦٦ ، الدر الفاخر ص ١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٩ ، بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، المختصر ج ٤ ص ٥٨ تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) العبرج ٥ ص ٤٢٤ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٦٧ .

(٣) العبرج ٥ ص ٤٢٥ .

وكثرة جيشه ، فأقطع خدابندا مراغة^(١) للأمير قراسنقر وبقي عندهم إلى أن مات
٧١٥ هـ / ١٣١٥ م وأقطع همدان^(٢) للأمير أقوش الأفرم واستمروا هناك^(٣) ،
ولما علم الملك الناصر محمد بمسير أمراء الشام إلى بلاد التتار اتهم 'بأبي أمراء الشام'
الذين بقوا في الشام بالتآمر مع قراسنقر وأصحابه فاستدعاهم وعسكرهم إلى مصر
وقبض على الأمراء واستناب آخرين مكانهم^(٤) :

محاولة خدابندا غزو الشام ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م :

كان السلطان الناصر عزل الأمير مهمنا بن عيسى من نيابته ورثاسته للأعراب
وجعل بدلا منه أخيه فضل بن عيسى أميراً على العرب ، فاستاء مهنا من ذلك
وسار إلى بلاد التتار ولحق بالأمراء الذين دخلوا إلى خدابندا ، فلما وصل إلى ملك
التتار شجعه على فتح الشام وتحرك خدابندا بقواته نحو الشام فعلم الملك الناصر
بذلك فجمع الجيش واستعرض قواته وكتب إلى نواب الشام بالاستعداد واستمر
عرض الجيش من خامس ربيع الآخر ٧١٢ هـ حتى أول جمادى الأولى /
١ أغسطس ١٣١٢ - ٤ سبتمبر ١٣١٢ م^(٥) وسارت هذه القوات إلى الشام حتى
لم يبق بمصر أحد العسكر « وخرج السلطان في الثاني من شوال عام ٧١٢ هـ / آخر
يناير ١٣١٣ م بعد أن استناب بالقلعة سيف الدين ايتمش الحمدي وبينما
السلطان يسير إلى بلاد الشام وصل إليه الخبر في الثامن من شوال بعودة التتار إلى
الشرق وذلك ليلة السادس والعشرين من رمضان ٧١٢ هـ / يناير ١٣١٣ م بعد أن
نزلوا على الرحبة في أول رمضان فتركوها وساروا إلى بلادهم ، وفي أول رمضان عام
٧١٢ هـ / آخر ديسمبر ١٣١٢ م وصل التتار إلى الرحبة وحاصروها ثلاثة وعشرين
يوماً^(٦) وأقاموا حولها سبع حلقات من القوات لإحكام حصارها ونصبوا عليها

(١) تقع بإقليم أذربيجان مرصد الاطلاع ج ٣ ص ١٢٥٠ .

(٢) تقع ببلاد الجبل شمال نهاوند ، السلوك ج ٢ ق ١ ص ١١٥ حاشية ٥ .

(٣) الدر الفاخر ص ٢٢٢ - ٢٣١ تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٨٠ ، السلوك ج ٢

ق ١ ص ١١٥ ، النجوم ج ٩ ص ٣٠ - ٣٣ ، دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٠٤ ، دول الإسلام
ج ٢ ص ١٦٨ ، تاريخ المماليك بمصر ص ١٢٦ .

(٤) العبرج ٥ ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٠٤ .

(٥) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١١٩ ، دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٠٥ .

(٦) ذكر أن مدة الحصار دامت شهراً .

المجانيق^(١) وقاتلهم نائبها الأمير بدر الدين موسى خمسة أيام قتالا عظيماً ، ومنعهم من دخولها فأشار عليه رشيد الدولة بأن ينزل جماعة من الرحبة إلى خدابندا ويقدموا له هدية ويطلبون منه العفو ، فنزل القاضي نجم الدين إسحاق ومعه جماعة ، وقدموا لخدابندا خمسة جياذ وعشرة أباليج سكر فقبل ذلك وعاد بقواته إلى بلاده فطابت النفوس بعد اضطراب شديد عم بلاد الشام وجفل الناس في حلب وحمص وحماة ، فلما رحل العدو اطمأن الناس وعادوا إلى حياتهم الطبيعية ، وكان من أسباب عودتهم قلة العلف اللازم لدوابهم وغلاء الأسعار وموت الكثير منهم^(٢) ، وذكر أيضاً أن نجمة خاتون محظية الملك خدابندا ومغنيته كانت معه في حصار الرحبة طلبت من خدابندا الرحيل وترك الرحبة لأنها ضجرت من ذلك المكان ، فاستجاب لها^(٣) فترك الملك الناصر جيشه في قاقون وعسقلان وعزم على الحج ودخل دمشق في شوال ، ثم غادرها في ذي القعدة ٧١٢هـ / مارس ١٣١٣م إلى الكرك ومنها إلى الحجاز ومعه أربعون أميراً^(٤) وبعد أداء فريضة الحج عاد إلى الشام في محرم ٧١٣هـ / مايو ١٣١٣م وعاد إلى القاهرة في صفر ٧١٣هـ^(٥) .

استيلاء المسلمين على ملطية :

سار نائب الشام الأمير سيف الدين تنكز بجيشه ومعه قاضي القضاة نجم الدين بن صصرى وشرف الدين بن فضل الله وتبعه عسكر صنف وحمص وحماة وطرابلس ، وسار تنكز إلى حلب وخرج معه الأمير قرطاي والأمير ملكتمر الحمدار إلى ملطية وكان يعتمد أن المسير إلى بلاد سيس ولكن كان الهدف غزو ملطية لأن الناصر كان قد أرسل بعض الفدائيين من أهل مصيايف لقتل قراسنقر الذي لجأ

(١) الدر الفآخر ص ٢٥٣ .

(٢) المختصر ج ٤ ص ٦٩ ، ٧٠ ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٤٩ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٦٦ ، ٦٧ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٦ ، دول الإسلام ج ٢ ص ١٦٩ الدر الفآخر ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٣) الدر الفآخر ص ٢٦١ .

(٤) السلك ج ٢ ق ١ ص ١١٩ ، دولة بني قلاوون ص ٢٠٥ ، النجوم ج ٨ ص ٣٤ ، ٣٥ .

Howorth, P. 3, P. 567.

(٥) النجوم ج ٨ ص ٣٥ .

إلى التتار ، ولكن رجلا من الأكراد يقال له مندوه كشف أمر هؤلاء الفدائيين وقبض على جماعة منهم ، فغضب السلطان لذلك وكان نائبها من جهة جوبان يقال له بدر الدين ميزامير بن نور الدين فخشي من مندوه أن يأخذ منه نيابة ملطية ، فما زال السلطان يتحايل حتى نجح في مراسلة الأمير ميزامير نائب ملطية واتفق معه على أن يسلم البلد لعسكر الناصر فوافق النائب فجهز الناصر الجيش ، فسارت القوات مع تنكز حتى وصلوا إلى ملطية يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من المحرم ٧١٥ هـ / آخر أبريل ١٣١٥ م ، وحاصرها ثلاثة أيام فاتفق الأمير ميزامير مع أعيان ملطية على تسليمها وخرج معه جماعة من أعيان ملطية إلى تنكر فأمنهم وألبسهم التشاريف السلطانية المجهزة من القاهرة ، وأعطى الأمير ميزامير سنجقاً سلطانياً ثم قبض على مندوه الكردي وسار العسكر مع تنكز عائداً في الرابع والعشرين من المحرم ٧١٥ هـ / أول مايو ١٣١٥ م بعد أن ترك نائب حلب لهدم أسوار ملطية ولكن مندوه الكردي هرب قبل دخول الدربند ثم وصلوا إلى الشام وسار ميزامير وابنه وثلاثين رجلاً مع الجيش فوصلوا في الخامس من ربيع الآخر ٧١٥ هـ / يولية ١٣١٥ م^(١) أما مندوه الكردي فإنه طلب الأمان من السلطان فأمنه وأنعم عليه بإمرة في دمشق وذلك عام ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م^(٢) ، ثم قبض على الأمير بدر الدين ميزامير بن الأمير نور الدين صاحب ملطية لأنه كاتب جوبان مدبرة دولة أبا سعيد بن خدابندا يطلب منه أن يطلبه من الملك الناصر فلما علم الناصر بذلك شك فيه وقبض على مندوه الكردي بغزة وذلك عام ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م^(٣) .

غارة المسلمين على ماردين ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م :

سار الأمير شهاب الدين قرطاي من حلب ومعه ستمائة فارس للغارة على ماردين وديتسر^(٤) وذلك لعدم احترام صاحبه ماردين مما التزم به ومخالفته

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٤٢ - ١٤٤ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٢٦ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٨٤ .

(٤) ديتسر : بلدة مشهورة من نواحي الجزيرة تحت جبل ماردين - مرصد الاطلاع ج ٢ ص

لإدارة وأوامر السلطان الناصر محمد ، فشن الأمير قرطاي هجوماً على بلاد ماردين لمدة يومين فصادف جماعة من التتار في ألقى فارس حضروا إلى ماردين لحماية المال أو القطيعة السنوية ، فحاربهم قرطاي وقتل منهم ستمائة رجل وأسر مائتين وستين أسيراً وقدم بالزوس والأسرى إلى حلب ولاء علم السلطان الناصر بذلك سر سروراً عظيماً وأرسل التشریفات لنائب حلب والأمير قرطاي^(١) .

استعانة شريف مكة بالمغول :

تقاتل شريف مكة أبو الغيث مع أخيه حميضة وسار العسكر من مصر لتأديبه وبعد قتال مع حميضة انهزم وسار يريد الدخول في بلاد التتار فتلقيه خدابندا ملك مغول فارس وأكرمه وأقام حميضة عنده شهراً واقترح على خدابندا إرسال طائفة من المغول إلى بلاد الحجاز ليملكها ويخطب له على منابرها ، ومن ثم جرد خدابندا مع حميضة أربعة آلاف فارس وسار حميضة بهم في شهر رجب ٧١٥ هـ / أكتوبر ١٣١٥ م يريد مكة ، وأخذ خدابندا يجمع الجيش للعبور إلى بلاد الشام ولكنه مات قبل تحقيق هذا الغرض . ولاء علم محمد بن عيسى بمسير حميضة وجيش التتار إلى الحجاز شق ذلك عليه ولكنه علم بموت خدابندا فسار ومعه العرب وهاجم جيش التتار وحميضة ليلاً ووضع فيهم السيف وهو يصبح باسم الملك الناصر محمد . فقتل أكثرهم ونجا حميضة وأسر من التتار أربعمائة^(٢) وغنم كثيراً من الغنائم ، فلما علم السلطان بذلك سر كثيراً واستدعى الأمير محمد بن عيسى (أمير العرب) وأنعم عليه . ولكن حميضة عاد من العراق في ذي القعدة عام ٧١٧ هـ / يناير ١٣١٨ م ومعه نحو الخمسين نفرًا من المغول فمنعه أخوه رميته من الدخول إلا بإذن السلطان الناصر فكتب الناصر بمنعه من دخول مكة مالم يقدم إلى مصر ثم هرب رميته أمير مكة إلى مصر خوفاً من أخيه حميضة الذي ملك مكة وخطب لأبي سعيد بن خدابندا فسير الناصر إليه الجيش لتأديبه^(٣) .

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٤٧ ، دولة بني قلاوون بمصر ص ٢٠٥ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٤٨ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٧٥ ، ١٧٦ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧٨ .

وفاة خدابندا ملك مغول فارس :

توفي خدابندا محمد بن أرغون بن ألغا بن هولكو بن تولى بن جنكيزخان ملك فارس وخراسان وعراق العجم والروم وأذربيجان والبلاد الأرمينية وديار بكر وذلك في السابع والعشرين من رمضان عام ٧١٦ هـ / ديسمبر ١٣١٦ م^(١) ودفن بمدينة السلطانية التي أنشأها بالقرب من فزوين وكان قد اعتنق مذهب الرافضة الشيعة وذلك بعد اجتماعه مع تاج الدين الأوى الرافضى ، وكتب إلى سائر بلاده يأمرهم بسب الخلفاء أبي بكر وعمر وأمر باتباع مذهب الشيعة الرافضة وقيل إنه عزم على تجريد ثلاثة آلاف فارس إلى المدينة المنصورة لنقل رفات أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ولكنه هلك قبل تحقيق هذا الهدف^(٢) وتوترت العلاقات بين خدابندا والمماليك بسبب اعتناقه المذهب الشيعي . وحاول غزو الشام ونشر المذهب الشيعي فيها وحاول الاستعانة بالملوك الأوربيين وأرسل البعوث إلى البابا من أجل ذلك ولمعاقبة المماليك ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل أيضاً^(٣) وبعد وفاته تولى الملك ابنه أبو سعيد في الثالث عشر من ربيع الأول ٧١٧ هـ / مايو ١٣١٧ م وكان في مدينة أخرى فقدم منها وتولى السلطة وكان صغير السن فأصبح الأمير جوبان مدبراً للجيش والممالك وهو سني المذهب . ومن ثم أحيى المذهب السني من جديد^(٤) عبر نهر الفرات في أواخر شعبان ٧١٧ هـ جماعة من التتار بقيادة الأمير طاطاي ودخلوا القاهرة في شوال ٧١٧ هـ / ديسمبر ١٣١٧ م^(٥) .

(١) وذكر أن وفاته في سادس ذى الحجة ٧١٦ هـ ذلك أن زوجته وضعت له سماً باتفاق مع الوزير خواجه رشيد الدين والحكيم جلال الدين واسم زوجته قطلوشاه خانون ابنة ارتجال خال الملك خدابندا - الدر الفاخرس ٢٨٨ .
Howorth, Part 3. P. 572.

(٢) النجوم ج ٩ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٥٥ .

(٣) تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٨٠ ، ٨١ .

(٤) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧٧ ، دولة بني قلاوون ص ٢٠٥ ، تذييل دول الإسلام ج ٢

ص ١٧٣ ، النجوم ج ٩ ص ٢٣٩ .

(٥) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٧٤ .

علاقة أبي سعيد ملك مغول فارس بالمماليك :

ولقد كان عهد أبي سعيد بن خدابندا عام ٧١٧ هـ - ٧٣٥ هـ (١٣١٣ - ١٣٣٤ م) بداية جديدة للعلاقات بين التتار والمماليك إذ تحسنت العلاقات بين الملك الناصر محمد والمغول وذلك لأسباب منها أنه في سنتي ١٣١٨ - ١٣١٩ م نزل ببلاد آسيا الصغرى قحط ومجاعة ، ثم تلتها الأعاصير والزوابع مما أثار فزع الملك أبي سعيد فاستشار علماء الدين في سبب تلك الشدائد فأخبروه بأن السبب ما انتشر في البلاد من فساد وموبقات وشرب للخمر . فأمر أبو سعيد بإغلاق الخانات وإصلاح أحوال البلاد ، وأظهر الدين الإسلامي والمذهب السني على وجه الخصوص ، مما كان له كبير الأثر في تحسين العلاقات بين الدولة المغولية ودولة المماليك وجنح الفريقان للسلم وتركوا القتال هذا بالإضافة إلى ضعف دولة أبي سعيد واضطرابها ووقوع الفتنة بين المغول وذلك بسبب تحكم جوبان في أبي سعيد وعجز الأخير عن القبض عليه وقتل بسبب الاضطرابات والفتنة كثيراً من أمراء المغول والأجناد والأتباع وانتصر أبو سعيد على خصمه فسر السلطان الناصر بذلك لما فيه من انتقام صفوف المغول وانشغالهم بتشاكلهم^(١) وحدث أن أرسل السلطان الناصر ثلاثين فدائياً لقتل الأمير قراسنقر الذي هرب إلى خدابندا قبل ذلك ، فلما وصلوا إلى تبريز تقرب بعضهم إلى قراسنقر وأعلموا بما يدبر له فقبض على بعضهم وقتلهم وحاول البعض الآخر قتله ولكنه لم يفلح وذاع في الأردو أن الفدائيين يريدون قتل السلطان أبي سعيد وجوبان والوزير علي شاه وقراسنقر وأمراء المغول فاحتبسوا على أنفسهم وقبضوا على جماعة من الفدائيين ثم اصطحب أبو سعيد أحد عشر يوماً خوفاً على نفسه ، وطلب المجد إسماعيل السلامي سفير الملك الناصر ببلاد التتار ، وأنكر عليه جوبان ما فعله الفدائيون وقال له « مالك

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٨٤ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٩٣ ، ٩٤ ، مصر في العصور

الوسطى ص ٢٧١ .
Howorth, Part 3, P. 525, 590 & 595.

أنت كل قليل تحضر إلينا هدية وتريد منا أن نكون متفقين مع صاحبك لتمكر بنا حتى تقتلنا الفداوية والإسماعيلية»^(١) ثم هدده بالقتل أولاً تدخل الوزير على شاه فعفا عنه ثم نذكر جوبان لما يفعله الإسماعيلية من قتل بعض أمراء المغول وجهاز الأمير المجد السلامي إلى مصر ليكشف الخبر ويبحث القضية مع السلطان وأرسل التتار بعده رسلاً يحصلون هدية لسلطان المماليك^(٢).

مفاوضات الصلح بين التتار والمماليك :

وصل الأمير المجد السلامي^(٣) في طلب الصلح فخرج القاضي كريم الدين الكبير لاستقباله ، وصعد به إلى قلعة الجبل فأخبر السلطان برغبة جوبان مدبر دولة أبي سعيد وأعيان دولته في الصلح ، وقال إن رسل أبي سعيد وهداياهم طريقهم إلى مصر . فكتب إلى نائبي حلب ودمشق باستقبال الرسل وإكرامهم فوصلوا في عام ٧٢٣ / ١٣٢٣ م^(٤) ومهم كتاب أبي سعيد يطلب الصلح واشترط فيه شروطاً منها : أولاً : ألا يدخل الفدائيون إلى بلاد التتار ، وثانياً : أن من يقدم من مصر إلى التتار لا يرد إلى مصر . ومن يقدم منهم إلى مصر لا يعود إلى التتار إلا برضاه ورغبته . ثالثاً : وألا يبعث السلطان العرب والتركمان للإغارة على بلاد التتار . رابعاً : وأن تفتح الطريق وتؤمن لتيسير التجارة بين البلدين هذا بالإضافة إلى أن يسير ركب الحجاج من العراق إلى الحجاز في كل عام بمحمل ومعه سنجق فيه اسم صاحب مصر مع سنجق أبي سعيد، كذلك لا يطلب السلطان الناصر الأمير قراسنقر ولا يحاول قتله^(٥) فجمع الملك الناصر الأمراء واستشارهم في ذلك بعد ما قرأ عليهم كتاب أبي سعيد فاتفق الرأي على عقد الصلح بالشروط المذكورة . ومن أسباب ذلك الصلح أن جوبان مدبر دولة أبي سعيد كان مسلماً

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٨ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٨ .

(٣) مجد الدين السلامي وهو تاجر يتنقل في بلاد المغول ويقوم بدور السفير - الدر الفاخر ص ٣١٢ ،

(٤) الدر الفاخر ص ٣١٢ .

(٥) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ، العبرج ٥ ص ٤٣١ ، دولة بني قلاوون في مصر

وأن السلطان الناصر يرغب في منع الخارجين عليه من الدخول في خدمة المغول وتحريضهم على غزو الشام وقاتل المسلمين ، وعمدت الهدنة بينهما لمدة عشر سنوات وعشرة أيام وتوقفت العلاقات من أجل ذلك حتى اعترف كل منهما براءة الآخر في الحج^(١) وجهزت الهدايا لأبي سعيد بما قيمته أربعين ألف دينار^(٢) . وصار يدعى لأبي سعيد بعد الملك الناصر محمد على منابر مكة وحدث أن أرسل الناصر رسله ومعهم كتاب يطلب من التتار ألا يمكن عرب آل عيسى من دخول العراق لخروجهم على طاعة الملك الناصر واعتدائهم على رسل أبي سعيد وسرقتهم للهدية في هذه المرة وأن العسكر خرج لقتالهم ، ثم سافر المجد السلامي إلى التتار ليبشرهم بعودة الرسل والهدية من سلطان مصر والشام ومعهم رسالة الناصر محمد إلى الملك أبي سعيد وكتب لصاحب مكة بإكرام حجاج العراق والدعاء لأبي سعيد بعد الملك الناصر محمد في منابر مكة ، ونادى أبو سعيد في بلاده بالحج وانتشر العدل في بلاده وأراق الحمور ورفع شهادة الإسلام وعمر المساجد والجوامع^(٣) .

فتقرر الصلح بين المملكتين وساد السلام وانتشر العدل وعاد الأمير أيتمش الحمدي رسول الملك الناصر إلى أبي سعيد وكان ذلك في ربيع الأول عام ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢ م وتم عقد الصلح بينه وبين التتار ، وحمل أيتمش نسخة الأيمان التي تتضمن قسم أبي سعيد وجوبان والوزير على شاه وزير أبي سعيد . ثم خلع أبو سعيد على أيتمش الحمدي بهدية سنوية قدمها للسلطان الناصر عندما وصل إلى مصر وأقسم ألا يدخل في ملكه فقبله الناصر منه ، وأنعم عليه بمائة ألف درهم ثم وصلت رسل أبي سعيد في الرابع عشر من جمادى الآخرة ٧٢٢ هـ / أول يولية ١٣٢٢ م لأخذ قسم السلطان الناصر محمد على اتفاقية الصلح ومعهم هدية فتم لهم ما جاءوا بسببه وعادوا إلى بلادهم بهدية سنوية وذلك في جمادى الآخرة ٧٢٢ هـ / يولية ١٣٢٢ م وتواتر تبادل الرسل بين أبي سعيد والملك الناصر لتوطيد أواصر الصداقة

(١) الدر الفناخر ص ٣١٣ ، تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٨١ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢١٠ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢١١ .

والعلاقات الودية إلا أنه بعد وفاة أبي سعيد اضطربت بلاد المغول وسادتها الفوضى مما جعل الملك الناصر يفكر في غزو فارس والاستيلاء عليها ، ومن ثم بدأ يظهر التأييد لحسن الأكبر ضد أخيه حسن الأصغر الذي ينافسه على العرش وهما ولدى تيمور تاش بن شوبان حاكم آسيا الصغرى فأرسل الناصر إلى حسن الأكبر كتاباً يعده بالمساعدة ، مقابل اعترافه بالسيادة للملك الناصر محمد في بغداد^(١) .

والخلاصة أن السياسة العدائية بين مغول فارس والمماليك انتهت منذ عهد خدابندا حيث كانت العلاقات قد تحسنت منذ وفاة غازان وسارت العلاقات الودية والسلمية وحلت محل العلاقات العدوانية ، وظلت الأمور هكذا حتى نهاية الدولة المملوكية الأولى . ويجدر بنا الآن أن نعود إلى مغول الشمال التفجاق وكان ملكهم قد غضب حينما علم باتفاق الملك الناصر محمد مع أبي سعيد وكان رسل الملك الناصر حينئذ عند أزبك ملك مغول الشمال فبعث معاتباً الملك الناصر فاعتذر الناصر لأزبك بأنهم إنما دعوا لإقامة شعائر الإسلام وإعلاء شأنه في بلاد أبي سعيد^(٢) .

خروج دمرداش بن جوبان على طاعة أبي سعيد :

قدم إلى بلاد الإسلام في السابع من ربيع الأول عام ٧٢٨ هـ / يناير ١٣٢٨م الأمير دمرداش بن جوبان بن تلك بن تدوان وكان السبب في ذلك أن القمان أبا سعيد بن خدابندا . لما ملك البلاد أقبل على اللهو وترك شئون الحكم فاستبد الأمير جوبان بالحكم واستناب ولده المسمى دمشق خوجا بالأردو وبعث ابنه دمرداش إلى مملكة الروم : ولم يبق لأبي سعيد من السلطنة شيء وحدث أن تحرك بعض أولاد كيك خان بجهة خراسان ، وخرج عن طاعة أبي سعيد فتقدم جوبان لقتاله ، فلما ابتعد جوبان عن الأردن قبض أبو سعيد على دمشق خوجا وقتله بظاهر مدينة السلطانية في شهر شوال ٧٢٧ هـ / أغسطس ١٣٢٧م وكتب إلى من خرج من الجيش مع جوبان بما حدث وأمرهم بالقبض على جوبان ، فلما علم جوبان بما فعل

(١) تاريخ المماليك البحرية ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) العبرج ٥ ص ٤٣٢ .

أبو سعيد حشد جيشاً وأقام شخصاً من أسرة جنكيزخان يسمى ساؤور يقصد خلع أبي سعيد من الحكم وإقامة ساؤور مكانه ليحقق مآربه وينجو من مؤامرات أبي سعيد ، فعلم به أبو سعيد وخرج لقتاله ودارت بينهم الوقائع وثار الفتنة وانتهت بقتل جوبان وهروب ساؤور^(١) ثم كتب إلى دمرداش جوبان أن يقدم إلى الأردن وحرص أمراء الروم على القبض على دمرداش أوقته^(٢) وكان الأمير دمرداش قد ملك بلاد الروم جميعها وجبال ابن قرمان ، وكان يخشى على نفسه من السلطان الملك الناصر خشية أن يرسل إليه فدائياً يقتله لأن دمرداش منع التجار من إرسال المماليك إلى مصر ، فأخذ الناصر يرسل الهدايا إليه ويتحابل عليه ويترضاها إلا أن دمرداش كان يتشكك فيه ولم يأمن جانبه ولذا لم يلتفت إليه ، فلما وصل رسل سعيد قتلهم دمرداش كما قتل الأمراء لأنهم يتآمرون مع أبي سعيد ثم فكر دمرداش أنه مضطر إلى التقرب من الناصر وتحسين علاقته معه حتى لا يقع بين عدوين في آن واحد فكتب إلى الملك الناصر بطاعته ويستأذنه في القدوم إلى مصر ليكون في خدمة السلطان فيجعله نائباً ببلاد سلاجقة الروم ، فسر الناصر بذلك وكتب إلى دمرداش رسالة وعده فيها بأشياء كثيرة ورغبة في الحضور فتحير دمرداش بين أن يقيم فيأتيه أبو سعيد فيقاتله أو يتوجه إلى مصر فلا يدرى ما يكون موقف الناصر منه وأخيراً استقر رأيه على المسير إلى مصر وأخبر الأمراء أن عسكر مصر تقدم لفتح بلاد سلاجقة الروم وأن الناصر محمد أمره أن يكون نائبه ببلاد الروم فمشى عليهم ذلك وسرهم^(٣) ووضع دمرداش أولاده وأهله في قلعة حصينة . وبعث معهم أمواله ثم سار بعسكره حتى اقتربت من بهسنا فأخبر من كانوا معه أنه يريد مصر وخيرهم بين العودة إلى بلادهم وبين المسير معه فعادوا ثم وصل دمشق في صفر ٧٢٨ هـ / ديسمبر ١٣٢٧ م واستقبله تنكز نائب دمشق وسار إلى مصر فركب الأمراء للقاءه ووصل دمرداش إلى القاهرة في السابع من ربيع الأول ٧٢٨ هـ / يناير ١٣٢٨ م فقدم الهدايا إلى الملك الناصر^(٤) واجتمع

(١) الدر الفاخر ص ٢٤٦ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٢ ، العبرج ٥ ص ٥٥٠ ، دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٠٩ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٣ ، دولة بني قلاوون ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٤ .

دمرداش بالسلطان الناصر وفاوضه في أمر بلاد الروم وطالب من الناصر أن يجهز جيشاً لفتح بلاد الشام ، ولكن السلطان أمهله حتى يأتي خبر أبيه جوبان وماذا فعل به أبو سعيد ثم أرسل الناصر إلى ابن قرمان ^(١) يطالب إليه أن يبعث أولاد وأهل دمرداش إلى مصر ولكن الأسرة رفضت وقالوا « لا حاجة لنا في مصر » فأرسل ابن قرمان إلى الناصر يعرفه بذلك ويخبره أن امتناعهم بسبب تحالفهم مع دمرداش وقال أيضاً إن دمرداش سفك دماء كثيرة وقتل من المسلمين الكثيرين وما دخل في مصر إلا طمعاً في ملكها ، فلما علم السلطان بأمر دمرداش تغير عليه وجمع السلطان بينه وبين نجم الدين إسحاق الرومي ^(٢) الذي قدم بكتاب ابن قرمان إلى السلطان ^(٣) ، ثم وصل في ربيع الأول ٧٢٨ هـ / يناير ١٣٢٨ م الأمير شاهنشاه ابن عم جوبان فخلع عليه السلطان ثم وصل نحو ستائة فارس من فرسان دمرداش ففرق أكثرهم على الأمراء واختار نحو التسعين منهم العودة إلى بلادهم فسمح لهم بالعودة فعادوا . ووصلت رسل أبي سعيد إلى الناصر ومعهم كتاب أبي سعيد يستشير السلطان في أمر جوبان بعد أن قبض عليه ثم أرسل الناصر في جمادى الأولى ٧٢٨ هـ / مارس ١٣٢٨ م الأمير سيف الدين أروج إلى أبي سعيد يشفع في دمرداش في التاسع من جمادى الأولى ٧٢٨ هـ / مارس ١٣٢٨ م ^(٤) ولما تبين للناصر سوء نية دمرداش قبض عليه ، وأمسك من معه من الأعيان وذلك في يوم الخميس العشرين من شعبان وكان دمرداش قد حاول التقرب إلى الأمراء ففرق عليهم مائة ألف رأس من الغنم عدا الأموال بقصد أن يضمن ولاءهم ويحقق عن طريقهم أطماعه حين تسنح الفرصة ثم أخذ ينتقد الملك الناصر ، فقبض عليه

(١) دولة بني قرمان أسسها بجهاث أرمنك جنوب آسيا الصغرى في أوساط القرن السابع الهجري وقد أسسها قرمان بن نورا صوفي المتوفى ٦٢٠ هـ / ١٢٦١ م دولة بني قلاوون في مصر ص ٢١١ حاشية ١ .

(٢) كان إسحاق الرومي يحكم قلعة أنطاكية وهي حصن وبلد كبير بآسيا الصغرى على شاطئ البحر المتوسط وهي قلعة أخذها دمرداش وقتل والده فقدم إلى مصر مطالباً دمرداش بدم أبيه ، السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٧ حاشية ٢ .

(٣) السلوك ج ٤ ق ١ ص ٢٩٧ ، العبرج ٥ ص ٤٣٥ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٥ .

واعتقله وفرق أصحابه على الأمراء^(١) ، ثم قتل دمرداش في الرابع من شوال ٧٢٨ هـ / أغسطس ١٣٢٨ م^(٢) .

تطور العلاقات بين المماليك وأبي سعيد :

وصل رسل أبي سعيد في رمضان ٧٢٨ هـ / يوليو ١٣٢٨ م إلى الناصر ومعهم هدية وكتاب فأنعم السلطان عليهم وأرسلهم إلى دمرداش وهو في معتقله ليروه فاجتمعوا به وتحدثوا معه وكان مضمون رسالتهم طاب إلى السلطان بتسليم دمرداش إلى أبي سعيد مقابل تسليم الأمير شمس الدين سنقر المنصوري فوافق السلطان أولاً ولكنه عدل عن ذلك، فلما كان يوم الرابع من شوال ٧٢٨ هـ / أغسطس ١٣٢٨ م أخرج دمرداش من معتقله وشاهده رسل الملك أبي سعيد في أغلاله ثم قتل السلطان دمرداش وقطع رأسه وأرسله إلى أبي سعيد ومن ثم عاد رسل أبي سعيد في الثامن من شوال ٧٢٨ هـ / أغسطس ١٣٢٨ م ومعهم الأمير سيف الدين أيتمش الحمدي برسالة السلطان إلى الملك أبي سعيد متضمنة ما فعله الناصر بدمرداش بن جوبان . وهكذا أسفرت العلاقات الطيبة بين أبي سعيد والملك الناصر على تعاون الطرفين على القضاء على الخصوم وتوطيد أواصر المودة والصفاء^(٣) . ثم ألزم النصارى ببغداد أن يلبسوا العمام الزرق واليهود العمام الصفراء بما فعله بالسلطان الملك الناصر . وذلك للتدليل على تحسن العلاقات بين السلطنة المملوكية ودولة إيلخانات فارس في ذلك العصر^(٤) ويقول صاحب النجوم الزاهرة « وأما أبو سعيد ملك التتار فكانت الرسل لا تنقطع بينهما ويسمى كل منهما الآخر أخاً . وكانت الكلمتان ومراسم الملك الناصر تنفذ في بلاد أبي سعيد ورساله يتوجهون إليه بأطلائهم وطلبخاناتهم بأعلامهم المشورة »^(٥) ثم عاد أيتمش الحمدي من بلاد أبي سعيد في المحرم

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٧ ، العبرج ٥ ص ٤٣٦ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٩ دولة بني قلاوون ص ٢١٢ ، تاريخ دولة المماليك في مصر

ص ٨١ وقيل إنه توفي يوم الأربعاء الثاني والعشرين من ذي القعدة ٧٢٨ هـ الدر المنهاج ص ٣٤٨ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣٧٥ .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢١١ .

٧٢٩ هـ / نوفمبر ١٣٢٨ م ثم قدم رسل أبي سعيد في جمادى الآخرة ٧٢٩ هـ /
 أبريل ١٣٢٩ م يطلبون المصاهرة إذ أن أبا سعيد عرض الزواج من إحدى بنات
 السلطان الناصر محمد (١) . وكرر هذا الطلب في سفارة عام ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م
 فطلب الناصر مهلة لتحقيق هذه الرغبة (٢) وكان الشيخ حسن بن الجلائري (٣)
 أصبح الشخصية البارزة في بلاط أبي سعيد بعد مقتل جوبان وأولاده وهو الذي
 أسس الدولة الجلائرية بفارس بعد وفاة أبي سعيد ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م فأرسل رسله إلى
 الملك الناصر (٤) .

كان أبو سعيد بن خدابندا لما قتل جوبان أراد إقامة ياسور مكانه لأنه من
 عظماء القادة ولكنه خشى منه لشجاعته أن تحلته نفسه بالاستيلاء على السلطنة ،
 ثم استأذن ياسور أبا سعيد في الحج ، فأذن له وسار إلى الحجاز فكتب أبو سعيد
 كتاباً إلى الملك الناصر يعرفه بأمر ياسور ويطلب إليه قتله خوفاً من أن ينقلب
 عليه . فلما وصل كتاب أبي سعيد إلى الناصر كلف بعض ثمالكيه بالمسير إلى الحجاز
 لتنفيذ رغبة أبي سعيد . وبينما كان ياسور يقود شعائر الحج قتله مملوك الملك الناصر
 وفي تلك الفترة كان الأمير مهنا بن عيسى خرج على طاعة الناصر ولجأ إلى بلاد
 التتار إلا أن الملك أبا سعيد اضطره إلى الرحيل حرصاً منه على إرضاء السلطان الناصر (٥)
 وإبقاء على وشائج الصداقة بينهما وكتب بذلك إلى الملك الناصر فإزداد سروراً
 واضطر مهنا إلى العودة إلى بلاد الشام ومنها إلى القاهرة حيث قابله السلطان
 بالترحاب وعاتبه على ما حدث فاعتذر له ابن مهنا وقبل السلطان عذره وخام عليه
 وعلى أصحابه الذين قدموا معه وأقطعهم قرية درمة (٦) إحدى قرى غوطة دمشق
 وذلك عام ٧٣٤ هـ / ١٣٣٤ م (٧) .

(١) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣١١ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣٤٤ .

(٣) ظهرت الأسرة الجلائرية الإبليخانية وسط الفوضى والاضطرابات التي أعقبت وفاة أبي سعيد
 آخر مملوك مغول فارس من الأسرة الجنيكيز خانية فحلت الأسرة الجلائرية محلهم في الحكم دائرة المعارف
 الإسلامية الترجمة م ٤ ص ٥٤٦ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣١٠ .

(٥) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٦) قرية من قرى غوطة دمشق وهي غير دومة الجندل : مرصد الاطلاع ج ٢ ص ٥٤٢ .

(٧) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣٧٢ - ٣٧٤ .

وفاة أبي سعيد وتطور أحوال المغول بعده :

توفي السلطان أبو سعيد بن خدا بندا أرغون بن أبغا بن هولاکو بن طلوتمان ابن جنکيزخان وذلك في ربيع الآخر عام ٧٣٦ هـ / نوفمبر ١٣٣٦ م^(١) . وكان في طريقه لمحاربة أزبک خان ملك مغول القفجاق ، وقيل إن سبب وفاته أن زوجته بغداد خاتون^(٢) دست له السم لأنه أحب دلشاد خاتون زوجته الثانية ابنة دمشق خواجه بن جوبان ولم يخلف أبوسعيد أولاداً فاعتلى عرش الملك بعده أرباكاؤن من سلالة أريغ بغا « أبي هولاکو » وذلك بمساعدة الوزير غياث الدين محمد ولقب بمعز الدنيا والدين ، وحاول تدعيم مركزه فتزوج أخت أبي سعيد أرملة جوبان وسار لمحاربة أزبک خان وهزمه إلا أن الفتن الداخلية ما لبثت أن انتشرت في دولة المغول بفارس فخرج الأمير علي باد شاه علي أرباكاؤن ثم وقع الاختيار على موسى بن علي بن بيدو بن طوغاي بن هولاکو فاضطر أرباكاؤن إلى الفرار سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م حتى سار علي باد شاه لمحاربهه إلا أن الأمور لم تستقر في دولة المغول بتولية الخان موسى ، وكان علي باد شاه مديراً لدولته بل ضعفت الدولة واضطربت أحوالها ، واستقل الأمراء بولاية الأقاليم ، وقد باغ من اضطراب بلاد مغول فارس أن أصبح بها ثلاثة سلاطين في آن واحد وكانت هذه الفتن والاضطرابات في بلاد المغول سبباً في اتجاه تفكير الملك الناصر محمد بن قلاوون في غزو بلاد فارس ، فلما قدم عليه رسل الشيخ حسن الكبير والخان محمد تطاب مساعدته أرسل الناصر بعض قواته إلى حدود المغول لتكون على أهبة الاستعداد وعاد الرسل في صفر عام ٧٣٧ هـ / سبتمبر ١٣٣٦ م^(٣) .

(١) النجوم ج ٩ ص ٣٠٩ ، العبرج ٥ ص ٤٤ .

(٢) كانت زوجة للشيخ حسن الكبير طلقها أبوسعيد منه وتزوجها لجمالها .

(٣) دولة بني قلاوون ص ٢١٢-٢١٤ ، السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤٢١ ،

العبرج ٥ ص ٤٩٩ ، تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٨٢ .

حملة سيس ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م وأسبابها :

تقرر إرسال حملة عسكرية إلى بلاد سيس وتخريب مدينة إياس والسبب في ذلك وصول رسول القمان موسى وعلى باد شاه بطالب النجدة ضد الشيخ حسن الكبير وطغاي بن سونتاي وأولاد دمرداش ليكون على باد شاه نائباً للسلطان الناصر في بغداد . فاستشار السلطان نائب الشام والأمراء واستقر الرأي على تجريد الجيش إلى سيس وكان تكفور ملك سيس في تلك الآونة قد نقض الهدنة ، وكان هذا خيراً ذريعة لهم لتبرير غزوهم لسيس . وكانت هذه الحملة تهدف إلى هذين أولهما تأديب صاحب سيس وتخريب مدينة إياس ثم إجابة على باد شاه إلى ما طالب من نزول الجيش الإسلامي قريباً من الفرات (١) ، فجهز الناصر الجيش وجعل مقدمه الأمير أرقطاي والأمير طوغاي الطباخي . ثم كتب الناصر إلى نواب دمشق وحماة وحلب وحمص وطرابلس بخروج عساكرهم إلى ناحية جعبر ، فإذا وصل عسكر مصر إلى حلب عادت عساكر الشام ثم يمشوا جميعاً إلى سيس . فتحركت القوات من مصر في ثاني عشر من شعبان ٧٣٧ هـ / مارس ١٣٣٧ م (٢) .

وصول وفد من بغداد إلى مصر ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م :

وفي السابع عشر من صفر عام ٧٣٨ هـ / سبتمبر ١٣٣٧ م وصل من بغداد الوزير نجم الدين محمود بن علي بن شروان وحسام الدين الحسي بن محمد بن محمد الغوري محتسب بغداد وفخر الدين محمود نائب الحملة ونظام الدين يحيى والحاج كابك وازبكويك بن طاش بغا والوزير تاج الدين علي شاه وولده ناصر الدين خليفة وحسين بن منكتو ، وكان هؤلاء الوافدين من الأمراء المتنافسين على عرش ايلخانات فارس مما يدل على أن السلطان الناصر محمد أصبح الحكم بين رجال تلك الدولة المغولية . وأن من يضمن تأييد الناصر فهو الذي سيؤول له حكم البلاد هذا بالإضافة إلى أن نجم الدين كان قد تمكن من بغداد وكثر ماله . فلما

(١) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤١٨ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤١٨ .

قدم على باد شاه إلى بغداد صادراً أهلها ثم جمع الجيش وسار شمس الدين السهروردي نائب بغداد يصادر أموال جماعة من الأمراء منهم الوزير نجم الدين بن سروان وفخر الدين محمود نائب الحلة، فلما علموا بما دبر لهم تواطأوا على قتل شمس الدين السهروردي نائب بغداد والمسير إلى مصر، فخرجوا لاستقبال السهروردي واحتفظوا به ثم قتلوه، فارتجت بغداد بأهلها فسار نجم الدين وأصحابه وطلبوا الإذن من نائب الشام الأمير تنكز بدخول الشام، فبعث تنكز إلى السلطان يخبرهم فأجيب بإكرامهم وتجهيزهم إلى القاهرة فوصلوا إليها مكرومين (١).

تطور أحوال الشيخ حسن الكبير :

سار الأمير جبار بن مهنا إلى بلاد الشرق بجماعته ودخل في خدمة الشيخ حسن الكبير (٢) وجمع الشيخ حسن الكبير جيشاً لمحاربة أرتنا صاحب بلاد الروم (٣) وتعهد جبار بن مهنا بجمع العرب لمساعدة الشيخ حسن الكبير، عندئذ لم يجد أرتنا بدءاً من مراسلة السلطان الناصر محمد وسأله أن يكون نائبه في بلاد الروم وأن يضرب السكة باسمه ويتم دعوته على منابره فخلع الملك الناصر على رسل أرتنا وأنعم عليهم، وكتب له تقليداً بنبابة الروم وكان أرتنا قد ارتفع نجمه في بلاد الروم وعظم شأنه فخشي الشيخ حسن الكبير أن ينفرد بمملكة الروم، فاستعد لمحاربتة، كما كان ابن دلغادر قد صار ملك أراضى أبلستين. وأخذ يتوسع في أطراف بلاد الروم، فخشي أرتنا أن ينازعه في مملكة الروم أو يكون نصيراً للشيخ حسن الكبير فرأى أرتنا معاهدة السلطان الناصر ليمده السلطان بعسكر يقوى بها جانبه ضد أهل الشرق أو يأوى إلى بلاده إن انهزم، وقدم الحجد السلامي من الشرق أيضاً ونعمه رسل الشيخ حسن الكبير. وقد كلفه الشيخ حسن أن يتوسط في

(١) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٣٧ - ٤٣٨ .

(٢) يوجد الشيخ حسن الصغير كجك بن دمرداس بن جوبان ويعرف باسم الشيخ حسن الجوباني وقد عمل كل من هذين الأميرين في حوادث دولة إيلخانات فارس بعد وفاة أبي سعيد وتدخل كل منهما في منازعات أربا كاؤن وموسى ومحمد بن عنبرجي، السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٤٥ حاشية ٢ .

(٣) وكان أرتنا هذا قد استقل بمدينة سيواس وما حولها من بلاد الروم - آسيا الصغرى - عن دولة إيلخانات فارس - السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٤٥ حاشية ٤ .

الصلح بينه وبين السلطان الناصر^(١) وفي ربيع الآخر عام ٧٤١ هـ / أكتوبر ١٣٣٩ م قدم رسول الشيخ حسن الكبير الجلائري^(٢) وحمل كتاباً يتضمن طاب عساكر السلطان الناصر لتسليم بغداد والموصل وعراق العجم ليقم بها الدعوة للسلطان الناصر ، وسأل أبغا أن يبعث السلطان إلى طغاي بن سونتاي للتوسط من أجل عقد الصلح بين الشيخ حسن وطغاي بن سونتاي ، فأجابه الناصر إلى ذلك ووعده بإتخاذ العساكر إليه ، سير الأمير أحمد قريب السلطان الناصر إلى طغاي ومعه هدية لينظم الصلح بينه وبين الشيخ حسن ، وبعد أن عقد الصلح بين طغاي والشيخ حسن الكبير ، عاد الأمير أحمد إلى مصر^(٣) .

محاولة القان الكبير المغولي غزو العراق والشام :

بلغت دولة التتار أقصى درجات قوتها واتساعها في عهد جنكيزخان ، ولكن نتيجة للصراع الداخلي بين حلفائه انقسمت مملكة التتار بين المتصارعين ، وأصبح هناك دولتان للمغول كل منهما على استعداد لآتهام الأخرى ، فكانت هناك الدولة المغولية في الشرق في فارس والدولة المغولية في الشمال وهم مغول القبيلة الذهبية . وكانت أملاكها في بلاد القفجاق وشبه جزيرة القرم وكان المغول سابقاً يخضعون في سياستهم العليا إلى القان الأعظم إلا أن أيلخانات فارس حادوا عن هذه السياسة ولم يعد للقان الأعظم احترامه عند مغول فارس وضاعت هيئته وهيبته الدولة المغولية الكبرى ، ونتيجة لذلك فقدت معظم ولاياتها في أواسط القرن الثامن الهجري . وكان طوغاي تيمور (٧٣٢ - ٧٧١ هـ) (١٣٣٢ م - ١٣٦٩ م) القان الأعظم قد عزم في عام ٧٣٦ هـ / ١٣٣٨ م على المسير إلى العراقيين وقدم أمامه عسكرياً ليحذف بهم إلى الشام إذا ما تمت له السيطرة على العراق ، وسارت قوات القان . فتعرضت لرياح شديدة واستمرت يومين كان جيش القان

(١) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

(٢) وكان حسن الكبير الجلائري قد سيطر على تبريز وبغداد وذلك منذ عام ٧٣٧ هـ (١٣٧٧ م)

غير أن الأمور لم تستقم له تماماً حتى كانت سنة ٧٤٤ هـ وكان عليه أن يخضع ما تبقى من عناصر المعارضة له - السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٨١ حاشية ١ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٨٩ - ٤٩١ .

الأعظم زيادة على مائة ألف فارس ، فلم يرجع إلى القان إلا نحو عشرة آلاف وهلكت بقيتهم ، فلما علم الملك الناصر بذلك سر كثيراً^(١) .

علاقة السلطان الناصر محمد مع الشيخ حسن الكبير :

اشتد الغلاء في بلاد الشرق ونتج عن ذلك نزوح جماعة من المغول إلى الشام ، فكتب السلطان إلى نائب حاب بتمكينهم من الاستيطان حيث شاءوا من البلاد الإسلامية ، وأوعاه أبغاً بالعناية بهم فأقاموا في حاب وغيرها ، ووصل بعضهم إلى القاهرة ، فاختار الناصر بعضهم وفرق الباقي إلى الأمراء^(٢) . وفي نفس الوقت سار الأمير أحمد الساقى قريب السلطان الناصر إلى بلاد الشرق لإحضار الرهائن من طغاي بن سونتاي والشيخ حسن الكبير ، وكانا قد سألا الناصر التوسط بينهما لإنهاء الخلافات وعقد الصلح وتسليم بلاد الشرق ، فاشترط الملك الناصر قبل تسيير الجيش إلى بلاد الشرق أن يبعثا أولادهما رهينة ، وضاماً لصدق الوعد ، فجهز ابن سونتاي ولده بردشين وجهز الشيخ حسن ابن أخيه إبراهيم شاه وسارا إلى حاب ثم إلى السلطان في سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م^(٣) وقبل وصولهما شرع الناصر في إعداد الجيش^(٤) .

وتقرر أن يكون خروجهم إلى بلاد (تبريز) بالشرق في نصف ذي الحجة ٧٤١ هـ / يونية ١٣٤١ م ثم صدرت أوامر السلطان إلى نواب الشام بتجهيز عسكر دمشق وحاب وغيرهما ، فاستعد الأمراء والأجناد وماليك الشام ، وحمل برهشبن بن طغاي بن سونتاي وإبراهيم شاه بن أخي الشيخ حسن بك الكبير في مائتي فارس فثلا بين يدي السلطان في الثامن من ذي الحجة ٧٤١ هـ / يونية ١٣٣٩ م ومعهم قاضي بغدادا وقاضي الموصل وقاضي ديار بكر ، وقدما كتابي طغاي والشيخ حسن الكبير الذي يحمل القسم على الطاعة للسلطان^(٥) وأنهم من جنده

(١) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٥٨ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٥١٥ ، ٥١٦ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٥١٨ .

(٤) السلوك ج ٣ ق ٢ ص ٥١٨ .

(٥) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٥١٩ ، ٥٢٠ .

وضد أعدائه ، ثم قدموا نص الخطبة التي خطب بها للسلطان الناصر في بغداد والموصل وديار بكر ، فلما تبين له ذلك عرفهم أنه رسم بإعداد الجيش للمسير وأمر السلطان بسرعة مسيره ، ولكن وصل الخبر بأن أولاد دمرداش ، لما علموا بطلب الشيخ حسن الكبير وطغاي بن سونتاي من السلطان أن يجوز جيشا لهم ليأخذ البلاد ، وأههما أفسدا للناصر محمد وكذلك أنسم أهل البلاد وخطبا باسمه على منابر بغداد والموصل ، إلا أن أولاد دمرداش لم يتباوا ذلك وتقدموا بتواتهم لخربة طغاي ، والشيخ حسن الكبير فطلب الأخير الصلح معهم ، وسار إليهم طائعا فأكرموه وكتبوا لطلغاي بن سونتاي أمانا واتفقوا جميعا على أن يعبروا لفرات إلى بلاد الشام لقتال الناصر . وأشار مندوب صاحب ماردين الذي قدم بهذه الأخبار إلى الناصر بالألا تخرج الجند إلى (تبريز) في الشرق . فإنه ليس لمسيرها فائدة ففرقت الأجناد من القلعة بدون عرض . وبعث السلطان على النور يستطلع حقيقة ما حدث لأن برهشيين بن طغاي اتهم صاحب ماردين بعدم صحة جوابه ^(١) ، ثم وصل الخبر من حاب بصحة ما جاء برسالة صاحب ماردين وبعقد الصلح بين الشيخ حسن الكبير وطغاي وبين أولاد دمرداش . فانزعج السلطان من ذلك انزعاجا شديدا ، وتكدر وامتنع عن مقابلة رجال الدولة والاجتماع بهم ، وقام بالمناداة بابنه أبي بكر سلطانا من بعده وأوصاه بالأمرأ وأوصى الأمرأ به وعهد إليهم بالألا يخرجوا ابنه أحمد من الكرك ، وكان أرسل إلى الكرك للإقامة بها ، وحذرهم من إقامته سلطانا ، وجعل الأمير بن قوصون وبشتاك أوصياء على أبي بكر وإليهما تدبير المملكة وأصيب الناصر بالمرض نتيجة للأحداث السيئة التي مرت به واشتدت به العلة حتى وافته منيته في يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي الحجة ٧٤١ هـ / يونية ١٣٤١ م ^(٢) وله من العمر سبع وخمسون سنة ^(٣) وآلت السلطنة إلى ولده سيف الدين أبي بكر الذي لم يكن مثل أبيه . فقد انصرف إلى اللهو وعكف على ملذاته وأهدل أمور الدولة

(١) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٥٢٠ - ٥٢١ .

(٢) وقيل إنه مات في السابع عشر من ذي الحجة ٧٤١ هـ ودفن مع والده في القبة المنصورية -

أخبار الأول ص ١٣١ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٥٢٣ ، العبرج ٥ ص ٥٤٢ . النجوم ج ٩ ص ١٦٤ - ١٦٥ .

وهي في ظروف أشد ما تكون الحاجة فيها إلى سلطان قوى فأنكر الأمراء عليه ذلك وخلعوه من السلطنة بعد سبعة وخمسين يوماً من بيعته في التاسع عشر من صفر سنة ٧٤٢ هـ / أغسطس ١٣٤١ م^(١) وبعثوا به إلى قوص حيث حبس بها، وولوا مكانه أخاه كجك ولقبوه بالملك الأشرف علاء الدين كجك وكان ذلك في الحادي والعشرين من صفر ٧٤٢ هـ / أغسطس ١٣٤١ م ، ولا كان السلطان الجديد صغير السن جعلوا من قوصون الناصري وصياً عليه، ومن ثم كان تصريف أمور البلاد في يد قوصون ، أما السلطان نفسه فلا حول ولا قوة له، ومن ثم استمر الرأي على خلعه وتولية أخيه الملك الناصر أحمد بن الملك الناصر محمد ، وتم ذلك باتفاق الأمراء ثم عادوا فخلعوا هذا أيضاً وولوا أخاه الصالح إسماعيل بن الملك الناصر ، لما اتصف به من الصلاح وحسن السيرة في الثاني والعشرين من المحرم ٧٤٣ هـ / يونيو ١٣٤٢ م إلا أن الملك الصالح إسماعيل لم تطل مدة حكمه إذ توفي في ربيع الآخر سنة ٧٤٦ هـ / أغسطس ١٣٤٥ م واجتمع الأمراء لاختيار خلف له، واستقر رأيهم على شعبان بن الملك الناصر محمد بن تلاوون وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك الكامل سيف الدين شعبان^(٢) ، وهو يعتبر السابع عشر من سلاطين المماليك والخامس من أولاد الناصر محمد بن تلاوون. ولكنه لم يستمر في الحكم طويلاً. إذ قتل في جمادى الآخرة سنة ٧٤٧ هـ / سبتمبر ١٣٤٦ م بعد أن حكم سنة واحدة وشهرين تقريباً^(٣) فالت السلطنة من بعده إلى الملك المظفر زين الدين حاجي المعروف بأمين حاج بن السلطان الناصر محمد بن فلاوون ، وهو السادس من أولاد الملك الناصر^(٤) ، ثم تول السلطنة الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن فلاوون في الرابع عشر من رمضان ٧٤٨ هـ / ديسمبر ١٣٤٧ م وكان صغير السن لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره وهو السابع من أولاد الناصر محمد^(٥) ، ثم اتفق الأمراء على خلعه عام ٧٥٢ هـ / يولية ١٣٥١ م في الحادي

(١) النجوم ج ١١ ص ١٦ العبرج ٥ ص ٤٤٣ ، أخبار الأول ص ١٣١ .

(٢) النجوم ج ١٠ ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٣) أخبار الأول ص ١٣٢ .

(٤) النجوم ج ١٠ ص ١٤٠ .

(٥) النجوم ج ١٠ ص ١٤٨ .

الآخرة وتسلطن أخوه الملك الصالح صالح بن الملك الناصر محمد بن قلاوون باتفاق الأمراء ، ولكنه خلع بعد ثلاث سنوات من سلطنته أى فى ثانى شوال عام ٧٥٥ هـ / أكتوبر ١٣٥٤ م^(١) ، وحبس بالقلعة إلى أن توفى بها ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م واتفق الرأى على سلطنة الملك الناصر حسن ثانياً بعد أن كانوا قد خلعهوا كما ذكرنا، فأخرجوه من سجنه واشترطوا عليه شروطاً قباهها ورضى لهم بها وجاس على سرير الملك يوم الاثنين الثانى من شوال ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م حتى قتله مملوكه يابغا العمري عام ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م^(٢) وهكذا تتابع الملوكة من أسرة قلاوون . إذ حكم من ذرية الملك الناصر محمد بن قلاوون اثنا عشر سلطاناً ولم تبلغ مدتهم مدة الملك الناصر، إلى أن انتهى حكمهم فى عهد السلطان صقر خان حسين ابن السلطان إذ كان صغير السن والأمر لبرقوق الجركسى فخلعه فى ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م وانتهت بذلك دولة المماليك البحرية^(٣) من دنا كله يمكننا القول إن دولة المماليك البحرية كانت قد أخذت فى دور الاحتضار، إذ أنه واضح جداً إلى أى مدى من الضعف وصل السلاطين المتأخرون فى دولة المماليك البحرية بحيث أصبحوا أشبه بالعوبة فى يدى المماليك فيعينون من يريدون ويعزلون من يريدون، وكانت النتيجة الحتمية لهذه الأوضاع هو انهيار دولة المماليك البحرية التى جاهد الظاهر بيبرس من أجل قيامها وتدعيمها ، وقامت دولة الجراكسة على يد برقوق .

ولقد كان من الممكن فى تلك الفترة على المغول تحقيق سياستهم التوسعية فى مصر والشام، لو كانت العلاقات السائدة بينهم وهى العلاقات العدوانية إلا أنه من حسن حظ البلاد فى تلك الفترة أن العلاقات بينهم كانت قد أخذت الطابع السلمى وصارت الصلات بينهم صلات مودة وصداقة بالإضافة إلى ذلك أن حكام دولة المغول فى فارس كانت جهودهم منصرفة إلى توطيد دعائم سلطنتهم فى الداخل والقضاء على الفتن والاضطرابات التى يثيرها خصومهم طمعاً فى الاستئثار بالسلطة .

(١) النجوم ج ١٠ ص ١٨٧ .

(٢) النجوم ج ١٠ ص ٢٥٤ ، ٢٨٧ أخبار الأول ص ١٣٢ .

(٣) النجوم ج ١٠ ص ٣٠٢ وذكر أن ذلك فى شهر جمادى الأولى عام ٧٦٢ هـ أخبار الأول ص ١٣٢ .

أما عن طبيعة علاقات المغول بالمماليك في هذه الفترة فقد سادت العلاقات السلمية بين الطرفين من بعد غازان : وبعد وفاة الملك الناصر لم تبذل محاولة من جانب خلفائه للتوسع في بسط نفوذهم على دولة مغول فارس لانصرافهم إلى توطيد سلطتهم في الداخل والقضاء على الفتن والاضطرابات التي يثيرها الأمراء طمعاً في الاستئثار بالحكم . وإن كان قد حدث في عهد السلطان الأشرف شعبان ٧٦٧ هـ / ١٣٦٦ م أن ثار حاكم مدينة بغداد التتاري خوجا مرجان وتمرد على الخان أويس المغول ، وخطب ببغداد للسلطان الأشرف شعبان وبعث رساله إلى القاهرة بكتاب جاء فيه أنه خاج أويس وأقام الخطبة للأشرف شعبان ، وضرب السكة باسمه وأخذ له البيعة في بغداد ، فاستقبل الأشرف رسل خوجا مرجان استقبالا حافلا وزودهم بالهدايا النفيسة وجهز له « أعلاما سلطانية وخليفة » كما بعث إليه تقليداً بنيابة بغداد . وفي رأي أزه كان من الممكن لمثل هذا الحادث أن يثير التطاحن بين الطرفين لو كان لأى منهما القوى التي تستطيع الوتوف بها في وجه الآخر ، على أى حال فإن هذه المحاولة باءت بالفشل أيضاً مثلما فشلت محاولة الملك الناصر محمد مع طغاي والشيخ حسن الكبير . أقصد محاولة جعل مدينة بغداد نيابة مملوكية إذ انهزم حاكم بغداد المتمرد على أويس وعادت بغداد إلى طاعة دولة مغول فارس (١) .

سار إلى الشيخ حسن الكبير وقاتله واستول على توريز وهزم الشيخ حسن وهرب الشيخ حسن إلى بغداد . واستقر حسن بن دمرداش في توريز ونصب للملك أخت السلطان أبي سعيد صالبيك وزوجها لسليمان خان من أسباط دولاكو . واعترف الشيخ حسن بأحققتها في عرش المغول (٢) . أما حسن بن دمرداش فاستقل بمملكته توريز وكان يعرف باسم الشيخ حسن الصغير تمييزاً له وانقسمت مملكة التتار وضعفت . فالشيخ حسن يحكم في بغداد وحسن الصغير ابن دمرداش يحكم في توريز ، واستول ملك مغول الشمال على معظم أراضي دولة مغول فارس لضعفها . ولما هلك الشيخ حسن الصغير بن دمرداش عام ٧٤٤ هـ / ١٣٤٣ م

(١) دولة بني قلاوون في مصر ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٢) العبرج ٥ ص ٥٥٢ دولة بني قلاوون في مصر ص ٢١٦ .

خلفه أخوه الأشرف حتى استولى الشيخ حسن الكبير على بغداد عام ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م^(١) ثم خلفه ابنه أويس بن الشيخ حسن الكبير وكان أرسل رسالة إلى السلطان المملوكي فرد عليه برسالة أخرى، وتوفي أويس عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م بعد أن اتسعت مملكته واستقر حاله، فتولى الملك بعده ابنه حسين بتوريز وابن الشيخ علي في بغداد وقتل أخاهم حسن وزعموا أن أباهم أويسا أوصاهم بقتله، ثم دخل الشيخ علي بن أويس متولى بغداد في طاعة أخيه حسين ملك توريز^(٢) الذي استطاع أن يوطد ملكه بعد محاولات كثيرة من جهة الطامعين في توريز، إلا أن حسيناً بعد أن رجع من بغداد إلى تبريز عكف على ملذاته، واستوحش منه أخوه أحمد وهاجمه في ثلاثة آلاف فارس وهزمه، واختفى حسين أياماً حتى قبض عليه وقتل^(٣) فلما علم الشيخ علي بما فعله أخوه أحمد وقتله لأخيه حسين في تبريز جمع جيشاً وسار إلى تبريز، ووقع القتال بين الأخوين فقتل الشيخ علي ودخل أحمد بغداد وانتظمت البلاد في حكمه حتى عام ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م حيث انتمض عليه أهل دولته^(٤).

(١) العبرج ٥ ص ٥٥٢ .

(٢) وكان يسيطر عليها أويس قبل وفاته وذلك بعد وفاة حسن الصغير .

(٣) العبرج ٥ ص ٥٥٣ .

(٤) العبرج ٥ ص ٥٥٤ دائرة المعارف الإسلامية الترجمة م ٤ ص ٥٤٦ - ٥٤٧ .

الحاتمة

علاقة المماليك بمغول القفجاق

لقد استطردها في الحديث عن علاقات المماليك بدولة المغول في فارس والتي أخذت مجالا كبيرا من بحثنا، ولكن لما كان المغول كما سبق أن ذكرنا انفسدوا إلى دول يهمنها منها دولة فارس ودولة القفجاق - القبيلة الذهبية - فلا بد لنا أن نتحدث عن علاقة دولة مغول القبيلة الذهبية في الشمال والتي كانت حدودها تمتد من السهول الفسيحة الواقعة جنوب روسيا وأقصى غرب آسيا . وامتد سلطانها على سيبيريا والجزء الجنوبي من روسيا^(١) ، وفي اعتقادي أنه إذا كان الطابع الذي اتسمت به العلاقات بين المماليك ومغول فارس هو الطابع العدواني نجد أنها كانت علاقات صداقة ومودة وتحالف بين المماليك وبين مغول القفجاق . ولعل أهم أسباب التقارب وقيام علاقات ودية بين الدولتين ترجع إلى عدة عوامل من أهمها :

أولاً : الجانب الديني حيث كان بركة خان قد أشهر إسلامه وجعل الإسلام الدين الرسمي للدولة ، ومن الواضح هنا أنه لا بد أن تقوم هناك علاقات مبنية على الود والإخاء بين هذه الدولة الإسلامية الجديدة وبين أكبر قوة إسلامية في ذلك الحين ، وهي قوة المماليك التي تعتبر نفسها الحامية للدين الإسلامي وأهله .

ثانياً : أنه لا بد أن يقوم خلاف وشقاق بين مغول فارس ومغول القفجاق حول الأراضي وحتى كل منهما في تزعم العالم المغول ، ومن ثم كان لا بد من حدوث الشقاق والخلاف بين دولتي المغول في الشرق والشمال وبحث كل منهما عن حليف ، فكانت الفرنجة في تحالف مع مغول الشرق والمماليك حلفاء لمغول الشمال .

ونتيجة لما سبق كانت سياسة كل من الدولتين على نقيض الأخرى^(١) .
 إذ قام في مملكة القمنجاق بعد وفاة طرطق خان بركة خان بن جوشي خان بن جنكيز
 خان ، وأسلم هذا الخان وأظهر شعائر الإسلام في بلاده ، وأقام المدارس وقرب
 إليه الفقهاء والعلماء ثم أسلمت زوجته جمجاك واتخذت لها مسجداً ، وكان ذلك على
 يد الشيخ نجم الدين كبرا ، ومع ذلك فقد اختلفت الروايات في إسلام الملك بركة
 خان ومن الأرجح أنه اعتنق الإسلام وتعلم القرآن في حدائته حين كان ببلدة
 خوقند ، وذلك على يد أحد فقهائها ، وقيل في إسلامه غير ذلك^(٢) ، وذكر

(١) نشأت مملكة مغول القمنجاق عندما أقسم جنكيز خان إمبراطورية في حياته بين أولاده ،
 الأربعة فكان نصيب ابنه جوشي وهو أكبر الأبناء البلاد الواقعة بين نهر أنش والسواحل الجنوبية
 لبحر قزوين ، وكان اسم تلك البلاد القبشاق ويطلق عليها اسم القبيلة الذهبية نسبة إلى خيم معسكراتهم
 ذوات اللون الذهبي وكان أغلب سكانها من الترك والتركمان ، ولكن جوشي صاحب هذه البلاد مات قبل
 وفاة جنكيز خان بستة أشهر عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م ، فانقسمت بلاده أنصبه بين أولاده الأربعة
 عشر وكان أكبر هؤلاء الأولاد أوردا فخلف أباه على سائر المملكة في أول الأمر ونان الأولاد باطو
 الذي فضلته قبائل القسم الغربي من المملكة الذهبية وأعلنته ملكاً عليها واعترف جنكيز خان نفسه
 بذلك الاستقلال قبل وفاته ، وبهذا انكسرت سلطان أوردا الأبخ الأكبر إلى القسم الشرق فقط ،
 وعرف باسم القبشاق الشرقى أو القبيلة البيضاء ، كما عرفت بلاد باطو باسم القبشاق الغربى أو القبيلة
 الزرقاء ، وكان مركز مملكة باطو الجهات الواقعة على الشاطئ الأيسر لنهر الفولجا ، وقد اتخذ منها
 عاصمة سماها صراى وهو الذى غزا أوربا فتوغل في روسيا وبولندا والمجر ودماشيا ما بين عام ٦٣٥ -
 ٦٤٠ هـ / ١٢٣٧ - ١٢٤٢ م فظفت شهرته على الجميع حتى اعتبره سائر قبائل التتار في جميع بلاد
 القبشاق شرقاً وغرباً من أحق أبناء جوشي خان بالحكم وذلك بالرغم من وجود أوردا على قيد الحياة
 في بلاد القبشاق الشرقى ، وصار باطو بعد ذلك ينقب بخان القبيلة الذهبية ، وذلك الملقب يشمل ،
 جميع القبشاق شرقاً وغرباً فأصبح يعادل في عظمته وسلطنته الخان الأعظم منكوخان الذى خلف كيوك
 عام ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ م ، ثم مات باطو خان عام ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م وتولى الحكم بعده مباشرة
 ولده طرطق خان ولكنه توفى في نفس السنة واستمرت سلافة باطو من بعده محتفظة بانقب خان القبيلة
 الذهبية حتى عام ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م :

السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٩٤ - ٣٩٥ حاشية ٤ ،

الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ١٠٩ حاشية ١ .

(٢) قيل إن سبب إسلام بركة خان أنه تلاقى يوماً مع قافلة تجارية آتية من بخارى فاختلف بتاجرين
 منهم وسألها عن الإسلام فشرحاه شرحاً مقنعاً ، بحيث اقتنع بركة خان به وأخلص له وأخو ذلك ، وأول
 ما كاشفه في ذلك أخوه الأصغر ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه للإسلام - الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره
 ص ١١٠ حاشية ١ .

الجوزجاني الذي ترجم لحياة بركة خان أنه اعتنق الإسلام منذ طفولته، ولما شب وبلغ سن التعليم حفظ القرآن الكريم على أحد علماء مدينة خوقند، وكان جيشه يعتنق الإسلام أيضاً، وقيل إنه قد جرت العادة أن يكون مع كل فارس من جيشه سجادة للصلاة حتى إذا حان موعدها اشتغلوا بصلاتهم، وكان يتقرب من العلماء والفقهاء والمفسرين ورجال الحديث^(١)، وقد عمل على نشر الإسلام بالرغم من محاولات الخصوم القيام بالثورة عليه ومنع انتشار الإسلام، وقد حاولوا خلع بركة خان عندما أشهر إسلامه وعرضوا تاج المغول على هولاء كوالعدو اللدود لبركة خان^(٢)، واهتم بركة خان بنشر الإسلام بين رعيتيه، وأمر أن يكون في حاشية كل واحدة من زوجاته، وكل أمير من أمرائه إمام ومؤذن لإقامة الشعائر الدينية^(٣).

ولقد اتسمت سياسة مغول القفجاق بالطابع الودي، إذ قامت العلاقات بينهما على أسس من السلم والإخاء، أضف إلى هذا حرص كل منهما بأن تكون سياسته تجاه الآخر قائمة على المصافاة والمسالمة بين مغول القفجاق وسلطين المماليك في مصر ليكونوا عوناً له على أعدائهم من بني هولاء كو في فارس^(٤)، ومما لاشك فيه أنه سادت العلاقات الودية بين مملكتي المماليك ومغول القفجاق، هذا في الوقت الذي سادت فيه العلاقات بين مغول فارس ومغول القفجاق، ولقد كان لهذا التنازع والتنافر بين مغول الشرق والشمال فرصة سانحة للمماليك لنجاح جهودهم في اجتذاب مغول الشمال إلى جانبهم ضد العدو المشترك، ألا وهو مغول فارس، وقد اختلفت الأسباب والدواعي التي أدت إلى قيام الاختلافات بين المغول في الشرق والمغول في الشمال - ومغول القبيلة الذهبية - فهناك من يذكر من أسباب الخلاف بينهما غضب مغول الشمال من تصرفات هولاء كو في أراضي الإسلام من تخريب وتدمير وقتل المسلمين، بالإضافة إلى قتل الخليفة المستعصم بالله^(٥)،

(١) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ١١٠ حاشية ١.

(٢) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ١١٠، تلفيق الأخبار ص ٤٢٧.

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٩٥ حاشية ٢، دائرة المعارف الإسلامية م ٣ ص ٥٦٥، الذيل على

مرآة الزمان ج ٢ ص ٣٦٥، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ١١٣.

(٤) تاريخ المماليك البحرية ص ١٣١.

(٥) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٢٢، الذيل ج ٢ ص ٣٦٥.

تلفيق الأخبار ص ٤١٨ - ٤٢٠.

أضف إلى هذا أن مغول القفجاق لم يكونوا ليقبوا قيام دولة ثانية للمغول في فارس ضمت إليها بعض أملاك دولة مغول الشمال، مثل أران وأذربيجان وكانت تابعة لأنلاك جوجي بن جنكيز خان عملاً بوصية الأخير عندما قسم إمبراطوريته بين أولاده الأربعة، فونصب مغول الشمال من مغول فارس بعضهم هذه البلاد إليهم لأن زعماء القبيلة الذهبية كانوا يدعون ملكية هذه الأرض ولكنهم لم ينوزوا بطائل^(۱)، إلى جانب ذلك هناك عامل آخر هو عدم قيام هولاء كو بدفع نصيب مغول الشمال من الغنائم على ماجرت عليه العادة، بل إقدامه على قتل رسل بركة خان، ومن ثم يتضح لنا أن أسباب الخلاف بين مغول الشمال والشرق كانت متعددة واستحكمت بالتالي الخلافات بينهما . وكانت الأوضاع تنذر بالخطر، ولقد كان مقتل رسل بركة خان الذريعة التي أدت إلى قيام الحرب بين الطرفين ، ولقد كان النصر حليف هولاء كو بادئ الأمر، إلا أن بركة خان لم يكن ليستسلم للهزيمة بسهولة، ومن ثم جمع جيوشه من جديد وألحقوا بهولاء كو هزيمة كبيرة، إذ فقد هولاء كو معظم جيشه في أثناء تفهقره . فانتقم هولاء كو من بركة خان بأن قتل كل من كان في بلاده من تجار مملكة بركة خان، فأجاب بركة خان بنفس الأسلوب سنة ۱۲۶۱م / ۱۲۶۲ م ، ولم يحاول أحدهما مواصلة القتال ضد الآخر في السنوات القليلة التالية . وكان الظاهر بيبرس سلطان المماليك قد عزم قبل قيام الحرب بين مملكتي التتار على أن يعقد حلفاً دفاعياً ضد عدوهم المشترك هولاء كو، وبدأت العلاقات بين الظاهر وبركة خان بأن وصلت جماعة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المائتين وذلك بسبب العداء بين هولاء كو وبركة خان، ووقوع القتال بينهما وساروا من سوريا إلى مصر فأكرمهم السلطان الظاهر واحتنى بهم وأقنعهم بصحة دين الإسلام حتى اعتنقوه وأغدق عليهم العطايا والهبات والإقطاعات، مما كان سبباً في كثرة والوافدين إلى بلاد الإسلام^(۲) وكان لبركة خان جيش يتأهل مع قوات هولاء كو قبل وقوع الاختلاف بينهما . فلما اختلفا واشتد العداء بينهما أرسل بركة خان إلى عساكره يأمرهم بالمسير إليه وترك هولاء كو فإن لم يستطيعوا ذلك فعليهم بدخول بلاد الإسلام في

(۱) تليفق الأخبار ص ۴۱۴ .

(۲) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ۱۱۱ ، تليفق الأخبار صفحة ۴۲۸ ، ۴۲۹ .

طاعة السلطان الظاهر بيبرس ، فحضروا في عام ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م واستقبلهم السلطان وأحسن إليهم ، وأعطى أكابرهم الأمريات وأنزل بعضهم في البحرية ، فحسنت حالهم ودخلوا في الإسلام ، أما بخصوص البادئ بالمراسلة فقبل إن ذلك بدأ من جهة بركة خان ، وقيل إن الظاهر هو البادئ بالمراسلة بركة ، ولكن الأكثر احتمالاً أنهما قاما بالمراسلة في وقت واحد ، وسار رسل كل منهما إلى الآخر في وقت واحد ، وحدث أنهم تقابوا في القسطنطينية^(١) ، أرسل السلطان الظاهر بيبرس من القاهرة رسالة إلى الملك بركة خان في عام ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م بطلب الاتفاق والتعاون ، وتزوج أيضاً من ابنة بركة خان ، وفي المحرم ٦٦١ هـ / نوفمبر ١٢٦٢ م قدمت بعثة السلطان علي بركة خان لنفس الغرض ، وأمر الخطباء أن يدعوا للملك بركة خان بعد الدعاء للظاهر على المنابر^(٢) ، وقدمت رسل بركة خان عام ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م إلى السلطان الظاهر ومعهم رسالة يتولى فيها : « قد علمت محبتي للإسلام وعلمت ما فعل هولاء كواكبه بالمسلمين فأركب أنت من ناحية حتى آتية من ناحية حتى نصطلمه أو نخرجه من البلاد ، وأعطيك ما كان بيده من البلاد . فاستصوب الملك الظاهر ذلك وشكره وخلع على رسوله^(٣) ، وجاء في الرسالة أيضاً : « . . . فيعلم السلطان أنني حاربت (هولاء كواكبه) الذي من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تعصباً لدين الإسلام لأنه باغي والباغي كافر بالله ورسوله ، وقد سيرت قصادي ورسلي صحبة رسل السلطان ، ووجهت ابن شهاب الدين غمنازي (صاحب ميا فارقين) معهم لأنه كان حاضراً في الوقعة ليحكى للسلطان ما رآه بعينه عن عجائب القتال ثم ليوضح لعلم السلطان أنه موفق بالخبرات والسعادات لأنه أقام إماماً من آل عباس في خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله . فشكرت همته وحمدت الله تعالى على ذلك لا سيما لما بلغني توجهه بالعساكر الإسلامية إلى بغداد واستخلاص تلك النواحي من أيدي الكفار » فرد عليه الظاهر الرسالة وهدية^(٤) .

وفي عام ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م وصلت إلى القاهرة سفارة بركة خان . فلما

(١) تلفيق الأخبار ص ٤٢٩ - ٤٣١ .

(٢) مصر في دولة المماليك البحرية ص ٤٠ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢٨ .

(٤) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ١١١ ، تلفيق الأخبار ص ٤٤٠ - ٤٤١ .

عادت هذه السفارة إلى بلاد بركة أوفد الظاهر بيبرس معهم رسله (١) ، ولكن إمبراطور بيزنطة احتجز إحدى السفارتين اللتين أرسلهما الظاهر بيبرس ، ويحتمل أن تكون السفارة الثانية هي المحتجزة (٢) مما كان سبباً في هجوم جيش مغول التفجاق على شبه جزيرة البلقان ، وتمكنت هذه الحملة من فك أسر السلطان عز الدين بن كيخسرو الذي كان قد طرد من آسيا الصغرى وحبس في حصن اينوس على بحر إيجه أحضر إلى منكوتمر فأكرمه ، وأقام معه حتى مات في سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٨٧ م فشاربته مسعود بن عز الدين وملك بلاد الروم (٣) وبعد وفاة هولاء كورم تهدأ الأحوال بين المملكتين ، إذ قامت الحرب عام ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م . وبينما كان بركة يحاول الهجوم على جيش مغول فارس أدركته الوفاة في الطريق عام ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م (٤) فعاد جيش بركة خان إلى بلاده وتولى الحكم من بعده ابن أخيه منكوتمر بن صوطق (٥) ابن باتو بن تولى بن جنكيز خان ، وانتهز الظاهر بيبرس هذه المناسبة ، وأرسل رسالة تعزية في وفاة الملك بركة خان لخليفته منكوتمر ، وأغراه أيضاً بقتال هولاء كورم ، فأجابته بالموافقة على محاربة هولاء كورم والاستيلاء على ما أخذه من بلاد الإسلام وفوض الظاهر بالقيام بهذا الواجب (٦) ، واقدم أدى بركة خان دوره في نشر الإسلام في بلاده بين المغول . ولكن الإسلام انتشر على نطاق واسع بعد وفاته بنصف قرن تقريباً (٧) ، وقال أحد الكتاب في بركة خان : « وكان بركة يحب العلماء والصالحين ، ومن أكبر حسناته كسره لهولاء كورم وتثريته جنوده وفك الأسارى من يده ، وكان بناصح الملك الظاهر ويكرم رسله ويهاديه ، وكان لا يقطع مكاتبته ومراسلته منه » . . وكما أنه كسر قوة هولاء كورم وشوكته وصدده بذلك عن قصد بتمية بلاد الإسلام ، كذلك قوى

(١) مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٤٠ .

Babars I of Egypt, P.52.

(٢)

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٨٨ ، دائرة المعارف الإسلامية م ٣ ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، البداية

والنهاية ج ١٣ ص ٢٣٩ ، والظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ١٢٢ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٦١ ، النجوم ج ٧ ص ٢٢٢ ، تليق الأخبار ص ٤٥٥ .

(٥) ذكر أنه منكوتمر بن طغان بن باتو . تليق الأخبار ص ٤٥٥ .

(٦) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٦٣ ، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ص ١١٣

(٧) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٤٩ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٦١ ج ٧ ص ٢٢٢ ، دائرة

المعارف الإسلامية م ٣ ص ٥٦٨ .

قلوب ملوك الإسلام وحرصهم على قتاله وأعانهم بإرسال العساكر على ذلك حين جبنوا عن مقاتلته ، وخشوا بطشته وفرقوا من سطوته حتى انتعشوا بذلك ونهضوا بقوة الجأش لمحاربتة « (١) .

الخلاصة أن العلاقات السلمية سادت بين الدولتين منذ عهد بركة خان ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م الذي اعتنق الإسلام وعمل على نشره في بلاده، وتحالف مع السلطان الظاهر بيبرس . فلما تولى منكوتمر بعده سار على نفس السياسة واتفق مع الماليك على مناوأة بيت هولاءكو وانضمام عليه ، وقدم بتقواته لمحاربة أبغا بن هولاءكو (٢) ، وأرسل سفارة السلطان الظاهر عام ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م وكانت تحمل رسالة تتضمن القيام بمقتال هولاءكو حتى يتم استرداد الأملاك الإسلامية التي استولى عليها ، وطلبوا من الظاهر بيبرس أن ينجدهم ويساعدهم على استئصال شأفته (٣) . ثم أرسل الملك المنصور قلاوون سفارة إلى منكوتمر عام ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م (٤) ومن ههنا السفراء شمس الدين سنقر الغنمي وسيف الدين بلبان الخالص تركي ، فلما وصلت هذه السفارة إلى بلاد مغول القفجاق وجدوا أن منكوتمر قد توفي في ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م ، وحكم بعده أخوه تدان منكو الذي امتد حكمه حتى سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م (٥) ، فعادت السفارة المذكورة إلى القاهرة في رمضان عام ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م . ثم أرسل تدان منكو بن طوغان بن باتوبن دوشي بن جنكيز خان ملك القفجاق بعد منكوتمو سفارة إلى مصر ومعهم كتاب بالخط المغولي يتضمن أن تدان منكو أسلم ويريد أن ينعت نعنا من نعوت أهل الإسلام، ويجهز له عام من الخليفة، وعلم من السلطان يتماثل بها أعداء الدين ، فأجاب السلطان قلاوون الطلب (٦) . وذلك في عام ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م ثم جهز السلطان قلاوون هدية سنوية إلى تدان منكو ملك مغول القفجاق ومبلغ من ألفي دينار - وذلك لتعمير جامع قام وأن يكتب عليه

(١) تليق الأخبار ص ٤٢٧ .

(٢) الذيل ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٣) الذيل ج ٢ ص ٤٧٣ .

(٤) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٦٨٠ .

(٥) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٠٨ .

(٦) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧١٦ .

ألقاب السلطان ، وجهاز أحجار لنقش ذلك وكتابتها بالأصباغ^(١) ، وتنازل تدان منكو عن الملك وأظهر التزهد والانقطاع إلى العلماء . وتولى الملك بعده ابن أخيه تلابغا بن منكوتر بن طوغان وذلك عام ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م ولكنه اغتيل عام ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م بتدبير طمطقا المسمى أيضاً طمطاي الذي تولى الحكم منذ عام ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م واستمر حكمه حتى ٧١١ هـ / ١٣١٢ م وكان قد حل ببلاده قحط وفقر شديدان . فباع الناس أولادهم وأقاربهم للتجار فقدموا بهم مصر وغيرها^(٢) ومن أثر سياسة التفاهم بين دولتي المماليك ومغول التنجاق أن طمطاي ابن منكوتر ملك مغول الشمال أرسل سفارة إلى مصر عام ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م ومعهم هدية ورسالة للملك الناصر محمد في محاربة غازان ملك مغول فارس . فأرسل الناصر إلى طمطاي رداً ذكر فيه أن الله قد كفاهم شر غازان بموته وتوابة أخيه الأوجايتو خدابنده الذي كان مسلماً وطاب الصفح من الملك الناصر فاعتقد بينهما^(٣) ولكن طمطاي أعاد الكرة بعد عامين فأرسل سفيره إلى الملك الناصر محمد ومعه هدية سنوية وكتاب يعلن فيه رغبته في إرسال جيش من بلاده ليصحب جيش المماليك إلى القمراستيلاء على بلاد غازان - خدابنده في هذا الوقت - على أن يكون السلطان المماليك وملك مغول التنجاق ما يفتحه جيش كل منهما^(٤) فاعلموا بذلك استجابوا جميعاً بخفاوة^(٥) وأرسل الملك الناصر رسالته إلى طمطاي ومعهم الجواب بأن الناصر عقد الصلح مع الأوجايتو خدابنده أيلخان المغول بفارس . ولا يليق نقضه . وقال أيضاً إذا حدث ما يستوجب نقض الصلح مع الأوجايتو . فإن السلطان سيعمل على تلبية طلب الملك طمطاي في المخالفة^(٦) وحدث أن وقع قتال بين دولتي المغول الشمالية والفرسية انتصر فيها خدابنده ملك مغول فارس على جيش طمطاي ملك التنجاق . فشق ذلك عليه

(١) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٣٨ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٤٢ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٧ . دولة بني قلاوون في مصر ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٧ .

(٥) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٧٠٧ - ٢٨ .

(٦) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٧ - ٢٨ .

واتهم قراسنقر وأصحابه بمناصرة خدابنده وأنهم سبب هزيمة جيشه، ولذلك أرسل سفارة إلى الملك الناصر محمد بنجره بذلك، وذلك في عام ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م، وكان هذا الرسول يسمى بكلكش بن قنجوبغا وهو من أقارب الملك طقطاي، وكان معه نحو ثلثمائة نفر كباراً وصغاراً وماليك وجوار، فلما حضر أمام السلطان الناصر، قدم له الهدية وقال للناصر: ابن عمك يسلم عليك ويهنئك بهذا الملك الذي أعطاك الله، ولم يكن اليوم شيء مثل ملكك، وذكر في حديثه ما جرى على عسكر طقطاي بسبب قراسنقر وأصحابه وأن الهزيمة وقعت بسببهم، وطلب أيضاً من الناصر سلاحاً وعدداً إنعاماً من السلطان عليه، فخلع عليه السلطان وأعطاه كل ما طلب وسلمه هدية إلى الملك طقطاي، وقال له الناصر: سلم على ابن عمي وقل له: يسير إلى جوارى ملاحا وماليك قفجاق، وعرفه إذا تحرك خدابنده عليه يسير إلى. أعبّر إليه من قدامه، وبجىء هو من خلفه ونخرب دياره ونتملع آثاره، وأى مكان وصلت خيالي يكون لي، وأى مكان وصلت نحياء يكون له، ونملك بغداد ونعيد الخليفة إلى كرسي خلافته إن شاء الله تعالى» وسار الرسول إلى بلاده عن طريق الإسكندرية (١). وبالرغم من كل ذلك فإن طقطاي كان على دين المغول وكان له ولد قد أسلم إلا أنه مات قبل والده، وتوفي طقطاي بين عامي ٧١٢-٧١٣ هـ / ١٣١٢-١٣١٣ م (٢). واستمرت العلاقات الودية بين الجانبين في عهد أزباك عام ٧٣٠-٧٤١ هـ / ١٣١٣-١٣٤٠ م ابن أخي طقطاي الذي حكم بعده وحذا حذو بركة خان في نشر الإسلام في بلاده «فأخلص في الإسلام غاية الإخلاص وتظاهر بالديانة والتمسك بالشريعة وحافظ على الصلاة وداوم على الصلاة» (٣). وأصبح الإسلام ثابت الأركان في عهده (٤) وظهرت نتيجة ذلك في استمرار العلاقات الودية بين أزباك وبين دولة المماليك في مصر، وتبادل كل منهما المراسلات والهدايا والسفارات، ثم أراد الناصر محمد عقد معاهدة مع أزباك خان، فأرسل الأمير علاء الدين ايدغدني الخوارزمي ومعه حسين بن صاروا أحد مقدمي الحلقة وذلك عام ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م

(١) الدر الفاخرص ٢٧٩-٢٨١.

(٢) النجوم ج ٩ ص ٢٢٦، دول الإسلام ج ٢ ص ٢٦٩.

(٣) صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٧٤.

(٤) تاريخ المماليك البحرية ص ١٣١، دولة بني قلاوون في مصر ص ٢١٨.

ومعهم رسالة إلى أزبك خان تتضمن طلب الناصر للمصاهرة وزواجه من بنات ملوك البيت الجنكيز خاني، فلما وصل الرسل بهذا الجواب وعرضه أزبك على أمراءه فنفروا منه أول الأمر وقالوا « هذا لم يقع مثله فيما تقدم من حين ظهور جنكيز خان وإلى هذا الوقت، وفي مقابلة ماذا تجهز ابنة ملك من الذرية الجنكيز خانية إلى الديار المصرية؟ » ورفضوا طلب الملك الناصر لأنهم اعتبروا ذلك خروجاً عن تقاليدهم وعاداتهم، ولكنهم مالبتوا أن اجتمعوا بعد أن وصلت هدايا الملك الناصر ودرسوا الموضوع مرة ثانية وعدلوا عن رأيهم الأول وعملوا على تذليل الصعاب في مسألة زواج الناصر وقالوا: ما زالت الملوك تخطب إلى الملوك وملك مصر ملك عظيم يتعين إجابته إلى ما طلب إلا أن هذا الأمر لا يكون إلا بعد أربع سنين، سنة كلام سنة خطبة سنة مهادة سنة زواج»^(١) ووضعوا شروطاً لإتمام الزواج تنص على أن يدفع الملك الناصر مليون دينار ومليون فرس وألف عدة كاملة للحرب، وأن يحضر بعض الأمراء ونسائهم لمصاحبة الأميرة المغولية في سفرها إلى مصر، وغير ذلك مما يتعذر إجابته. فلما عاد الرسل من عند أزبك خان عدل الناصر عن الخطبة^(٢)، ويبدو أن المصاهرة السياسية التي أرادها السلطان الناصر لم تكن لتتحقق بسرعة نظراً لارتباط المغول بعاداتهم وتقاليدهم القديمة بالرغم من دخولهم دين الإسلام، فإنهم لم يتخلصوا من تعاليم جنكيزخان، فكانوا ينظرون إلى الممالك نظرتهم إلى العبيد والأرقاء وأنهم أقل منهم قدراً، وقال القلقشندي حول هذا الموضوع: « إن ملوك هذه الطائفة مع ظهور الإسلام فيهم وإقرارهم بالشهادتين مخالفون لأحكامها في كثير من الأمور، واقفون مع سياسة جنكيزخان التي قررها لهم وقوف غيرهم من أتباعه مع مؤاخذه بعضهم بعضاً أشد المؤاخذه في الكذب والزنا ونبد الموائيق والعهود، وقد جرت عادة ملوكهم أنهم إذا غضبوا على أحد من أتباعهم أخذوا ماله وباعوا أولادهم»^(٣) واستمر وصول الرسل وانتقالهم بين المملكتين دون أن تتعرض لمسألة المصاهرة. ثم سار أسنير سيف الدين أطرجي من مصر

(١) دولة بني قلاوون في مصر ص ٢١٩.

(٢) السنوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٤، دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٢٠، تاريخ الممالك

البيهرية ص ١٢١.

(٣) صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧٤.

إلى بلاد أذربك خان حاملاً الهدايا والتحف والملابس الفاخرة ، فتحدث معه أذربك في مسألة زواج الملك الناصر محمد وقال له : « قد جهزت لأخي السلطان الملك الناصر ما كان قد طلب وعينت له ابنة من البيت الجنكيز خاني » فقال الأمير سيف الدين لأذربك : « إن السلطان لم يرسلني في هذا الأمر » فلما تحدث أذربك مع السفير في موضوع الصداق اعتذر الأمير سيف الدين عن التحدث في هذا الموضوع لعدم وجود مال معه ، ثم طلب أذربك خان من التجار أن يقوموا بإقراض السفير بعض الأموال فاقترض منهم سبعة وعشرين ألف دينار (١) ثم جهزت الخاتون دلنبيه بنت طغاي بن هندوبن باطوبن دوشي خان بن جنكيزخان (٢) ومعها جماعة من الأمراء في مائة وخمسين رجلاً وستين جارية (٣) وصحبهم قاضي مدينة صراى ، وركبوا جميعاً البحر في شهر رمضان عام ٧١٩ هـ / أكتوبر ١٣١٩م قاصدين مصر ، ومروا في طريقهم بالتسطنطينية ثم تابعوا سفرهم إلى الإسكندرية فوصلوا إليها في ربيع الأول سنة ٧٢٠ هـ / أبريل ١٣٢٠م حيث كان في انتظارها الأمير اقبغا عبد الواحد وبعض الحجاب وثمانية عشر حرافة . فركبت الأميرة في الحرافة السلطانية الكبرى ، ثم نقلت إلى قلعة الجبل في عجلة موشاة بالذهب والديباج (٤) ، وأكرم الناصر الأميرة والوفد الذي رافقها ودعاهم لمقابلته ، ولما مثل كبير رسل أذربك بين يديه ، سلمه رسالة أذربك وقال له فيها : « أقول أذربك .. قد سيرنا لك من بيت كبير ، فإن أعجبتك نخذها بحيث لا تخلى عندك أكبر منها، وإن لم تعجبك فاعدل بقوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) ، فقال له السلطان « نحن ما نريد الحسن وإنما نريد كبير البيت والقرب من أخي ونكون وإياه شيئاً واحداً (٥) . ومرت أيام قليلة على وصول الأميرة والوفد المرافق لها ثم عقد الزواج على صداق قدره ٣٠ ألف دينار ، وأثمرت هذه الزيجة بأن وطدت الصلات

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٤ ذكر أنها ثلاثون ألف دينار .

(٢) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٣ .

(٣) قيل إن عدد من رافقها ألفا شخص وأربعمائة ، توفي منهم في الطريق أربعمائة شخص ووصل الباقون معها : الدر الفاخر ص ٣٠٣ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٤ تاريخ المماليك البحرية ص ١٣١ . مصر في العصور الوسطى ص ٢٧٤ ، الدر الفاخر ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٥) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٠٤ ، دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٢٠ .

بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق ، وعادت العلاقات مثلما كانت في عهد بركة خان والملك الظاهر بيبرس الذي حالف بركة خان وتزوج من ابنته^(١) ، وجهاز الناصر الرسل بالهدايا والعطايا وسفرهم ، ووصلت رسل أزبك خان في عام ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م إلى مصر بكتاب من أزبك إلى الملك الناصر محمد يتضمن احتجاج الملك أزبك على إطلاق الناصر للخاتون طوابية - دلنيه - بنت طقطاي أختي أزبك ، ثم زوجها الملك الناصر بأحد المماليك فطالب أزبك عودتها إلى بلادها فأجابها السلطان الناصر بأنها ماتت وأرسل إليه هدية^(٢) . وقدم مراد قجا رسول أزبك إلى مصر في آخر جمادى الأولى عام ٧٣٧ هـ / ديسمبر ١٣٣٦ م ، فأقام خمسة أشهر وعاد إلى بلاده في الرابع عشر من ذي القعدة عام ٧٣٧ هـ / يونيو ١٣٣٧ م^(٣) ، ثم أرسل الناصر سفارة إلى بلاد أزبك عام ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م ومعهم هدية إلى أزبك خان وعشرون ألف دينار لشراء ممالك وجوار من بلاد مغول الشمال^(٤) فقدمت رسل أزبك خان إلى مصر بهدية وكتاب يطالب أزبك فيه بمصاهرة السلطان الناصر ، ويبدو أن ذلك الطاب كان مقابلاً لزواج الناصر من الأميرة المغولية وبوتها كما أشرنا ، وأنعم الناصر على الرسل وعادوا . وتوفي أزبك خان قبل أن تتم هذه المصاهرة وذلك عام ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م ، فتولى الملك بعده جاني بك خان^(٥) . وكان أزبك لما توطدت علاقاته مع الملك الناصر طالب منه أن يساعده على إخمد أبي سعيد إيلخان المغول في فارس ، ولكن نظراً للدخول الناصر في ائتناق وصلاح مع أبي سعيد ، اعتذر لأزبك عن قتال أبي سعيد في هذا الوقت ، وأوضح له أن إيلخان مغول فارس قد اعتنق الإسلام وأنه قد عمل على إزالة أسباب العداوة بين السويين فلا يجوز نقض الصلح إلا بما يستوجب ذلك ، وعلى أثر ذلك دارت المفاوضات بين أزبك خان وأبي سعيد وانتهت بعقد الصلح بينهما ، وأعاد كل منهما ما أخذه من الآخر^(٦) . واستمرت العلاقات الودية بين الدولتين أيام

(١) الدرر النفاخر ص ٣٠٣ ، مصر في العصور الوسطى ص ٢٧٢ ، دولة بني قلاوون ص ٢٢٢١ .

(٢) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٧٨ .

(٣) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤١١ .

(٤) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٢٣ .

(٥) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٥٨ ، النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٧٤ .

(٦) مصر في العصور الوسطى ص ٢٧٤ ، تاريخ المماليك البحرية ص ١٣١ .

جاني بك خان ابن أزبك خان ، وتبادل الطرفان الرسائل عام ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م ، ولم تكن هذه العلاقات الودية لتتغير أو تضطرب بسبب انحلال دولة مغول القفجاق وضعنها بعد وفاة بردى بك ابن جاني بك ، فظل الصفاء بينهما ، وأرسل السلطان الملك الأشرف شعبان إلى أرض خان الذي انتزع الملك من حفدة أزبك خان ، وفداً مزوداً بالهدايا ، وبعض الطرف ، ثم أرسل شعبان إلى أرض خان رسالة أخرى يتباهى فيها الملك الأشرف شعبان بعظمة ملكه وتوارث أسرته الحكيم ، ويعتذر له في تأخره في الكتابة إليه لانشغاله بمحاربة الصليبيين الذين أغاروا على الإسكندرية ، وجاء في هذه الرسالة « الحمد لله الذي وهبنا ملكاً دانت له الأقطار وازدانت الأسرة والتهيجان بما له من عظمة . . . ونحمده على أن جعل مملكتنا الشريفة هي محل الإمامة العباسية ، فلا جحود ولا إنكار . . . ونشكره على أنه أورثنا ملك أسلافنا الشهداء فأقر العيون وسر الأسرار ، وجعل السلطنة العظيمة في بيتنا المكرم ، تنتقل تنقل البدور في بروجها . . . وكان لنا مدة مديدة ، وقد تأخرت رسلنا عن حضرتك ولم تصدر من جهتنا الشريفة . . . ولا وردت رسل من جهتك ، ولم يشغلنا عن ذلك لإموافقة الفرنج المخذولين أعداء الدين ومقاومتهم في سائر السواحل بشدة البأس والتمكين . . . وقد وجهنا إلى المقام العالی أعلى الله شأنه صحبة رسلنا المذكورين من الأقسمة الإسكندرية وغيرها على سبيل الهدية والمذاهب السنية . . . » (١)

وخلاصة القول أن العلاقات بين مغول القفجاق ودولة المماليك كانت قائمة على أساس متين وصلات وثيقة ربطت بين الدولتين وفي مقدمتها العقيدة الإسلامية ، ثم العداوة السياسية لدولة مغول فارس التي قامت دوماً على التوسع على حساب جيرانها منذ عهد جنكيز خان ، سواء كانت هذه السياسة مع المماليك أو مغول القفجاق ، ولهذا فإن العلاقة بين مغول فارس بعد إسلامهم أيضاً لم تحصل إلى نفس المستوى التي كانت وصلت إليه العلاقة مع مغول القفجاق لما ذكرناه من نزعة السيطرة والتوسع التي تمكنت من نفوس معظم ملوك فارس (٢) .

وظلت العلاقات المملوكية المغولية قائمة على الود والمسالمة خاصة بعد الصالح الذي

(١) دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٢٢ .

(٢) دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٢٢ . ٢٢٣ .

عقد بين المماليك والمغول في الشرق ، أضف إلى هذا أنه كان لا بد من قيام علاقات سلمية مع المغول في تلك الفترة بالذات ، إذ كان على المماليك مواجهة الخطر الصليبي الذي عاد إلى الظهور من جديد .

وفي الختام ، أرجو الله أن أكون قد وفقت في بحثي هذا . . .

الملاحق

ملحق رقم ١

نص خطاب إيلخان أحمد تكدار ملك المغول بفارس إلى السلطان الملك المنصور

قلاوون سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م)

« بسم الله الرحمن الرحيم »

بقوة الله تعالى ، باقبال قاآن (كذا) فرمان أحمد إلى سلطان مصر ، أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى ، بسابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار برؤوسه والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده في دينه ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين وإصلاح أمور المسلمين ، إلى أن أفضت بعدأبينا الحبيب وأخينا الكبير نوبة الملك إلينا ، فأفاض علينا من جلابيب ألطافه ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه ، وجلا هدى المملكة على يدينا ، وأهدى عقيلتها إلينا . فاجتمع عندنا في قوريلتاي المبارك وهو المجمع الذي تنقذ فيه الآراء جميع الإخوان والأولاد ، والأمراء الكبار ومقدمي العساكر وزعماء البلاد ، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير في إنقاذ اللحم الغفير من عساكرنا التي ضافت الأرض برحبها من كثرتها وامتلاأت الأرض رعباً لعظيم صولتها وشديد بطشتها إلى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها شم الأطواد ، وعزيمة تلين لها صم الصلاد . ففكرنا فيما تمخضت زبدة عزائمهم عنه واجتمعت أهواؤهم عليه ، فوجدناه مخالفا لما كان في ضميرنا من اقتناء الخير العام الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام وألا يصدر عن أوامرنا ما أمكنا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء . وتجرى به في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيماً لأمر الله وشفقة على خلق الله .

فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة وتسكين الفتن النائرة وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرسلنا إليه من تقديم ما يوحى به شفاء مزاج العالم من الأدواء ،

وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، وإننا نحب المسارعة إلى هذا الفصال للنضال إلا بعد إيضاح الحجة ، ولا نأذن لها إلا بعد تبين الحق ووضوح الحجة . .

وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح إذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن ، الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين ، فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه ونقمة على من أعرض عنه وعصاه . وأنفذنا أقصى القضاة وقطب الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ، ليعرفاهم طريقتهما ويتحقق عندهم ما ينطوى عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا وبيننا لهم أنالهم من الله على بصيرة ، وأن الإسلام يجب ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلبنا أن نتبع الحق وأهله ، ويشاهدون عظيم نعمة الله . على الكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان ولا يحرموها بالنظر إلى سالف الأحوال وكل يوم هو في شأن ، فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل يستحكم بسببه دواعي الاعتماد وحجة يثبون بها من باوغ المراد ، فلينظروا إلى ما ظهر من أثرنا مما اشتهر خبره وعم أثره .

فإننا ابتدأنا بتوفيق الله تعالى بإعلاء أعلام الدين ، وإظهاره في إيراد كل أمر وإصداره تقديمًا ، وإقامة نواميس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدى لإجلال وتعظيم ، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة أو اقترف وقابلناه بالصنح وقلنا عما الله عما سالف ، وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين ، من المشاهد والمساجد والمدارس ، وعمارة بقاع البر والربط الدوارس وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة إلى مستحقها لشروط واقفها ، ومنعنا أن يلتمس شيء مما استحدث عليها ، وألا يغير أحد مما قرر أولاً فيها وأمرنا بتعظيم أمر الحاج وتجهيز وفدها ، وتأمين سبائها وتيسير قوافها ، وأنا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد ، ليسافروا بحب اختيارهم على أحسن قواعدهم ، وحرمنا على العساكر والقوا غزل والشحاني في الأطراف التعرض بهم في مصادرهم ومواردهم وقد كان صادف قراغولنا جاسوساً في زى الفقراء كان سبيل مثاه أن يهلك فلم يهرق دمه لحرمة ما حربه الله تعالى ، وأعدناه إليهم ، ولا يخفى عليهم ما كان في إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين ، فإن عساكرنا طالما رأوهم في زى الفقراء والنسك وأهل الصلاح ، فساءت ظنونهم في تلك الطوائف ، فقتلوا منهم من قتلوا وفعلوا بهم

ما فعلوا وارتفعت الحاجة بحمد الله إلى ذلك ، بما صدر إذنا به من فتح الطريق وتردد التجار وغيرهم ، فإذا أمعنوا الفكر في هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عليهم أنا أخلاق جبلية طبيعية وعن شوائب التكاف والتصنع عريه ، وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المضرة التي كانت موجبة المخالفة ، فإنها كانت بطريق الدين والذب عن حوزة المسلمين ، فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين وإن كان لما سبق من الأسباب ، فمن تحرى الآن طريق الثواب فإن له عندنا لزلقى وحسن مآب .

وقد رفعنا الحجاب ، وأتينا بفصل الخطاب وعرفناهم ما عزمنا عليه بنية خالصة لله تعالى على استئنائها ، وحرمانا على جميع عساكرنا العسل بخلافها لترضى بها الله والرسول وتلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول وتسترىح من اختلاف الكلمة هذه الأمة وتنجلي بنور الائتلاف ظلمة الاختلاف والغمة ، فيسكن في سابغ ظلها البوادي والحواضر ، تقرأ القلوب التي بلغت من الجهد الحناجر ، ويعنى عن سالف الهنات والجرائر ، فإن وفق الله سلطان مصر لاختيار ما فيه صلاح العالم ، وانتظام أمور بني آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى وسلوك الطريقة المثلى بفتح أبواب الطاعة والاتحاد ، وبذل الاخلاص بحيث تغمر تلك المدائن والبلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة وتغمد السيوف البائرة ، وتحل أظافه أرض الهوينى وروض الهدون ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذب والهون ، وإن غاب سوء الظن بما تنضيل به واهب الرحمة ومنع من معرفة قدر هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عذرنا ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، والله الموفق للرشاد والهداد ، وهو المهيم على البلاد والعباد وحسبنا الله وحده .

كتب في (مدينة) واسط (في شهر) جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين
وسمائة ، بمقام الأوطان .

ملحق رقم ۲

نص خطاب السلطان قلاوون ردّاً على رسالة أحمد أغا تكودار .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

بموة الله تعالى . بإقبال دولة السلطان الملك المنصور . أما بعد، حمداً لله الذي أوضح بنا ولنا الحق منهاجا ، وجاء بنا فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا ، والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذي فضله الله على كل نبي نجي به أمته وعلى كل نبي ناج . صلاة تنير ما دجا وتجير من داجي . فقد وصل الكتاب الكريم، المتلقى بالتكريم المشتمل على النبأ العظيم . من دخوله في الدين ، وخروجه عن خلف من العشيرة والأقربين . ولما فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر المعلم المعلم، والحديث الذي صح عند أهل الإسلام إسلامه، وأصبح الحديث ما روى عن مسلم ، وتوجهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه في أن يثبت على ذلك بالقول الثابت وإن ينبت حب هذا الدين في قلبه كما أنبته من أحسن النبت من أحسن المنابت ، وحصل التأمل للفصل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه النية في أول العمر وعنقوان الصبا والإقرار بالوحدانية ، ودخوله في الملة المحمدية بالقول والعمل والنية فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام، وألهمه شريف هذا الإلهام، كحمدنا الله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المنال والمقام . وثبت أقدامنا في كل موقف اجتهاد وجهاد تنزل دونه الأقدام . وأما إفضاء النوبة في الملك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير إليه ، وإفاضة جلايب هذه المواهب العظيمة عليه . وتوقله الأسرة التي طهرها إيمانه وأظهرها سلطانه . فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباده، وصدق المبشرات له من كرامة أولياء الله وعباده . وأما حكاية اجتماع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدمي العساكر وزعماء البلاد في مجتمع قوريلتاي الذي تنقدح فيه زند الآراء . وإن كلمتهم اتفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير في إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب ، وأنه

فكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم وانتهت إليه أهواؤهم ، فوجد مخالفاً لما في ضميره إذ قصده الصلاح ، ورأيه الإصلاح ، وأنه أطفأ تلك الثائرة ، وسكن تلك النائرة ، فهذا فعل الملك المتقى المشفق من قومه على من بغى ، المفكر في العواقب بالرأى الثاقب ، وإلا فلوتركوا وآراؤهم تحملهم العزة ، لكانت هذه الكرة هي الكرة ، لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، ولم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى ، وأما القول منه بأن لا يجب المسارعة إلى المقارعة ، إلا بعد إيضاح الحججة وتركيب الحججة ، فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته المترتبة ، وعلى من غدت طواغيته عن سلوك هذه الحججة متنكبة ، فإن الله تعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصر هذه الملة ، وجهادنا واجتهادنا إنما هو على الحقيقة لله . وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول فقد ذهبت الأحقاد وزالت الدخول ، وبارتفاع المناثرة ، تحصل المظاهرة ، فالإيمان كالبنيان يشد بعضه ببعض . ومن أقام منارة فله أهل بأهل في كل مكان وجيران بجيران في كل أرض ، وأما ترتيب هذه القواعد الجمة على أذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن ، أعاد الله من بركاته ، فلم تر لولى قبله كرامة كهذه الكرامة والرجاء بركاته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار للإسلام دار إقامة حتى تتم شرائط الإيمان ويعود شمل الإسلام مجتمعاً كأحسن ما كان ، ولا ينكر لمن لكرامته ابتداء هذا التمكّن في الوجود ، إن كل حق بركته إلى نصابه يعود ، وأما إنفاذ أقصى القضاة قطب الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين الموثوق بنقلهما في إبلاغ رسائل هذه البلاغة ، فقد حضروا وأعادوا كل قول حسن من حوالى أحواله وخطرات خاطره ، ومنتظرات ناظره ، ومن كل ما يشكر ويحمد ، ويعنون حديثهما فيه عن مسند أحمد وأما الإشارة إلى أن النفوس إن كان لها تطلع إلى إقامة دليل تتحكم به دواعى الود الحميل فليُنظر إلى ما ظهر من مآثره في موارد الأمر ومصادره ، ومن العدل والإحسان بالقلب واللسان ، والتقدم بإصلاح الأوقاف والمساجد والربط وتيسير للحج إلى غير ذلك ، فهذه صفات من يريد للملكه الدوام ، فلما ملك عدل ، ولم يمل إلى لؤم من عدى ولا لؤم من عدل على أنها وإن كانت من الأفعال الحسنة والمثوبات التي تستنطق بالدعاء الألسنة فهي واجبات تؤدي وقربات بمثلها يبدى ، وهو أكثر من أنه بإجراء غيره يفتخر ، أو عليه ينتصر ، أوله يدخر ، بل إنما يفخر الملوكة الأكبر برد ممالك على ملوكها ، ونظم ما كانت

عليه في سلوكها . وقد كان والده فعل شيئاً مع الملوك الساجوقية وغيرهم ، وما كان أحد منهم يدينه بدين ولا دخل معه في دين ، وأقرهم في ملكهم وما زحزحهم عن ملكهم ، ويحب عليه الأيدي حتى مغتصبا ، ويأبى إلا رده ولا بقاء ممتداً بالظلم ويرضى إلا صده ، حتى إن أسياف ملكة تقوى وأيامه تترين بأفعال التقوى ، وأما تحريمه على العساكر والتمراغولات والشحاني بالأطراف التعرض إلى أحد بالأذى وإرضاء موارد الواردين والصادرین من شوائب الغدۃ فمن حين بلغنا تقدمه بمثل ذلك تقدمنا أيضاً بمنه إلى سائر نوابنا بالرحبة والبيرة وعينتاب وإلى مقدمي العساكر بأطراف تلك الممالك ، وإذا اتحد الإيمان ، وانعقدت الأيمان تتم هذا الأحكام ، وترتب عليه جميع الأحكام . وأما الجاسوس الفقير الذي أسسك وأطلق . وأن بسبب من تزييا من الجواسيس بزي الفقراء قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رجما بالظن ، فهذا باب من تلقاء ذلك الجانب كان فتحه ، وزاد من ذلك الطرق كان قدحه ، وكم من متزيى بفقير من ذلك الجانب سيروه وإلى الاطلاع على الأمور سوروه . وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرجع عنهم السيف ولم يكشف ما غطوه بخرقه الفقر بكم ولا كيف . وأما الإشارة إلى أن باتفاق الكلمة تنجلي ظلم الاختلاف وتدريبها من الخيرات والأخلاف ، ويكون بها صلاح المعالم ، وانتظام شمل بني آدم فلا راد لمن فتح أبواب الاتحاد وجنح إلى السلم فما حاد ولا جامد ، ومن ثنى عنانه عن المكافحة ، وكان كمن مد يد المصالحة للمصافحة ، والصلح وإن كان سيد الأحكام ، فلا بد من أمور تبنى عليها قواعده ، ويعلم من مداولها فوائده بالأمور المسطورة في كتابه هي كليات لازمة يعسر بها كل معنى ومعلم أن تهيأ صلح أو لم ، ثم أمور لا بد وأن تحكم وفي سلكها عقود العهود تنظم ، قد تحسبها بلسان المشافهة التي إذا أوردت أقبلت إن شاء الله عليها النفوس وأحرزتها صدور الرسائل كأحسن ما تحرزها سطور الطروس . وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقواه تعالى ، (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ، فما على هذا النسق من الود ينسخ ، وعلى هذا السبيل ينهج ، بل الفضل للمتقدم في الدين . ونصره عهداً ترعى ، وإفادات تستدعى ، وما يبرح الفضل للأرلوية وإن تناهى العدد للواحد الأول . ولو تأمل مورد هذه الآية في غير

مكانها لتروى وتأول ، وعندما أنهينا إلى جواب ما لعله بحث عنه الجواب من فصول المكاتبة سمعنا المشافهة التي على لسان أفضى القضاة قطب الدين ، فكان ما يناسب ما في هذا الكتاب من دخواه في الدين ، وانتظام عقده بسلك المؤمنين وما بسطه من عدل وإحسان ، مشكورة بلسان كل إنسان ، فالمنة لله عليه في ذلك فلا يشينها منه بامتنان ، وقد أنزل الله على رسوله في حق من امتن بإسلامه : (قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) . ومن المشافهة أن الله قد أعطاه من العطاء ما أغناه عن امتداد الطرف إلى ما في يد غيره من أرض وماء فإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك ، فالأمر حاصل بالجواب إن تم أموراً متى حصلت عليها الموافقة ابتهى على ذلك حكم المصاحبة والمصادقة ورأى الله والناس كيف يكون تصافينا وإزالة عدونا وإعزاز مصطفينا ، فكم من صاحب وجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة ، وما تم أمر هذا الدين واستخدم في صدر الإسلام إلا بمضافرة الصحابة ، فإن كانت له رغبة معروفة إلى الاتحاد ، وحسن الوداد وجميل الاعتضاد وكبت الأعداء والأضداد والاستناد إلى من يشتد الأزر به عند الاستناد فالرأى إليه في ذلك من المشافهة أنه إن كانت الرغبة ممتدة الأمل إلى ما في يده من أرض وماء فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة ، فالجواب عن ذلك ، أنه إذا كلف كلف العدوان وترك المسلمين وما لهم من ممالك ، سكنت الدهماء ، وحتمت الدماء وما أحقه بأن لا ينه عن خلق ويأتى مثله ولا يأمر ببر وينهى فعله ، قنغر طاب بالروم وهي بلاد في أيديكم ، وخراجها يجبي إليكم وقد سفك فيها وفتك وسبي وهتك ، وباع الأحرار وأبى إلا التماذي على الإصرار ، ومن المشافهة أنه إن حمل التصميم على ألا تبطل هذه الغارات ولا يفتر عن هذه الإتارات ، فتعين مكانا يكون فيه اللقاء ، ويعطى الله النصر لمن يشاء ، فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي اتفق فيها ملتقى الجمعين مرة مرة ، قد عاف مواردنا من سلم أرائك القوم . وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم ، فوقت اللقاء علمه

ملحق رقم ٣

نص فرمان إيلخان غازان لتأمين أهل دمشق ، قبيل دخوله بعساكره إليها في ربيع الآخر سنة ٥٦٩٩ هـ (يناير ١٣٠٠ م) .

بقوة الله تعالى ، ليعلم أمراء التومان والألوف والمائة ، وعموم عساكرنا المنصورة من المغول والتازيك والأرمن والكرج ، وغيره ممن هو داخل تحت ربة طاعتنا أن الله لما نور قلوبنا بنور الإسلام ، وهدانا إلى ملة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام .

أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ، ولما أن سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الإسلام . ناقضون لعهودهم حالقون بالإيمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا زمام ، ولا لأموارهم التثام ولا انتظام ، وكان أحدهم إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل . والله لا يحب الفساد ، وشاع من شعارهم الحيف على الرعية . ومد الأيدي العادية إلى حريمهم وأموالهم والتخطى عن جادة العدل والإنصاف وارتكابهم الجور والإعساف ، حملتنا الحمية الدينية والحفيظة الإسلامية ، على أن توجهنا إلى تلك البلاد ، لإزالة هذا العدوان وإمارة هذا الطغيان ، مستصحبين اللحم الغفير من العساكر ونذرنا على أنفسنا أن وفقنا الله تعالى بفتح تلك البلاد أزلنا العدوان والفساد وبسطنا العدل والإحسان في كافة العباد ممثلاً للأمر الإلهي : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) . وإجابة لما ندب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم أن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين . الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا وحيث كانت طويتنا مشتملة على هذه المقاصد الحميدة . والنذور الأكيدة ، ومن الله علينا بتبليغ تبشير النصر المبين .

والفتح المستبين ، وأتم علينا نعمته وأنزل علينا سكينته . فقهرنا العدو الطاغية والجحوش الباغية وفرقناهم أيدي سبا ، ومزقناهم كل ممزق ، حتى جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ، فازدادت صدورنا انشراحاً للإسلام وقويت نفوسنا بحقيقة الأحكام ،

منخرطين في زمرة من حبيب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وأولئك هم الراشدون، فضلا من الله ونعمة. فوجبت علينا رعاية تلك العهود الموثقة، والنذور المؤكدة، فصدرت مراسيمنا العالية ألا يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها، لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الإسلامية الشامية، وأن يكونوا أظنار التعدي عن أنفسهم وأموالهم وحرمتهم ولا يحوموا حول حماهم بوجه من الوجوه، حتى يشتموا بصنور مشروحة، وآمال مفسوحة بعمارة البلاد وبما هو كل واحد بمحدده، من تجارة وزراعة وغير ذلك، وكان هذا الروح العظيم وكثرة العساكر، فتعرض بعض نفر يسير من السلاجقة وغيرهم إلى نهب بعض الرعايا وأسراهم فتمت لنا هم ليعتبر الباقيون ويتمتعوا أطمانهم عن النهب والأمر، وغير ذلك من الفساد، وليعلموا أننا لا نسامح بعد هذا الأمر البايغ ألبتة، وألا يتعرضوا لأحد من أهل الأديان على اختلاف أديانهم من اليهود والنصارى والصابئة، فإنهم إنما يبذلون الجزية عنهم من الوظائف الشرعية، لقول علي عليه السلام إنما يبذلون الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا والسلاطين موصون على أهل الذمة المطيعين، كما هم موصون على المسلمين، فإنهم من جملة الرعايا، قال صلى الله عليه وسلم: الإمام الذي على الناس راع عليهم، وكل راع مسئول عن رعيته، فسبيل القضاة والخطباء والمشايخ والعلماء الشرفاء، والأكابر والمشايخ وعامة الرعايا، والاستبشار بهذا النصر الهني، والفتح السني، وأخذ الحظ الوافر من السرور، والنصيب الأكبر من البهجة والحبور، متباين على الدماء لهذه الدولة القاهرة، والمملكة الظاهرة آباء الليل وأطراف النهار. كتب في خامس ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وسبعمائة.

السلوك ج ١ ق ٣ ص ١٠١١ ، ١٠١٢ .

الدر الفاخر ص ٢٠ إلى ٢٣ .

تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ٦٢ - ٦٤ .

بدائع الزهور ج ١ ص ١٤٠ ، ١٤١ .

ملحق رقم ٤

رسالة الملك الناصر إلى غازان بعد هزيمته الأخيرة في موقعة شقحب عام ١٣٠٢م /
١٣٠٠ م وأخبره فيها بما جرى على جيوشه التي امتلأ من قتلاهم فسيح الأرض
الفضاء حتى عفت لحومهم الوحوش ، وهذا نص الرسالة .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الحمد لله على ما جدد لنا من النعمة التامة وسمح به من الكرامة العامة حين
أعاد البدر إلى كماله ، والسرور إلى أتم أحواله ، فاشتاقت النفوس إلى عوايدها
وارتاحت القلوب إلى ملايدها ، وأضاعت شمس المعالي ، وطلعت بدورها بالسعد
المتوالى ، وارتاحت القلوب إلى معجز برهانها التالى . وكانت غلظة من الدهر
فاستدركها ، وسمطة خطب غطته فما ملكها . فقرت تلك العيون ، وتحققت في
بلوغ الآمال الظنون ، فله الحمد الجزيل ما لاح في الجو بارق وعرا في الليل
طارق ، وبعد :

فليعلم الملك محمود غازان جامع الوفود وحاشد الحشود أنه قد كان ما جرى وقدر
في القدم ، فلا راد لما قضى وبرم وحكم ، فحملنا ذلك أنه كان من ربنا تقدير .
وأنه ليس لأحد فيما أراد الله تعالى تدبير ، فما لبثت إلا اليسير من المدة حتى أرسلت
رسلك إلينا مجدة ، تطلب الصالح وتحث عليه ، وتذكر السلم وتندب إليه بعدما
اعتمدت الفساد في الأرضين ، وكان من الواجب علينا وعليك إصلاح ذات البين
فأكرمنا رسلك إكراماً يليق بجميل فعالنا ، وجاوبناهم بمقتضى حالهم لا حالنا .
وأعدناهم إليك . وقلدناك من البغى ما عاد وباله عليك فعدت وأرسلت تطلب منا
رسلا تسمع كلامك وقد فهمنا مقصدك ومرامك ، فأرسلنا إليك ما طلبت وركبناك
فرس البغى فيا بش ما ركبت :

فما كان إلا عند وصول رسلنا جهزت عساكرك وأظهرت الغدر لنا وحرصتهم بما
عاد وباله عليهم وما رأوه حاضراً لديهم . ثم شيعتهم من هناك ورجعت طالباً للسلامة

من الهلاك ، فما كان إلا أن دخلوا البلاد . وفعلوا ما أمرتهم به من الفساد . ونزلوا بالقرب من حلب وشنوا الغارة وجدوا في الطلب وسيرت من جيشك جماعة إلى القريتين . فشاهدتهم يزكنا المنصور مرأى العين . فوجدوهم وقد أخذوا أغنام التركمان فتلقوهم يزكنا بأضيق مكان فلم يلبث الباغون إلا ساعة من نهار وطلبوا الهزيمة والفرار . فلم يمهلوا حتى عجل الله بأرواحهم إلى النار وبقيت أجسادهم ملقاة بأرض عرض إلى يوم العرض . ثم سارت عساكرك طالبين الغوطة ولم يعلموا أن بها أسوداً مربوطة . وعساكرنا تتأخر عنهم قليلاً قليلاً . وأعيننا ترقبها بكرة وأصيلاً ، فلما عاينوا دمشق ظنوا أنهم يدخلونها ولأهلها بأسرون ، وما علموا أنهم في تجارتهم يخسرون ، فإن سجية الغدر للهلاك ومصراع البغي ليس منه فكاك . فلم تغرب الشمس حتى فرقناهم على أديم الأرض وشتتنا بعضهم عن بعض . والتجأ من بقي منهم إلى الجبل وباتوا وهم من سيوفنا على وجل ، وأقاموا عليه ليلة الأحد وظنوا أن ليس مقابلهم أحد ، فلما دقت نصف الليل كوساتنا المنصورة ، تحققتوا أنهم الغية الباغية المكسورة ، فعندما أصبحوا نظروا الأرض وقد سالت عليهم خيلاً ورجلاً حتى ضاقت بهم عن المجال ، فعندها ندموا حيث لا ينفعهم الندم وأيقنوا بعد السلامة بالعدم ، فنادى لسان حالهم - وقد قصروا في أعمالهم - اعتقنا أيها الملك الرحيم واعف عنا فإنك حلیم ، فأمرنا جيوشنا أن تفتح لهم طريقاً منها يخرجون وتركناهم من أمرنا يعجبون ، ففروا فرار الشاة من الأسد - ولم يلتفت منهم الوالد على الولد ، فلورأيت أيها الملك عساكر إمام ذليلاً أسيراً ، أو جريحاً عفيراً ، (وكان يوماً على الكافرين عسيراً) يوم تضاعف فيه المقتول والمأسور ، وتصاحب فيه الذياب والنسور وعادوا أصحابك طعاماً للذياب لعضيت على يدك وقلت (يا ليتني كنت تراباً) فبادر أيها الملك إلى حد الله العادل الذي لم ير عينك هذه المحافل ، ومرورها على سمعك أهون من العيان ونظرك إلى عورات أصحابك يفك عن البيان فإنه كان يوماً مشهوداً ، وكانت الملائكة فيه شهوداً . وقد نصحتك فما ارعويت وبذلت لك القول فما وعيت ، وركبت فرس البغي أحمر كميته ، فمن أجل ذلك عاد كل حي من جيشك ميتاً وقلنا لك : من جرد سيف البغي فهو به مقتول . فلا تعبأ بالقول ولا تفهم ما تقول فاستحببت الكفر على الإيمان فبئس ماسول لك الشيطان ، فإن شئت أن تقف معنا على الكتاب المبين (ولا تعثوا في الأرض

مفسدين) فنخرج أنا وأنت عن بغداد والعراق وتركهما لخليفة رسول الله إلى يوم التلاق ، وإن سولت لك نفسك بخلاف ذلك ، فأنت لا محالة هالك وعمما قليل يخلو منك العراق والعجم - وتندم حيث لا ينفعك الندم وقد أوضحنا لك الحق فلا تميل ، وهديناك إلى أقوم سبيل ، ونتقدم بإرسال رسلنا المرسولة إليك ولا تعوقهم حتى لا يكونوا وبالاً عليك ، وكان قد خيلت لك نفسك أن جيوشك تعبر الديار المصرية ، صدقت ولكن على غير حالة مرضية ، أما الخيول فعلى أيدي عساكرنا مجنوبة والطبول في أعناقهم مقلوبة ، وأما الرجال ففي أعناقهم الحبال والسلاسل والأغلال فعادت مغلكت كالكلاب في أيدي أسود الغاب ، فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعاً ، وإما الخروج عن الروم والعراق جميعاً ، وفي آخر هذه الرسالة البيتان :

وإن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى الشام في قابل
فإن السيوف التي ورخت مواقعها في يد القاتل

الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ص ١١٩ - ١٢٢ .

تاريخ سلاطين المماليك بمصر ص ١١٨ - ١٢١ .

ثبت بأسماء المصادر

- ١ - ابن تغرى بردى : أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٥٨٧٤)
 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
 ١٢ جزءاً - طبعة دار الكتب سنة ١٩٢٩ -
 ١٩٥٦ - الأجزاء التي اعتمدت عليها هي ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .
- ٢ - ابن الأثير : علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠ هـ) .
 - الكامل في التاريخ ١٢ جزءاً طبع الأزهرية بمصر ١٣٠١ .
 - الكامل في التاريخ ٩ أجزاء دار الطباعة سنة ١٣٤٨ هـ .
- ٣ - ابن إياس : محمد بن أحمد (ت ٩٢٠ هـ)
 - بدائع الزهور في وقائع الدهور طبعة القاهرة (بولاق) ١٨٩٤ م - الجزء الأول .
- ٤ - ابن العماد : عبد الحى الحنبلى . أبو الفلاح (ت ١٠٨٩ هـ)
 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٨ أجزاء الجزء الخامس طبع القاهرة مكتبة القدس سنة ١٣٥٠ هـ .
- ٥ - ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي بن أحمد بن محمد . (ت ٩٠٧ هـ)
 تاريخ الدول والملوك
 حرر نصه ونشره حسن محمد الشماخ البصرة مطبعة حداد

- الجزء السابع طبعة بيروت ١٩٤٢
الجزء الثامن طبعة بيروت ١٩٣٩
- ٦ - ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون المغربي
- العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ أجزاء طبعة
اليزيدية بالقاهرة ١٢٨٤ هـ .
الأجزاء ٣ . ٥
- ٧ - ابن كثير : إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)
- البداية والنهاية - مطبعة الخانكي ١٣٥١ هـ
الأجزاء ١٣ . ١٤
- ٨ - ابن عبد الحق البغدادي : عبد المؤمن (ت ٧٣٩ هـ) .
- مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ٣
أجزاء تحقيق على محمد البجاوي
دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٣٧٣ هـ /
١٩٥٤ م .
- ٩ - ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد
- فوات الوفيات ج ١ ، ٢
طبعة النهضة القاهرة سنة ١٩٥١
- ١٠ - أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد
ابن عمر بن أيوب (ت ٧٣٢ هـ)
- المختصر في أخبار البشر الجزء ٣ ، ٤
طبعة القسطنطينية - دار الطباعة الشهابية ١٢٨١ هـ
- ١١ - أبو بكر : أبو بكر بن عبد الله بن أيوب الدواداري
- الدر المنثور في سيرة الملك الناصر
تحقيق روبرت رويجر - القاهرة - قسم الدراسات
الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار سنة ١٩٦٠ م

- ۱۲ - أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل
- تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين
المعروف بالذيل على الروضتين جزء ۱
- ۱۳ - أبو الفوارس العدوى : عمر بن مظفر بن عمر بن محمد المصري (ت ۷۴۹)
- تنمة المختصر في أخبار البشر
الجزء الثاني طبعة القاهرة جمعية المعارف ۱۲۸۵ هـ
- ۱۴ - المقریزی : تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد
ابن إبراهيم بن محمد بن تميم (ت ۸۴۵ هـ)
- السلوك لمعرفة دول الملوك
تحقيق زيادة . طبعة القاهرة
الجزء الأول ۱۹۳۴ م
الجزء الثاني ۱۹۴۱ م
- ۱۵ - المقریزی : تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد
ابن إبراهيم بن محمد بن تميم (ت ۸۴۵ هـ)
- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار -
طبعة القاهرة سنة ۱۳۲۵ هـ (أجزاء ۲ ، ۳ ، ۴)
- ۱۶ - الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني
الفارقي الدمشقي (ت ۷۴۸ هـ)
- تاريخ دول الإسلام الجزء الثاني
طبعة حيدرآباد ۱۳۲۷ هـ
- ۱۷ - اليونبي : قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد بن أحمد
قطب الدين البعلبكي الحنبلي
- الذيل على مرآة الزمان
طبعة حيدرآباد الدكن ۱۹۵۴-۱۹۶۱ أجزاء ۱

- ١٨ - الديار بكري
 الشيخ حسين بن محمد الديار بكري
 - تاريخ الحميس في احوال انفس نفيس
 مطبعة القاهرة ١٣٠٢ - مطبعة عثمان عبد الرازق
 الجزء الثاني .
- ١٩ - البغدادى
 : كمال الدين ابي الفضل عبد الرازق بن الفوطى
 - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة
 السابعة طبع المكتبة العربية - بغداد - سنة
 ١٣٥١ هـ
- ٢٠ - الهمداني
 : رشيد الدين فضل الله
 - جامع التواريخ - طبعة القاهرة ١٩٦٠
 الجزآن ١ - ٢
- ٢١ - السيوطى
 : عبد الرحمن بن الكمال ابي بكر جلال الدين
 (ت ٩١١ هـ)
 - حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة - الجزء
 الثاني طبعة الشرفية بغداد ١٩٢٧ م
- ٢٢ - اليافعى
 : ابو محمد عبد الله بن اسعد بن على بن سليمان
 عفيف الدين اليافعى النمى (ت ٧٦٨ هـ)
 - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من
 حوادث الزمان - الجزء الرابع
 طبعة حيدر اباد الدكن
- ٢٣ - الاسحاظى
 : محمد بن عبد المعطى (ت ١٠٦٠ هـ)
 - اخبار الاول في من تصرف في مصر من ارباب
 الدول طبع القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ

٢٤ - القلقشندی

: أبو العباس أحمد القلقشندی (ت ٥٨٢١)
 - صبح الأعشى فی صناعة الإنشا (ج ٤ ، ٧
 ٨ ، ١٤) طبعة الأميرية القاهرة سنة ١٣٣٦ هـ .

٢٥ - السيوطی

: جلال الدين (ت ٩١١ هـ)
 - تاريخ الخلفاء وأمراء المؤمنين القائمين بأمر
 الأمة طبع القاهرة

٢٦ - رمزی

: م . م . رمزی
 تلفیق الأخبار وتلقيح الآثار
 المكتبة الكريمة والحسينية سنة ١٩٠٨ م

المراجع الحديثة

- ١ - جمال سرور :
 - دولة الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره
 القاهرة (١٩٦٠)
 - دولة بني قلاوون في مصر القاهرة (١٩٤٧)
- ٢ - حافظ أحمد حمدى :
 - الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى القاهرة
 (١٩٥٠)
 - الدولة الخوارزمية والمغول القاهرة (١٩٤٩)
- ٣ - سعيد عاشور :
 - مصر في عصر دولة المماليك البحرية القاهرة -
 مكتبة النهضة
- ٤ - على إبراهيم حسن :
 - مصر في العصور الوسطى من الفتح العربى إلى
 الفتح العثمانى القاهرة (١٩٦٤)
 - دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر
 الناصر محمد بوجه خاص
 النهضة (١٩٤٤)
- ٥ - فؤاد عبد المعطى الصبياد :
 - المغول فى التاريخ
 القاهرة (١٩٦٠)

٦ - محمود رزق سليم :

— عصر سلاطين المماليك في مصر ونتاجه العلمى
والأدبى القسم الأول من الجزء الأول
القاهرة ١٣٦٦ - ١٩٤٧

٧ - مصطفى طه بدر :

— محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية
من بغداد على أيدي المغول
مطبعة المكتب الثقافى بالجيزة ١٩٤٧

٨ - وليم مويزر :

— تاريخ دولة المماليك فى مصر - ترجمة
محمود عابدين - سليم حسن
القاهرة ١٩٢٤

٩ - لسترنج :

— بلدان الخلافة الشرقية
ترجمة بشير فرنسيس ، كوركيس عواد
بغداد سنة ١٩٥٤

١٠ - دائرة المعارف الإسلامية : م ٣ . ٥٠٤

REFERENCES

1. Howrth : Sir Henry.
History of the Mongols. Part III. London 1888.
2. C. C. Walker
Jenghiz Khan. London 1939.
3. The Mamluk Sultans:

C, 22023

بدار الكتب المصرية برقم

4. Babars I of Egypt : By Fatima Sadeque, Pakistan, 1956.

الفهرس

الصفحة

٥	تقديم
٩	مقدمة المؤلف

الفصل الأول

المماليك والتتار

أولاً : المماليك :

١١ - ٢٦	نشأة المماليك في بلاد الإسلام - نسب المماليك وتربيتهم وثقافتهم - الجيش المملوكى وأنظمتة مراتب الأمراء المماليك تكوين الجيش المملوكى - مقر الجيش المملوكى - مجلس الجيش - الأسرى ومعاملتهم - قيام دولة المماليك - عزل السلطان الأشرف موسى واستقلال أيبك بالحكم - بيعة الخليفة الحاكم بأمر الله في القاهرة
---------	---

ثانياً : التتار (المغول) :

٢٧ - ٣٥	وفاة جنكيز خان وتقسيم الإمبراطورية - الجيش المغولى - فرق الجيش المغولى - خطط المغول في غزو البلاد الأجنبية - معاملة المغول للأسرى
---------	---

الفصل الثانى

علاقة المماليك بالمغول حتى نهاية عهد السلطان قطز

	موقف بلاد الشام من التتار - سلطنة المظفر قطز وعزل الملك المنصور على - زحف التتار نحو الشام - دخول التتار دمشق -
--	---

الصفحة

إنذار التتار للماليك في مصر - موقعة عين جالوت ٦٥٨ هـ /
 ١٢٦٠ م - آثار موقعة عين جالوت في دمشق - دخول المظفر
 قطز دمشق - نتائج موقعة عين جالوت - مقتل المظفر قطز . ٣٦ - ٦٢

الفصل الثالث

العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس والمغرب

دولة السلطان الظاهر بيبرس :

هجوم التتار على الشام - موقعة حمص الأولى ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م
 - عودة السلطان الظاهر إلى مصر - هجوم التتار على الموصل
 علاقة السلطان الظاهر مع بركة خان - اضطراب بلاد الشام -
 اتفاق السلطان الظاهر مع صاحب بلاد الروم - اعتقال الملك
 المغيث عمر صاحب الكرك - تحالف الظاهر مع بركة خان -
 وصول جماعات من التتار إلى بلاد الإسلام - تحالف ملك
 الأرمن مع التتار - سياسة الظاهر مع الوافدين من بلاد التتار -
 مهاجمة التتار للبيرة - وفاة هولاكو خان ملك التتار - غزو بلاد
 أرمينية الصغرى - غارات التتار على بلاد الشام - تحالف
 الفرنجة مع التتار - طلب التتار الصلح مع الماليك - موقعة البيرة
 والنرات ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م محاولة التتار غزو الشام - غزو
 بلاد سيبس ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م - هجوم التتار على البيرة عام
 ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م - موقعة أبلستين ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م - دخول
 السلطان الظاهر قيسارية - عودة السلطان الظاهر من قيسارية -
 انتقام ابغا من الروم - وفاة السلطان الظاهر بيبرس ٦٧٦ هـ /
 ١٢٧٧ م - سلطنة الملك العادل سلامش وخلعه . ٦٣ - ١١٢

الفصل الرابع

علاقات قلاوون الألفي وأولاده بالمغرب

- سلطنة سيف الدين قلاوون الألفي (٦٧٨هـ / ١٢٧٩م) -
 أحوال دمشق ومصر أثناء موقعة حمص ٦٨٠هـ / ١٢٨١م -
 علاقة السلطان المنصور مع أحمد تكدار - علاقة الأشرف خليل
 بالمغول في فارس - مقتل الأشرف خليل ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م -
 الأحوال السياسية في فارس - وصول التتار الأروبرانية إلى
 بلاد الإسلام - سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين - غزو
 بلاد سبب - مقدمات غزو التتار للشام - خروج سلامش بن
 آفال عن طاعة غازان - خروج الملك الناصر إلى الشام ٦٩٩هـ /
 ١٢٩٩م - احتلال التتار دمشق ٦٩٨هـ / ١٢٩٩م - عودة
 غازان من الشام إلى الشرق - عودة السلطان الناصر إلى مصر
 واستعداده لقتال التتار - مسير الجيش من مصر إلى الشام -
 خروج الناصر محمد إلى الشام - طلب غازان للصلح عام
 ٧٠٠هـ / ١٣٠١م - مسير التتار إلى الشام - موقعة عرض
 ٧٠٢هـ / ١٣٠٣م - موقعة شقحب (مرج الصفر)
 ٧٠٢هـ / ١٣٠٣م - نتائج موقعة شقحب - عودة السلطان
 الناصر إلى مصر بعد شقحب - وفاة غازان ملك مغول فارس
 - وفود بعض التتار إلى بلاد الإسلام - محاولة غزو سبب عام
 ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م - اضطراب السلطنة المملوكية في مصر
 - اضطراب أحوال السلطان المظفر الجاشنكير - هرب نواب
 الشام إلى بلاد التتار - محاولة خدابندا غزو الشام ٧١٢هـ /
 ١٣١٢م - استيلاء المسلمين على مالطية - غارة المسلمين على
 ماردن ٧١٥هـ / ١٣١٥م - استعانة شريف مكة بالمغول -

الصفحة

وفاة خدابندا ملك مغول فارس - علاقة أبي سعيد ملك مغول فارس
 بالمماليك - مفاوضات الصلح بين التتار والمماليك - خروج
 دمرداش ابن جوبان على طاعة أبي سعيد - تطور العلاقات بين
 المماليك وأبي سعيد - وفاة أبي سعيد وتطور أحوال المغول بعده -
 حملة سيس ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م وأسبابها - وصول وفد من بغداد
 إلى مصر عام ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م - تطور أحوال الشيخ حسن
 الكبير - محاولة القان الكبير المغولي غزو العراق والشام - علاقة
 السلطان الناصر محمد بالشيخ حسن الكبير ١١٣-٢٠٤

الخاتمة

علاقة المماليك بمغول القفجاق ٢٠٥ - ٢١٨
 الملاحق ٢١٩ - ٢٣١
 المصادر ٢٣٢ - ٢٣٦



رقم الإيداع	١٩٧٦/٣٢٠٢
الترقيم الدولي ٤ - ٢٦٦ - ٢٤٦ - ٩٧٧	ISBN

هذا الكتاب

لم يعرف التاريخ حرباً مدمرةً تكتسح أمامها شتى مظاهر المدنية مثل حروب المغول في الشرق الإسلامي .. والتي انتهت بسقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية في ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م . وصارت جحافل المغول الشرسة تظل على المغرب الإسلامي كله بل الغرب المسيحي أيضاً . . . أولاً وجود المماليك في مصر . . . الذين أوقفوا زحف المغول بانتصارهم عليهم في موقعة عين جالوت (٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م) . لكن هذه الموقعة لم تنه هذا الخطر الساحق وإنما كانت بداية لنوع جديد من الصراعات التي صاحبها أشكال جديدة من العلاقات السياسية بين المغول والمماليك . . . وهذا الكتاب يعد بحق أول بحث مقارن في أطوار هذه العلاقات خلال تلك الفترة المتقلبة والخافتة من التاريخ الإسلامي . . .

والكتاب نجىء في وقته ليملأ فراغاً في المكتبة العربية في ناحية لم تأخذ بعد حقها الكافي من البحث والدراسة . . .